obeikandl.com

المليجي

رواية

تأليف : كمال رُحيِّم

القاهرة ٢٠١٤

ISBN 978 - 977 - 6299 - 82 - 5

وكالة سفنكس

7 شارع معروف الدور السابع

وسط البلد – القاهرة

ت/ف: 002 02 25792865

www.sphinxagency.com

info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو إقتباس أي جزء من

هذا العمل أو كله إلا بإذن كتابي.

ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Sphinx Agency © 2014

obeikandl.com

المليجي

رواية

كمال رُحيِّم

obeikandi.com

obeikandl.com

(١)

لا حل أمام الأستاذ قناوي، إلا أن يشغل نفسه بإعداد سيناريو..

أي سيناريو!

سيناريو لفيلم، لمسلسل، أو حتى لعمل درامي مدته ساعة. شيء يشغل به نفسه ويرتاح من دوامات السأم والإحباط، الدوامات التي ما إن يفلت من واحدة حتى يجد أختها في الانتظار..

متى راودته هذه الفكرة؟

أظنها راودته وهو يتابع مسلسل (ليالي الحلمية)، غير أنه لم يتحمس لها. تلقاها بوصفها فكرة خائبة، صنَّفها هكذا، وكلما لاحت له كان يرمقها بعبوس.

الأستاذ عباس زميله السابق في شئون العاملين، هو الذي

obeikandl.com

خايله بها من جديد.

كانا يومها في (المعاشات) ينهيان إجراءات تقاعدهما المبكر، بعد أن تبدل الحال وتغير المُلاَّك، فالشركة المحترمة التي كانا يعملان بها، شركة الغزل والنسيج التي كانت ملء السمع والبصر، لم تعد مملوكة للشعب والناس مثلما كانت تقول لنا وسائل الإعلام أيام (جمال)، أغلقوها وسلموا مفاتيحها لشيخ من الخليج اسمه (الرهوان).

بعد أن فرغا من الإقرارات والتوقيعات وتحديد العنوان الذي سوف ترسل عليه حوالة المعاش، عرَّجا إلى إحدى المقاهي يلملمان جراح المقلب الذي شرباه. فالمعاش كله، الأساسي على الأجور المتغيرة على الزيادات، كله كله، أربعمائة جنيه لقناوي أفندي وأربعمائة وخمسون للأستاذ عباس، وهما اللذان كانا يحسبان أن الحكومة قد عذبها الذنب الذي ارتكبته في حقهما، وأكيد سوف تعوضهما بمعاش محترم يغنيهما عن سؤال الناس.

***

المقهى التي لقياها أمامهما لم تكن مزدحمة، رجلان هنا وثلاثة هناك، ثم عجوز معه امرأة. العجوز محني على الطاولة التي أمامه يكتب شيئاً في ورقة، والمرأة تملي عليه من الذاكرة. جلسا بالقرب منهما، وأتت المشاريب، قدحان من الشاي ومعهما شِّيشة للأستاذ عباس.

لم يبدآ الجلسة بالكلام، انشغل كل منهما بحاله.
كان قناوي يهفو إلى التدخين، فأدخل يده في جيب السترة الداخلي باحثاً عن علبة الدخان، غير أنه لم يجدها أو حتى لقي نهاية للجيب، انفكت الخياطة وانزلقت منه كفه سابحة في فراغ البطانة. ومحاولة في الثانية في الخامسة ولا فائدة، فيبدو أن العلبة استقرت في مكان لا تطاله يده.

هذه رابع مرة تفعلها معه هذه البطانة، ولا تفعلها إلا في أحرج الأوقات. أول أمس مثلاً وهو في الأتوبيس شفطت منه حافظة النقود، والمحصل يلح على ثمن التذكرة وهو يلاحق المحفظة والركاب معه دقيقة بدقيقة. ومن اقترح عليه أن يخلع السترة وينفضها عدة مرات إلى أن تسقط المحفظة، والأستاذ أبو نظارة الذي قال:لا داعي لكل هذه البهدلة، واقترح على قناوي أن يسمح لولد صغير يقف إلى جوارهما بأن يدخل كفه في البطانة، فكفه صغيرة وإن شاء الله تصل. والرجل الطيب الذي عرض على المحصل أن يدفع عنه ثمن التذكرة، والمرأة السمينة قليلة الأدب التي انفجرت في الضحك، كانت فضيحة!
فكيف يتصرف الآن؟
هل يصبح مهزئة هنا، مثلما حدث في الأتوبيس!
كتم غيظه لاعناً السجائر ومن يصنعون السجائر وكل أصناف الدخان، وطفق يرشف من كوب الشاي صامتاً.

obeikandi.com

أما عباس فكان يدق على آلته الحاسبة مسترجعاً الرقم الذي ذكروه له في المعاشات، وفي ظنه أنهم ضحكوا عليه في خمسة جنيهات. أشاح بيده أخيراً ووجهه يقول: خمسة جنيهات أو حتى عشرة، بالسم الهاري يا لصوص! ثم أمسك بمبسم الشِّيشة، ودفقة دخان في الثانية ومال على قناوي:

- الحمد لله إن أم فتحي وارثة من أبوها ربع دكان، آهو اللي ييجي منه على المعاش على أي شغلانة ألزق فيها ويمشي الحال.

وغمغم مكلماً نفسه: أنا كلها سنة وكُتّ هحصل سن المعاش، يبقى هزعل ليه!

ثم رمق قناوي:

- وإنت ناوي على إيه يا بطل؟

- ناوي على إيه! ناوي أدورلي على أي بلاعة وهيلا هوب أرمي نفسي فيها.

فسأسأ عباس:

- بلاعة! بلاعة إيه يا راجل يا طيب، فكها كده وقول يا باسط.

- أقول يا باسط! ماشي هقول يا باسط!

ومال برأسه متأملاً رباط حذائه المفكوك، وعباس يقول:

- يا خويا لما انت شايل الهم كده، مقبلتش ليه الشغلانة اللي عرضها عليك الشيخ عمارة؟

obeikandi.com

فرفع قناوي رأسه محتداً:

- عمارة! عمارة مين وهباب مين! عايزني أقف في محل عطارة أبيع مستكة وحلبة وينسون!

- ومالها الحلبة والينسون، آهي سبوبة تاكل منها عيش.

فازداد غضب قناوي، وطرق على الطاولة صائحاً:

- جرالك إيه يا عباس! عايزني أنا! أنا الأستاذ قناوي الروائي الأديب، أبقى صبي عند الشيخ عمارة! والله هزلت!

وعباس يهدِّئ منه ويتلفت حوله حرجاً من عيون الناس، ويبدو أن صوت قناوي المرتفع أثار انتباه المرأة التي تجلس مع العجوز، فالتفتت إليهما محدقة فيه، فلم يَرُق له ذلك وقال لها متحفزاً:

- فيه حاجة يا ست إنتي؟!

فتحاشته معتذرة، وحل عليهما الصمت هو وعباس. قناوي يرثي لحاله وأنه فعلاً أتى للدنيا في الزمن الخطأ، وعباس يقول في نفسه: اللهم الطف بعبيدك يا رب، لن ينصلح حال هذا الإنسان أبداً، سيعيش حماراً ويموت حماراً! وطال صمتهما إلى أن قال عباس:

- أنا عارف البير وغطاه، فيابن الناس دورلك أحسن على شغلانة تاكل منها عيش.

وقناوي يتابعه ووجهه يموج بالغضب.

- آه. دورلك على حاجة تأكلك وتشربك، بدال ما انت

راكب راسك كده وعامل فيها أديب.

- عامل فيها أديب!

- أيوه عامِلِّي فيها أديب، عشرين سنة وإنت واجع راسي بالحواديت الفارغة اللي إنت بتكتبها وتقول عليها قصص وروايات، وأنا أقول أمري لله بكره يعقل ويفوق.

وقناوي يغمغم بأسى: أعقل وأفوق! حاضر يا عباس!

***

يعرف أن رواياته لا يقرؤها أحد، وما من ناشر إلا واستخف بها وربما تندر عليها في جلساته وقال فيها العِبَر، لكن أن تخبطها في وجهي هكذا يا زميل العمر!

ألا يكفي يا عباس ما نحن فيه، تقاعدنا والحمد لله قبل الأوان بسبع سنين، وتجيء أنت الآن لتختمها فوق رأسي! لم يكذبوا فعلاً، عندما قالوا بأن في الشدائد تظهر معادن الناس.

ولاحظ عباس ما يدور على وجهه، فنحى مبسم الشيشة وربَّت على كتفه:

- أنا قصدي مصلحتك يا عبيط.

ثم قلب كفه مراجعاً نفسه:

- وليه لأ، ما جايز صحيح تكون موهوب وأنا اللي مش داري!

فعلا صوت قناوي:

- جايز أكون موهوب، هو دا اللي ربنا قدرك عليه!

obeikandl.com

بقى بعد الروايات دي كلها اللي أنا ألفتها، وإشي رومانسي وإشي واقعي، جاي حضرتك دلوقتي...

وهب واقفاً يصيح بانفعال:

- وللا أقولك خسارة فيك الكلام.

وعباس يثنيه ليعاود الجلوس:

- يا عم طول بالك! يا سيدي طول بالك! أنا قصدي أقولك إن الزمن دلوقتي بقى زمن الفضائيات والمسلسلات، فسيبك من العك ده اللي إنت بتعكه واتلفت لحاجة تنفعك. اعملَّك سيناريو، الزق لواحد من بتوع السيناريو واعمل إنت الحوار، ومين عارف يمكن ربنا يفتحها عليك.

- ألزق لواحد من بتوع السيناريو، تاني يا عباس!

ولو طاوع نفسه لألقى في وجه عباس ما تبقى من كوب الشاي، ربما الذي هدَّأ منه أن عباس أسرع بتقبيل رأسه وطفق يرجوه بألا يغضب، ثم شغله بالحديث عن المسلسلات وجمهور المسلسلات وكتابها الذين أصبحوا كالنجوم، وأنه لو سلك هذا السبيل فحتماً سوف يأتي بالدرر والأعمال الخالدة، ويسحب البساط من تحت أقدام الجميع. وقناوي يرتكز بمرفقه إلى الطاولة ويتابعه صامتاً، وكلما لعب الشيطان برأسه ومالت نفسه إلى ما يقال زجرها.

***

obeikandl.com

(٢)

سيناريو؟ أنا سيناريست!

ما شأني أنا بالسيناريو، بل ولا أعرف حتى معنى هذه الكلمة..

أسمعهم يقولون: هل شاهدتم المسلسل الفلاني؟ السيناريو فعلاً متقن، فانظروا كيف صنع السيناريست أول مشهد، وجعلنا من اللحظة الأولى نشعر بالقلق والتوتر ..

أسمع دون أن أشغل نفسي بما يقال، وإذا دخل أحد معي في نقاش لا أتورط فيما أجهل، أكتفي بالإيماءات وقد أجاريه بكلمة أو كلمتين لا معنى لهما.

فما الذي أفهمه أنا عن فنون السيناريو، تقطيع المشاهد وتحريك الشخوص، أو الفلاش باك والخدع والحيل التي يشوقون بها الناس.

obeikandl.com

وأوعزت له نفسه بألا يسمع كلام عباس، رجل فارغ ويتسلى بك، فأنت يا قناوي روائي كبير. روائي أباً عن جد، وليس لك في هذا الذي يقوله عباس.

روائي؟

طبعاً روائي! غير أنه الحظ، فإن لم تكن قد ظهرت لك رواية في السوق حتى الآن، فالذنب ليس ذنبك، ذنب من لا يقدرون المواهب حق قدرها، ولا هم لهم إلا الجري وراء الأسماء.

فقد كان يحسب نفسه روائياً مثله مثل عبد الحليم عبد الله وإحسان عبد القدوس، بل ويزيد عنهم بأن الموهبة لم تطرق بابه صدفة وإنما هي إرث في العائلة، فنسل بعد نسل وهي تنتقل من چين إلى چين.

ليس هذا مجرد كلام في الهواء، التاريخ نفسه هو الذي يقول. فالناس في جوف الصعيد لا تزال تتذكر جده الشيخ (الخربان)، شاعر الربابة الذي جاب القرى والنجوع على كعبيه أحياناً أو فوق حمار، ينشد قصة الزير سالم وحمزة البهلوان أو الأميرة ذات الهمة، ولا مانع من قصة شمشون الجبار أو مار جرجس والتنين. فالجد بالفطرة وبراءة الإحساس أدرك أن الفن هو الفن أينما حلت قدماه، وليس للدين أو العِرق شأن فيه.

أبوه هو الآخر كان أشهر حكَّاء في مركز (فرشوط)،

Obeikandl.com

فطالما أمسك بزمام القعدات، والتف حوله الناس على المَسَاطب وفي الدواوير وحكايات عن شفيقة ومتولي، وعزيزة ويونس، والبرنس يوسف كمال أو شيخ العرب همام. فالرجل ما شاء الله كان مغداقاً يغرف من المخزون الذي تراكم لديه على مدار السنين، أو حتى من وحي الخاطر مضيفاً من عنده أحياناً بعض الأحداث والزيادات التي يتطلبها مقتضى الحال، والناس أمامه كأن على رؤوسهم الطير مثلما يقال، أعينهم على ما يدور فوق وجهه من تعابير وآذانهم على ما سيقول. وبحس الفنان أدرك هذا الأب الموهوب الفرق بين الرواية والحكاية التي تقال على السريع، فالأولى كلام كثير يقال وأحداث وشخوص وزمان وراء زمان، أما التي على السريع فكان يلقيها في جلسة واحدة، ويراعي أن تكون لشريحة قصيرة من الزمان وبطل واحد وحدث واحد، ودمتم يا مستمعين..

وهو نفسه -الأستاذ قناوي- ألَّف خمس روايات، طبع الأخيرة على الكمبيوتر والباقيات مجرد مخطوطات بخط اليد في كشاكيل. يتذكر هذه الأخيرة بالذات، كان اسمها (الذين يغطون في النوم). أتعبته كثيراً، أربع سنوات وسهر بالليل وقهوة وشاي ودخان، ويرتب وينمق ويراجع ويعيد حتى خرجت في ألف صفحة من القطع الكبير.

ودار بها على الناشرين..

كانوا يتجنبونه. يعتبرونه مضيعة للوقت. يصنفونه في مجال الأدب، بالإصبع السادسة في كف اليد، فلا فائدة ترجى منه ولا منها، ولا لزوم لهما في الدنيا من الأساس.
يشير له الواحد منهم بضجر بأن يترك روايته ويعاود السؤال بعد شهر، وإذا ألح كانوا يكلمونه بكلام خشن كي يدعهم وينصرف.

فعلوا الشيء ذاته مع رواية (الذين يغطون في النوم)، غير أنه لاحظ أن نظراتهم كانت تحوم عليها وهي في يده. كان حجمها كبيراً بالفعل، أشبه بالقاموس، وغلافها أسود وكله زخارف، أما العنوان فكما الداهية وبالخط الثُّلث.
فسر الأمر لصالحه واعتبرها بادرة خير، خاصة بعد أن قال له أحدهم:

- بسم الله ما شاء الله، كل دي رواية!

فتبسم معجباً بنفسه:

- دي يدوبك الجزء الأول.

- يا سلام! جزء أول! طب حطها هنا وشرفنا بعد شهر.

ويمضي الشهر وشهر آخر ويطول الزمن، ليعود ويجمع النسخ ثانية من دور النشر.

ومن يقول: ما هذا يا أستاذ! أين هي الأحداث؟ ومن هو البطل؟

ومن يقول: ما هذا الأسلوب؟ كله سجع في سجع، هل تحسب

نفسك المنفلوطي!
ومن يردها بأدب..
ومن يعبس في وجهه، قائلاً: لم أقرأ منها سوى صفحة ونصف، قرأتهما واكتفيت، فأرجوك خذ هذا الشيء الذي أتيت به وارحل عنا في سلام!

***

لم يكن لقناوي قراء، زميله عباس هو قارئه الوحيد.. كان يجري إليه أول ما يفرغ من رواية من رواياته، فيتلقاها منه مهللاً لهذا الإنجاز. يقرؤها في جلسة واحدة. هكذا كان يقول له. ويظل يثني عليها وعليه حتى إنه كان يستحي مما يقال، ويسأل نفسه: لماذا ليس للناشرين هذا الحس الفني الذي لدى عباس!
فما الذي تغير اليوم؟
هل فنه وإبداعه مجرد (حواديت) فارغة ووجع رأس وعكّ، مثلما يقول عباس الآن أم هي فلتة لسان؟
لا. ليست فلتة لسان، فقد كررها هذا الضلالي ثلاث مرات.. انتبه قناوي عندما سمع صرير المقعد الذي يجلس عليه عباس، فالتفت إليه وتأمله وهو يميل بكتفه مثبتاً بظفره جمرة نار كادت تسقط من حجر الشِّيشة.
إصبعه الممتدة للشِّيشة كما لو أنها منتفخة قليلاً، وبها نَدْبة أشبه بعين السمكة.

وما الذي في هذا؟

إصبع عادية! فما أكثر النّدُوب والسحجات بأيادي الناس! إلا أن قناوي تأفف منها، رغم أنه رآها من قبل مئات المرات دون أن يساوره هذا الإحساس.

وازداد تأففه، عندما أخرج عباس طرف لسانه وطفق يلعق شاربه. تثيره هذه الحركة، ويود زجر صاحبها أو حتى أن يصفعه على وجهه كي يكف. وعباس لا يكف، لا يزال مستمرا في تثبيت الجمر ولسانه لا يتوقف عن اللعق، فلعنه في سره وتحاشى النظر إليه لتسحبه الذكرى إلى الوراء.

لم يناقشه هذا العباس مرة واحدة في أحداث رواياته أو كيف رسم شخوصها، مع أنه قال كلاماً كهذا عن روايات لأدباء آخرين. يتذكر جيداً أنه مكث ساعة بأكملها، يحلل له شخصية (محجوب عبد الدايم) في رواية (القاهرة ٣٠) لنجيب محفوظ.

فهو يفهم في الأدب إذاً، أما معه فيقتصر الأمر على مجرد ثناءات وإطراءات جوفاء، والله! ويا سلام! وما هذا الإبداع يا أستاذ قناوي! وكلمة من أول الرواية على كلمة من المنتصف على اسم البطل، والسلام عليكم: عليكم السلام.. وهلم جَرّاً، فالأشياء تسحب بعضها البعض..

أتتذكر يا أيها التخين الكذاب المشغول عني بأحجار شِّيشتك،

يوم أن كنت تحاورني في روايتي الثانية (الغلبان)..

أتتذكر؟

لم تكن ملماً بالأحداث، فلا حدثَ واحداً من الأحداث التي ناقشتني فيها كان مكتوباً في الرواية، والبطل؟! البطل اسمه (لبيب) وأنت مصمم على أن اسمه (حجازي)، والمرعب في الأمر أنك وجهت لي اللوم لأني جعلته يعاشر زوجة أبيه، وإن كنت قد أثنيت عليَّ لأني اخترت له وظيفة محصل بهيئة النقل العام!

قلت لي: مهنة البطل فعلاً مناسبة، وإني وظفتها جيداً لصالح العمل!

والرواية لا بها معاشرة بين المحارم، ولا بها كمساري أو زوجة أب من الأساس. خلطت يا جبان بين روايتي، وما كتبه يوسف الشاروني في قصة (الزحام).

أين كان عقلي ساعتها، وكيف لم ألحظ إلا الآن!

كنت أصحح لك بسلامة نية، وأقول: بطل روايتي (قراداتي) وليس كمساريا يا عباس!

فتضرب جبينك بكف يدك كأنك نسيت، وتقول: آه. آه. تذكرت. وتأخذ مني الكلام وتعيده إليَّ مرة ثانية!

لم تكن تبالي بما أكتب، تسايرني وتداورني وتضحك عليَّ بكلمتين، رأيك الحقيقي هو الذي قلته قبل قليل.

عَك، أنا أعُك! وتقولها في وجهي يا جبان!

وهب واقفاً، وعباس يحدق فيه بدهشة:

- مالك، على فين؟

- مشوار.

- على غفلة كده!

- آه على غفلة.

- طب استني لما أخلص الحجر اللي في إيدي وآجي معاك.

- خليك مطرحك، سكتك غير سكتي.

***

obeikandi.com

(٣)

لم يشأ القفز في أول ميكروباص، فضل السير حتى شقته بدير الملاك..

من هنا للبيت مسافة لا يقطعها عاقل على الأقدام، فالمقهى التي كان يجلس فيها هو وزميله عباس بشارع جانبي من شوارع وسط البلد، لكن لا يهم! وسط البلد، أول البلد، آخر البلد، لا فرق! فلماذا العجلة؟ ما الذي ورائي بالبيت!

هو الآخر فارغ وكئيب، فلا زوجة ولا ولد أو حتى نافذة أطل منها على الناس. وجيران الله أعلم بحالهم، كل ما يربطني بهم التحيات العابرة. فمنذ أن جمعنا هذا البيت، لم أشأ لا أنا ولا هم رفع سقف العلاقة التي بيننا إلى أكثر من هذا الحد. لم يرتاحوا لي، وأنا الآخر بادلتهم نفس الشعور. ناهيك عن إجرام وقلة أدب البواب، آه لو ربطوا لي هذا

obeikandi.com

القحف في جذع شجرة ووضعوا في يدي خيزرانة، لعرفته أقدار الناس ومن هو الأستاذ قناوي!

***

الحركة على أشدها ولا موضع لقدم فوق الطوار، من يتكلم مع نفسه ومن تجرجر طفلها ومن يلحس الآيس كريم، وهؤلاء الذي يسيرون معاً ويضحكون، لا أعرف ما الذي يفرحهم هكذا ويجعلهم يضحكون!

وما هذه الأزياء والتقليعات؟

معاطف وبذلات وكوفيات وشيء يسمونه (بابيون)، وأنا أتبختر بهذا البنطال المسكين وسترة وحذاء شكلهما لا يسر. الحذاء بالذات، فقد رفع هذا الوقح راية العصيان ولا أظنه يكمل بي المشوار. لا ينقصني -والله- سوى لوحٍ من الخشب أضعه على كتفي، وأنادي على أمواس الحلاقة والولاعات وعلب الورنيش! فلا موهبة رفعت شأني، ولا وظيفة بقيت حتى تسترني.

وتكتمل الملهاة بابن أختي الذي طب عليَّ يوم الجمعة، حاملاً تحت إبطه شهادة الدبلوم: والسلام عليكم يا خالي، طالت غيبتك وكل من في فرشوط يهدونك السلام، وقد أرسلتني أمي لأعيش في ظلك وحماك عسى أن تُلْحقني بوظيفة معك في الشركة.

ظلي وحماي يابن المركوب!

ويغره ترحيبي به، فيتشجع ويخرج من حقيبته جلباباً يقعد به على راحته. تروح عيناي على كومة الهدوم التي أتى بها، جوارب وغيارات وقمصان، وحذاء وصندل حتى الطاقية التي يكبسها فوق رأسه عند النوم، وتحسباً لأي مزق لم يفته أيضاً إحضار إبرة مرشوقة في بكرة خيط!

يابن ستين في سبعين! كل هذا معك في الحقيبة، فما الذي تخطط له؟

***

من يومي وأنا لا أستريح للقدم الغريبة، طبعي هكذا، والولد على ما يبدو مصمم على الاستيطان عندي حتى أجد له وظيفة.

كان لا بد من قطع عشمه، فقلتها له بصراحة: يابن أخت ظنونك ليست في محلها، فليس لك عندي وظيفة ولا مُقَام، وأكبر إنجاز أقدمه لك أن أكفلك حتى الصباح ومن الفجر تعود في أول قطار، ولا تنسَ سلامي إلى أمك (فردوس).

وظيفة بالشركة!

بيعت الشركة يابن فردوس، وخالك الآن على الرصيف..

كانت عزوة وملاذاً، وبفقدها كأن عزيزاً لي قد مات..

وضعنا أيدينا على قلوبنا أول ما تسربت أخبار البيع، وما سمعناه عن قدوم لجنة إلى مصنَعيْ شبرا الخيمة وبهتيم لمعاينة وتقويم العنابر والآلات وجرد كل المخزون. فوجئنا

بعدها بلجنة أخرى عندنا هنا في المقر الرئيس، ووراءها لجان ولجان.

وتوتر الجو..

وكلما جردوا عنبراً أو مخزناً أو مروا على قسم من الأقسام، كانت تصلنا الأخبار في الحال. في ثوانٍ وبالمحمول، كنا ننقلها إلى باقي الزملاء بالإسكندرية والمنصورة ودمياط وباقي الفروع، وهم بدورهم يبلغوننا بما عندهم من أخبار. وبارك الله في الأستاذ (دبور) وكيل الحسابات، تفرغ لهذه المهمة وكان يطيِّر الأخبار من هنا لهناك كما لو كان مراسلاً لإحدى الفضائيات، حتى إن مدير شئون العاملين استدعاه وحذره أكثر من مرة وهو لا يعبأ.

ولماذا يعبأ؟

فقد كان يعرف أنه يحذر في الوقت الضائع، فالشركة في كف الرحمن ولا المدير ولا الغفير أو حتى كائناً من كان عادت له كلمة الآن. ناهيك عن أن دبور نفسه معروف عنه المشاغبة وليس من طبعه الاكتراث بتهديدات الرؤساء، فهل كان سيكترث بها في ظل هذه الظروف.

***

لم يكن هذا دأبنا، فالتفتيش ومرور اللجان شيء تعودنا عليه، والأعضاء هم هم نفس الأعضاء منذ سنين. فكلنا نعرفهم ونحفظهم واحداً واحداً، مثلما نحفظ سورتَي (الفاتحة) و(قل

opeikanal.com

هو الله أحد). الذي أرابنا هذه المرة أن الأمر ارتبط بعملية البيع، وأنهم غرباء، ناهيك عن الكلام من الأنف ونظرات العيون والحُلل والكرافتات.

أشياء مختلفة كل الاختلاف عن الغلابة أعضاء اللجان الذين ألفناهم، ويتقدمهم رجل أشيب بيده سيجار. قالوا لنا: إنه وكيل الشيخ الرهوان، ولم يكن هذا الجهبذ يترك صغيرة ولا كبيرة إلا واستقصى عنها، ولو كنت أنا وزملائي نمثل له أية قيمة لاشترانا نحن الآخرين. كنا في نظره مجرد كلاب ضالة لا يرجى منها نفع، ولو جمعوا له خمسة أو ستة منا في زكيبة ما كان يقبلنا ولو حتى ببلاش. ونحن بدورنا صنفناه هو ورجاله على أنهم ألعن ناس على ظهر هذا الكون، وأن (علي بابا) نفسه الذي يقال عنه أنه حرامي (وشيخ مَنْصَر) أشرف منهم بكثير.

انقطعت الأخبار بعدها حتى ماتت شائعة البيع، فقلنا كلنا: الحمد لله أن الحكومة أخيراً أحست بنا. خمَّنا ذلك وقلناه، فلم يَدُرْ بأذهاننا أبداً أن الحكومة كانت تلعب معنا لعبة القط والفأر، وأنها أخذتنا على غفلة! فقد باعت الشركة بالفعل. باعتها وقبضت الفلوس، غير أنها استمهلت الشيخ الرهوان في التسليم حتى تمهد له في وسائل الإعلام.

لم نعرف بهذا إلا من الجرائد، فقد كتبوا (بالبنط) العريض وفي كل الصحف والمجلات: إن شركتنا شركة خاسرة

obeikandi.com

وتشكل عبئاً على الاقتصاد، وأننا فاشلون وكسالى وأولاد كلب، ولا عمل لنا إلا النوم في المكاتب وحل الكلمات المتقاطعة، ولو حسبوها بالورقة والقلم لوجدوا أن معدل إنتاج كل واحد منا في اليوم لا يزيد عن عشر دقائق أو ربع ساعة على أكثر تقدير، وأفضل حل لنا هو الخصخصة! قالوا هذا الذي قالوه بعد أن باعوا وقبضوا وخلصوا، فغضبنا كلنا من هذه الافتراءات، المهندس والعامل والملاحظ ومن يجلس على مكتب أو حتى الفراش، كلنا كلنا، وكردة فعل منا توقفنا عن العمل والإنتاج، فقالت الحكومة: وهذا هو المطلوب! وأمر رئيس مجلس الإدارة برفع دفاتر الحضور والانصراف، فمن يحضر فهذا من لطفه وكرمه، ومن يقعد في البيت فهو سيد العاقلين.

ظللنا على هذا الحال قرابة الشهر، إلى أن جاء الخبر الأكيد بأن ارحلوا يا سادة من هنا وأخلوا المكان لصاحبه الجديد.

جماعة شئون العاملين جماعة ملتزمة، وكنا لا نزال نروح ونجيء. أنا تحديداً كنت محنياً ساعتها على المكتب أقرأ رواية (السيد الذي رحل) للأديب محمد قطب، وعباس نكس رأسه وفتح في النوم. أما زميلنا الملتحي الشيخ عمارة الذي عرض عليَّ العمل عنده في محل العطارة، فكان في دورة المياه وراجعاً بالقبقاب، بنطاله مشمور حتى أول السمانة

obeikandi.com

ويمشط لحيته. ونُفاجأ بالأستاذ دبور يقتحم علينا المكتب صارخاً، بأن هيا هيا أسرعوا فالكشف وصل. قالها وطار، فلكزت عباس وأسرعنا كلنا، أنا وعباس ورمزي وفرغلي وعليش ووراءنا الشيخ عمارة.

كانت معمعمة في مكتب الأستاذ (حتاتة) سكرتير المدير العام، مهندسون وعمال وإداريون وسُعَاة، حتى (أبو كف) متعهد البوفيه جاء ليطمئن على وضعه وموقفه، فهل بهذا الذي حدث يكون عقده مع الشركة قد انتهى، أم يظل سارياً في حق المالك الجديد؟

لم يكن على طاولة الأستاذ حتاتة كشف واحد كما فهمنا من أخينا دبور، بل كشوف وكشوف، منها ما تتخطفه الأيدي ومنها ما تبعثر على المقاعد أو طار من الشباك. الكشف الذي يخصنا نحن موظفي شئون العاملين، دخنا حتى عثرنا عليه. كان قد سقط على الأرض وظل يروح ويجيء مع الأقدام، حتى استقر ما بين طرف السجادة ورجل الأريكة.

التقطناه أخيراً لنجد أسماءنا كلها فيه ما عدا اسمين، المدير وسكرتيره حتاتة!

أول من فعلها الشيخ عمارة..

أصابته لوثة وهجم على الكشف ليمزقه، لاعناً الحكومة وأبا الحكومة والوزير وجد الوزير، وأن يحيق به الخراب مثلما خرب بيوتنا. وأنا أرمقه بدهشة، فالرجل له محلاً

عطارة ويا سبحان الله لا يصدق الخبر، كأنما كان يخايله العشم في البقاء!

لحق به موظف بالأرشيف اسمه (النمس)، أعرفه ويا ويل من يدخل معه في مشكلة، رجل غشيم ولا يفهم إلا في اللكم والعراك. طاش عقله، وكان مصمماً أن يذيق حتاتة لكمة من قبضة يده، أو يلقي به من الشباك لو أمكن.

ومن قال بأن حتاتة هذا ليس إلا حشرة والفتك به لن يفيد، وعلينا البدء حالاً في إرسال تلغرافات. ومن سفِّه هذا الرأي، فالأفضل أن نذهب بالخيم والمراتب والمخدات إلى مجلس الشعب، نفرش ونبيت هناك.

وتعالى الصياح بأن حكومتنا هذه حكومة مجرمة وبنت كلب، فضلاً عن الصخب والزعيق والتشويح. وعندما دفعنا حتاتة من أمامنا واقتحمنا مكتب المدير، كان المجرم قد اتخذ احتياطاته وفلَّ من باب جانبي.

***

obeikandi.com

obeikandl.com

(٤)

شر البلِيَّة ما يضحك فعلاً..

فأنا الآخر كنت أعربد في هذه المعمعة، أبحث وأدقق وأنحني على الكشوف المبعثرة، غير أن بالي كان مطمئناً إلى حد ما.

كنت مرتاحاً..

ولا يسألني أحد عن السبب، فهذا الأمر لا يعلل أو حتى يوصف، يحس فقط..

فقد كنت أشعر بأني سوف أنجو من هذه المذبحة، بأني الوحيد من بين هؤلاء التعساء الذي سوف ينصفه الحظ.

ولماذا يتخلى عني (عمنا الحظ)! فأنا رجل غلبان، لا في حوزتي ربع دكان مثل الأخ عباس أو أتاجر في العطارة كالشيخ عمارة، ناهيك عن حالتي الاجتماعية التي لا تسر،

فليس لي أحد في دير الملاك ولا حتى في القاهرة كلها، لا زوجة ولا ولد ولا عم ولا خال.

فأنا إذاً الأولى بالمساعدة، أنا المرشح الوحيد من بين كل هذا الجمع، لأن يحنو عليه الحظ ويقف إلى جانبه!

كنت أضحك على نفسي بهذا الكلام وأعلل الأمر لصالحي، كما لو أن الحظ هذا شيء يفهم وله عين ترى، وليس مجرد ضربة تخطئ وتصيب. ولذا فأول ما انتشل الشيخ عمارة كشفنا المحشور في طرف السجادة، خطفته على الفور من يده ولأقطع الشك باليقين جرت عيناي على ديباجته، ومعهما شفتاي تغمغمان بسرعة وصوت كالزن: بعد الاطلاع على القانون رقم كذا ولوائحه كذا وكذا، قررنا ما هو آتٍ: يحال الآتي أسماؤهم إلى التقاعد اعتباراً من التاريخ المدون بأعلاه، وقفزت من اسم إلى اسم، حتى أمسكت باسمي: قناوي عطوة أبو الليل، وشهرته قناوي الخربان.

ولحظتها انهرت..

فعلاً انهرت، وكعادتي في مثل هذه المواقف شعرت بقطرة بول تبلل سروالي، صحيح أن هذا الذي أقوله شيء محرج وصعب على النفس، لكنها الحقيقة وهذا الذي حدث، فماذا تتوقعون من إنسان منهار؟ ولخوفي من أن تخذلني قدماي وأسقط فوق الأرض، استندت إلى زميلي فرغلي. كان مشغولاً بحاله هو الآخر فلم ينتبه لي، ولا أحد كان

منتبهاً لأحد. ولا حول ولا قوة إلا بالله، ففعلاً من خيبة الأمل وفقدان الرجاء يأتي الجْنُون، إذ فجأة وبلا أية مقدمات أو سابق إنذار أمسكت بي النار. لم أعد الأستاذ قناوي المهذب اللطيف الودود، صرت شخصاً آخر، وعلى ما أتذكر فإن أول شيء بدأت به هو الشتيمة:

- عملتوها يا جزم! عملتيها يا حكومة يا معفنة!

وأعاود الصياح مرة ثانية:

- عملتها يا شيخ رهوان، خطفت الشركة يا خويا وخبيتها في غُطْرتك!

ودون وعي أو تفكير، وجدت نفسي أخلع قميصي وأكوره سريعاً سريعاً ثم طوحته بعيداً. جاء في وجه الأستاذ عليش. ليس مهماً! عليش أو عباس أو حتى رئيس مجلس الإدارة! ووقفت بينهم بالفانلة أُمّ حمالات، فاتحاً حنجرتي على أقصى اتساعها. ليس هذا فقط، بل وكنت ألكز بكوعي وأدفع بيدي، وأزيح كل من كان أمامي. كنت مصمماً على الإمساك بالأستاذ حتاتة، وفعلاً أمسكت به. كانوا قد فرغوا للتوِّ من تكتيف أخينا (النمس) الذي كان قد لكمه لكمة على السريع ويتجهز للثانية، وأقبلت أنا لأكمل ما بدأه هذا المحترم. شددت حتاتة من ياقة القميص، وأنا أصيح فيه:

- هي الحكاية إيه؟ حلَّق حوش! بقى بيكرشونا إحنا الناس الأشراف، ويقعدوك إنت والبيه المدير! هو حرامي وإنت

مخلصاتي وخباص، هو ده اللي عايزاه الحكومة!
وشَدَّة ثانية وثالثة وربما رابعة لياقة القميص، وهو يهبط ويعلو معي برقبته:

- آه يا راجل يا هلس! آدينا اتخصخصنا خلاص وبقينا في الشارع! أطوحك من الشباك دلوقتي، وللا أعمل فيك إيه.

كان غضبي شديداً، ولا أعرف إن كان هذا بسبب تفريطهم في الشركة التي بنيناها بالعرق والكفاح، أم لأنهم أحالوني إلى المعاش مبكراً واستبقوا واحداً مثل حتاتة!

ليس هذا مهماً الآن، المهم هو ما حدث، فقد كنت أشبه بكتلة النار والأستاذ دبور يؤازرني بأعلى صوته:

- إوعى ترحمه يا قناوي أفندي، خليك متبت في ياقة القميص.

ويزاحم ويدفع بكلتا يديه ليصل إلينا، ومن يمنعه خوفاً من أن يفتح رأس حتاتة بالمطفأة التي بيده، ومن يشعلها أكثر وأكثر.

الأمر ولا محالة كان سينتهي بجريمة، لولا العقلاء الذين حالوا بيننا وفكوا حتاتة من يدي. حاولوا إخراجي بعدها من المكتب مثلما فعلوا مع (النمس)، إلا أني استمتّ للبقاء وعلى أول مقعد لقيته أمامي صعدت مكملاً الزعيق. ولم أكف عن التشويح بذراعي اليمنى، اليمنى فقط، فذراعي اليسرى كانت ساكنة وكفها نائمة في جيب البنطال.

obeikandl.com

مازلت في حيرة إلى الآن وأسأل نفسي، من أين أتيت بكل هذا الصوت العالي؟ ولا لماذا تخلت عني يسراي واتخذت موقفاً محايداً، وكأنه لا علاقة لها بهذا الحدث! ناهيك عن الكلام الذي كنت أقوله وأنا فوق المقعد، أكيد كان كلاماً قبيحاً وكله شتائم، غير أني نسيته الآن، طار من ذهني.

ليت الأمر توقف عند هذا الحد، بل كنت أشير بأصابعي إشارات بذيئة! وعباس يشيح لي بيده كي أستحي، فهذا الذي أفعله قلة أدب وأشياء لا تصدر من أناس محترمين، وفي اللحظة التي حاول فيها إنزالي من فوق المقعد كان انفعالي قد بلغ ذروته، فخلعت فردة حذائي وصوبتها نحو صلعة حتاتة. لا أعرف كيف تفاداها وغير مسارها بحركة من يده، وكان بجوار النافذة فانحرفت وطاحت منها. كنا في الدور الرابع. خطفت قميصي من فوق الأرض، ثم هبطت مسرعاً على السلم وأنا أرتديه وأعقد زرايره. وبحث وتدقيق إلى أن نادي عليَّ شحاذ عجوز يعسكر أمام باب شركتنا، قال وهو يداري ابتسامته:

- هو المداس بتاعك؟

وأشار إلى كلب يعدو بعيداً وفي فمه فردة الحذاء، اقترحوا عليَّ يومها ارتداء قبقاب الشيخ عمارة، شيء يفي بالغرض أعود به إلى البيت.

واكتملت بزغلول البواب..

ظلت عيناه على القبقاب من أول ما ظهرت في الأفق، وتبسم ساخراً وأنا أمضى أمامه، وأظنه تمتم قائلاً: اللهم احفظنا يا رب!

لم أعلق، دخلت العمارة من سُكات وأنا أسب وألعن حكومتنا هذه التي جعلتنا فرجة ومسخرة.

***

obeikandl.com

(٥)

مازلت أذكر أول يوم وَطِئت فيه قدماي القاهرة..

كنت قد حصلت من فوري على شهادة الدبلوم، وحالاً حالاً جاءني خطاب من وزارة القوى العاملة بأني عُينت في هذه الشركة، كانت هي الأخرى قد أُنشئت لتِّوها، فأنا وهي دخلنا سوق العمل في سنة واحدة.

أحدث إنشاؤها ضجة أيامها، واحتفت بها كل الصحف، الأهرام، الأخبار، الجمهورية، وجريدة كانت موجودة في ذلك الحين اسمها جريدة (الشعب). وصخب وطنطنة، كما لو أن شركتنا هذه سوف تقلب أسواق أوروبا رأساً على عقب.

فجريدة تقول في مانشيت طويل عريض: مرحباً بعملاق الغزل والنسيج، وأهلاً أهلاً بالتصدير، فمن الآن بالات

الأقمشة، صوف قطن كَتَّان، سوف تنهال كالمطر على أوروبا وأمريكا واليابان. فترد عليها الجريدة الثانية بأن ليس هذا فقط، فقد وصلتها أيضاً أخبار مؤكدة بأن أوساط النسيج بمقاطعة (يوركشاير) أصابها الإحباط والوجوم عندما سمعت بهذا الخبر. ومن تفاجئنا بأن الخواجة فلان صاحب مصانع (چيل) أو الخواجة علان صاحب علامة (الهيلد)، قد انزعجا ويعكفان الآن على وضع الخطط لمواجهة غول النسيج هذا الذي ظهر. مكثنا شهراً على هذا الحال، والجرائد تلعب بنا بكلام كان لذيذاً أيامها.

***

غير أن رحيلي إلى القاهرة لم يكن هيناً على أمي، وربما أيضاً على أبي..

فرغم أننا كنا نعيش في بلدة من بلدات مركز فرشوط، بلدة صغيرة بحضن الجبل والدّور كلها أشبه بالجحور ولا أحد منا أو حتى من أهلنا إلا ويشكو من ندرة الزاد ودنياه ضيقة، إلا أنهما كانا يرغبان في ألا أتركهما وأرحل. أن أبقى وأرضى بالمتاح هنا، فرزقي الذي في السماء سوف يصلني كاملاً سواء سافرت أو بقيت أو حتى مكثت بغير عمل. كانا مسكينيْن، خاصة أمي، فكل يوم تكفكف دمعها وكأني ضعت وهذه هي آخر أيامها معي، أما أبي فكل يوم بحال. مرة يثنيني عن السفر، ومرة يكف وألمح في عينيه

شيئاً من التشجيع والموافقة. كان حائراً بين أن أبقى وأسِفَّ معه التراب هنا، أو أصير موظفاً في الحكومة حتى لو كانت غربتي هي المقابل والثمن. فكلمة موظف هذه كلمة لا يستهان بها، ولا أحد في بلدتنا أو في البلاد التي حولنا إلا ويعرف قدرها، فالموظف موظف وإن كان فراشاً في مدرسة!

أخيراً سافرت..

جئنا أنا وأبي على ركوبتين إلى محطة القطار في فرشوط، أبي يحاذيني بدابته وأنا فوق الدابة الثانية وأمامي حقيبة السفر. وإن كان الكذب حراماً، فلم تكن حقيبة ولا يحزنون! كانت مجرد سَحَّارة، السَحَّارة التي كان يستخدمها جدي في أسفاره كلما رحل شمالاً للإنشاد في (جرجا) و(إخميم)، أو هبط قاصداً (إسنا) و(أرمنت).

الوالد على رأسه عمامة ويبسمل ويحوقل ويتلو أدعية السفر، أن يقيني الله الشرور وكآبة المنظر وسوء المنقلب. وأنا أتحسب من هذه الدنيا الجديدة، وأولها هذا القطار الذي سوف يقلني فمشاويرنا كلها كانت فوق ظهر الحمير. ويطوف في بالي ما كنت أسمعه من العجائز في الصغر، بأنه ليس كالدواب التي تحملنا ولنا عليها حق السمع والطاعة، بل غول من الحديد يملأ الدنيا صياحاً وضجيجاً ولا يكترث بأحد.

ودعني الشيخ عطوة الخربان حانياً دامعاً، وهبطت أنا من القطار في محطة (باب الحديد)، وفي اليوم التالي تسلمت العمل.

تأملني الأستاذ أباظة مدير شئون العاملين أيامها، قائلاً:

- إنت مفركش كده ليه يابني!

فسكت ..

- وشعرك ده حلقته فين؟

- حلقته فين! حلقته عند عم سطوحي.

- سطوحي.

وراحت عيناه إلى حجر البنطال، وأشار بإصبعه:

- وسطوحي برضه هو اللي فصّلّك البنطلون؟

- سطوحي! سطوحي مين يا سعادة البيه! دا أنا مفصله في البندر.

- في البندر.

- آه. عند عم مهاود اللي دكانه قُبال المحطة.

فتبسم وأصر على أن يضيفني بكوب من الشاي، وطفق يأخذ ويعطي معي في كلام من هذا النوع، غير أنه كان طيب القلب وشجعني على أن أثابر وأجتهد كي أترقى وأكبر، ومن يدري؟ فقد أصبح يوماً ما رئيساً لأحد الأقسام أو ممثلاً للعمال في مجلس الإدارة. ولما عرف أنه لا مأوى لي في القاهرة، أفرد لي ولأمثالي ممن هم على نفس

obeikandl.com

الشاكلة عنبراً ببدروم الشركة نبات ونأكل فيه. فأغلب الذين عينوهم بشهادة الدبلوم كانوا غلابة مثلي، منهم من جاء من شبراخيت أو منوف أو مركز العياط، ومنهم من جاء من آخر الدنيا، من أرمنت أو إدفو..

وشهر في شهر وعلاوة في حافز في مكافأة إنتاج، حتى سكنت في عمارة بدير الملاك. صحيح أنها لا تسر الخاطر، وفي البدروم (الحيط في الحيط) مع غرفة زغلول البواب. وصحيح أيضاً أن راتبي كان اثني عشر جنيهاً في الشهر والعلاوة خمسة وسبعون قرشاً في السنة، إلا أني كنت مرتاحاً ويراودني الحُلْم بأني سوف أصبح عضواً في مجلس الإدارة مثلما خايلني بذلك الأستاذ أباظة، وما المانع أيضاً من أن أصير وزيراً في يوم من الأيام، فشركتنا هذه كانت لها (شَنَّة ورَنَّة) وثلاثة منها صاروا وزراء للعمل. لم تكن طبعاً مثلما كانت تقول الصحف، أو سببت هلعاً لأباطرة النسيج في بلاد الخواجات، فكل هذا مبالغات وكلام جرائد، لكن والحق كانت أصوافها وأقطانها تملأ أرفف المحلات، وأغنتنا عن سؤال اللئيم.

تُوفِّيت المسكينة ..

تُوفِّيت وهي بنت بنوت، وصرت أنا هلفوتاً ابن هلفوت!

***

(٦)

أخيراً وصل قناوي إلى دير الملاك..

وكان زغلول البواب لحظتها منهمكاً في رش الماء بخرطوم في يده، وعيناه ترمقانه وهو قادم من بعيد.

لم يفلت ولا مرة من عينيه، تظلان عليه كلما دخل أو خرج من باب العمارة, الجديد فقط أنه من يوم واقعة (القبقاب)، بدأ يتفحصه من أسفل لأعلى، لعله يراه بالشبشب (الزنوبة) مثلاً أو ربما (بالشراب)، وقناوي يفهم ويكتم ضجره.

واليوم ومثل كل يوم، لم يُلْقِ أي منهما التحية على الآخر. توقف قناوي أول ما لمحه واقفاً بالخرطوم، عدل من هندامه وأحكم الحزام حول خصره ثم مضى صوب العمارة بخطو وقور. مر أمامه وكأنه لا يراه، وزغلول يتابعه بربع عين دون أن يدع الخرطوم أو يغلق محبسه. اكتفى بالضغط

obeikandl.com

بإبهامه على الفوهة متحكماً في مسار الماء. ترك له ممراً صغيراً يعبر منه، دون خطوة إلى اليمين أو اليسار وإلا بهدله بالماء. وعندما اجتاز قناوي الباب وهبط درجتين على سلم جانبي، لقي ولداً بحجم الكتكوت على عتبة شقته، والولد بلا أدب ولا حياء نصفه الأسفل عارٍ ويتخذ وضع القرفصاء.

يابن الكلب! هل ستفعلها ثانية مثلما فعلتها أول أمس، وكدت أصفع أباك زغلول بسببها. وعاد خطوة إلى الوراء ليركل الولد، لولا أنه كان أسرع منه، أتم فعلته بنجاح وولى هارباً، وقناوي يكلم نفسه حانقاً..

ما صنف هذا البني آدم؟

ألا يستحي!

شارف على الستين، وليس من فائدة يقدمها للبشرية سوى الطرطشة بالخرطوم وإنتاج العيال!

امرأته الأولى (أم لبيب) له منها خمسة عيال، ولولا أنها كادت تموت في ولادة الأخير لما توقفت. والثانية أنجب منها بنتين ثم هذا القرد، ولا يزال الوقت متسعاً أمامها لتأتي بالمزيد. والكل تحت سقف واحد، وفوقهم أخته (محاسن) التي تدور من أول النهار على البيوت، كنس طبخ غسيل، ثم تطس وجهها بحفنة ماء وتبدأ في مخايلتي!

أي بخت هذا الذي رماني بجوار هؤلاء الناس!

obeikandi.com

وزغد المفتاح في كالون الباب غاضباً..

***

الشقة من أولها لآخرها لا تستحق الاحترام..

صالة ثلاثة أمتار في مترين وربع، والأرضية بلاط سطوح. أما الملحقات، المطبخ ودورة المياه، فكل منهما بحجم ورقة الكراس، وأخيراً غرفة النوم بشباكها الذي يعلو إفريز الرصيف بشبر واحد لا غير.

هو الشباك الوحيد في الشقة، وإن كان لا جدوى منه، فما الذي سوف يراه؟

أولاد لا يكفون عن اللعب بالكرة (الشراب)، باعة الخضر والفجل والجرجير، رجل عبيط يظهر فجأة ووراءه زفة عيال. والأدهى أكياس القُمَامة السوداء التي ترقد أسفل الشباك، ومنها ما هو مبقور وتطل منه أراذل المخلفات، قشر موز، سلاَّكة حوض، رأس أرنب، أو حفنة طبيخ، وقطط الشارع طبعاً تلعب وترتع وتفعل ما بدا لها.

لم تكن له علاقة بهذه القطط، هي في حالها وهو في حاله، إلا واحدة ذيلها مقطوع. هذه القطة بالذات كانت مغرمة به وبشباكه، تخطف من الأكياس ثم تقفز إلى حافة الشباك وتبدأ في الأكل. وفي أوقات فراغها كانت تتمدد على جنبها هائمة فيه، وإذا غاب تموء منادية عليه. يهشها ولا فائدة، يهددها بيد المكنسة لا تستجيب، وإن رماها بشيء تقفز

obeikandl.com

هاربة ودقيقة وتعود، سلم أمره لله.

ولم يكن يخلو الأمر أيضاً من بعض السخافات، أشياء من الأدوار العليا تسقط عليه، عيِّل في الشارع يشوط بقدمه علبة سجائر فارغة فيجدها معه على السرير، أو من يكوِّر ورقة ويلقي بها فتمرق كالصاروخ من الشباك، كانت تصطدم برأسه أحياناً أو تستقر بحجره.

في أول الأمر كان يفتح الشيش حتى آخره دون مبالاة بهذه السخافات، اعتاد عليها، غير أنه سرعان ما أدرك أن التطلع من الشباك ليس بذي فائدة. فمهما فعل أو حرك رأسه نحو اليمين أو الشمال، مجال رؤيته يظل محصوراً في دائرة ضيقة. وإذا تحامل على نفسه ورفع بصره إلى أعلى لا يصل وبالكاد إلا إلى خصر أو كوع من يسير، فأغلقه وارتاح.

وعلى جدار الصالة في مواجهة الداخل، صورة لجده الشيخ الخربان. ليس هذا اسمه المدون في شهادة الميلاد. مجرد لقب أطلقوه عليه في الصغر، عندما هجر الزراعة والفلاحة وتعلق بالربابة والإنشاد. أطلقه عليه الجد الكبير في ساعة غضب، ومن يومها التصق به هو وذريته.

وبغرفة النوم قبالة السرير، صورة لنجيب الريحاني وليلى مراد. ملصق قديم من ملصقات الدعاية لفيلم (غَزَل البنات)، ثُبتت أطرافه على الجدار بأربعة دبابيس، فقد

obeikandl.com

كان مغرماً بالريحاني وفن الريحاني، شاهد أفلامه كلها وبالذات هذا الفيلم. وكانت فرحته كبيرة عندما عثر على هذا الملصق عند أحد باعة الروبابيكيا، فاشتراه ووضعه في هذا المكان، حيث الريحاني على رأسه طربوش ويتطلع لليلى مراد بعين كسيرة ودمع محبوس، وهي تتغندر أمامه بفستانها الحمالات وبالها خالٍ مما يشغل الأستاذ (حمام). ومشار بكعب الملصق إلى دور السينما التي كانت تعرض هذا الفيلم، سينما أمير بالإسكندرية واستديو مصر بالقاهرة والنهضة ببورسعيد.

والشقة بمجملها تفوح منها رائحة كرائحة الخل، وإلى الآن لا يزال حائراً في مصدر هذه الرائحة، فهو لم يُدخل قطرة خل واحدة في شقته منذ عشر سنين!

***

في هذه الساعة من كل يوم يكون بالشركة، وأول ما يؤذن لصلاة العصر كان يخلع الحذاء ثم يشمر البنطال شمرتين وإلى دورة المياه. يشكل صفاً هو وزملاؤه أمام صنابير المياه، الكل بالبناطيل المثنية عند الذيل والأكمام مشمورة حتى المرفقين، ويكون الشيخ عمارة الذي سبقهم بالوضوء قد فرش الحصيرة وينتظر. يؤدون الصلاة ثم التسابيح، وكلّ إلى مكتبه حتى يأتيهم دفتر الحضور والانصراف.

راح دفتر الحضور والانصراف، وراحت حصيرة الشيخ

عمارة، فما الذي أفعله الآن؟

روايات؟

إياك أن ينطق أحد بهذه الكلمة، فقد ألَّفت وأبدعت وجربت حظي ليس مرة واحدة، بل خمس مرات.

وما النتيجة؟ صفر على الشمال!

سيناريو؟

ولِمَ لا، دنيا جديدة وعتبة خير إن شاء الله، ومن يدري؟ أليس من الجائز أني لم أخلق إلا لهذا الفن، وبداخلي سيناريست على وشك الانطلاق!

لكن أين أكتب هذا السيناريو؟

في هذه الشقة الخَرِبة! لا، ثم لا، ثم لا, ففيها لم أكتب إلا بؤساً وكآبات، ولا حتى في المقهى التي على أول الشارع حيث اعتدت الجلوس، فصاحبها المعلم (الحنش) لا يرتاح لأمثالي ممن يمكثون عنده نصف نهار على كوب أو كوبين من الشاي. فهذا الحنش ليس من النوع الذي يوقر الأدباء، كأصحاب مقهى الفيشاوي أو مقهى ريش. دنياه كلها محصورة في الفلوس وشخللة الماركات، ورواده أكثرهم من الدهماء الذي لا يتورعون عن سب الدين وتبادل البذاءات. حتى إن قبل بي الحنش، وتصادف أن لمحتني النسوة اللائي يترددن على مبنى المحكمة القريب، فبماذا سيخمِّنَّ عندما يجدنني منكباً على الكتابة وأمامي الأوراق؟

obeikandi.com

أكيد سوف يحسبنني (عرضحالجياً)، ويقفن أمامي لأكتب لهن الطلبات والشكايات.

***

obeikandl.com

(٧)

سطح العمارة هو أنسب مكان..

وَسَع وبراح ومسطح مهجور لا يطؤه أحد، فلماذا لا يجربه؟

يتمشى عليه، يطل منه، يجلس فيه أو حتى ينام لو أحب، ويدع لخياله العنان ويكتب على راحة راحته..

منذ أن أصبح ساكناً من سكان هذه العمارة وإلى الآن، لم يصعد إليه سوى ثلاث مرات. ثلاث بالعدد. المرة الأولى كانت بغير سبب. جاء في رأسه أن يصعد فصعد. طفق يتمشى فوق السطح مبهوراً بكل هذا السكون والوسع، والحوانيت والمركبات والناس التي تمشي في الحارة، والصبية بالذات. اتكأ على حرف السور يتأملهم وهم يلعبون (عسكر وحرامية)، وشده خلافهم مع بعضهم البعض على

obeikandl.com

من يلعب منهم دور اللص ومن يأخذ دور رجل البوليس، فالكل تقريباً كان مصمماً على أن يكون هو الحرامي وليس العسكري أو حتى الضابط. وقف يتابعهم بانسجام إلى أن طب عليه زغلول، وطبعاً لم تَرُقْ له هذه الوقفة ولا حتى صعود قناوي إلى السطح من الأساس، غير أنه لم يكشف عما بداخله وقال له بكل أدب:

- يا قناوي أفندي، ما بلاش من السطح الله يخليك.

حدث هذا منذ زمن، وكان زغلول أيامها يعرف قدر نفسه. يقف لتحيته كلما دخل أو خرج، وإذا طلب منه شراء علبة دخان كان يطير ويأتي له بها ولو كانا في آخر الليل، ويرضى بالقليل عشرة أو حتى خمسة قروش، وآخر كل شهر بالطبع يقبض شهريته. كان يعرف أن العين لا تعلو عن الحاجب، وأن قناوي أفندي وإن كان عليه عشر علامات استفهام، إلا أنه في الأول والآخر ساكن من السكان.

لا يحفل به الآن، ويعطيه ظهره كلما رآه، وإذا اضطر لمخاطبته يناديه باسمه (حاف)، بدون كلمة أفندي أو أستاذ، فغضب قناوي من هذا الأسلوب خاصة أنه الوحيد من بين سكان العمارة الذي يُعامل هذه المعاملة، وكان أول قرار اتخذه هو قطع الشهرية، فرد عليه زغلول بأن منع أهل بيته من أن يقضوا له طلباً من السوق. قبيلة من البشر تسكن معه في البدروم، وكلهم يناصبونه العداء، وكلما جنح إلى

obeikandl.com

السلم وتقرب للصغار بقطعة حلوى أو تجاوز عن بذاءة أو سلاطة لسان وهدأت الأمور، تثور الحرب من جديد. ربما (محاسن) أخت زغلول من الأب، هي وحدها التي تحافظ على الود معه لغرض في نفسها.

***

سأله يومها عما يمنعه من الصعود إلى السطح، فأجابه قائلاً:

ـ متآخذنيش يا قناوي أفندي، إنت عازب وستات العمارة طالعين نازلين، اللي بتنشر غسيل واللي بتغسل سجاد وللا بتخزن شوية كراكيب.

وأردف وهو يتحاشي النظر إليه:

ـ وأنا ميرضنيش إن حد يلُطَّك بكلمة، وللا لا سمح الله تطلع عليك سمعة.

أربكه..

لوح له بمكمن الخطر الذي سوف يأتي له منه، لو فعلها ثانية وصعد..

لم يدع له فرصة لأن يفكر ويقول: بأنه لم يَرَ أبداً امرأة في هذه العمارة تعرف طريق السطح، فكلهن محترمات وأقصى ما يفعلنه الجلوس في الشرفات، أما غسل السجاد وتخزين الكراكيب وكل هذا الذي تتكلم عنه، فهذا شغل الخادمات لا ربات البيوت المحترمات!

obeikandi.com

لم يسعفه عقله وقتها بقول شيء من هذا، شوش عليه تهديده الخفي بأنه عندما يطاله فسوف يطاله من سمعته. ويوم والثاني وساوره الشك، وظل يتقصى حتى عرف السبب. فهذا الخسيس له عشة فوق السطح يربي فيها الدجاج والبط، كما أنه يكوّم فيه الكراكيب التي يتحصل عليها من السكان، ناهيك عن الغرفة الأبلكاش التي أقامها. رأى هذه الأشياء بنفسه عندما صعد، غير أنه لم يَرِدْ بباله ساعتها أنها السبب، وأن زغلول أدخل السطح تقريباً في حوزته.

***

المرتان الأخريان اللتان صعد فيهما، كانتا خلسة..

أنجز الأولى بعد منتصف الليل، رصد تحركات زغلول حتى تأكد أنه دخل إلى حجرته وأطفأ النور، فأغلق هو باب شقته برفق وإلى السطح على أطراف أصابعه. القمر ليلتها كان بدراً، والفضاء يترامى أمامه مسافات ومسافات، فأخذ يتمشى جيئة وذهاباً وطفق خياله يحلق ويأتيه بأفضل ما عنده.

كانت ليلة مثمرة، ومن بين ما طاف بخياله فيها رواية (المسكين). أول رواياته. قلب صفحاتها في رأسه ولم يرضَ بالمنهج الذي رسمه للبطل، فكر في أن يعيد كتابتها من جديد وأن يجعله فاعلاً ثائراً محركاً للأحداث، لا مجرد رجل تافه لا حول له ولا قوة.

كانت طلعة ناجحة، أغرته بتكرارها مرة ثانية. ولتكن هذه المرة بالنهار، فأخذ إجازة خصيصاً لهذا الغرض، وبمجرد أن خرج زغلول في مشوار يَمَّم وجهه شطر السطح. ظنه خالياً. فأولاد زغلول قطعاً في المدرسة والمرأتان تقضيان حاجات السكان، إلا أنه فوجئ بالقبيلة كلها. امرأته الأولى (أم لبيب) تتربع في أحد الأركان وتجثم بفخذها على ذكر بط ومنهمكة في تزغيطه بالحَب، والمرأة الثانية أم الولد الذي يفعلها دائماً أمام باب شقته تنشر الغسيل. والأولاد كلهم وبربطة المعلم مبعثرون فوق السطح، الكبيرة تفلِّي الصغيرة، ومن تجمع الكتاكيت التي تاهت بين الكراكيب، والتي غسلت شعرها وصعدت تجففه في الشمس، وولد خط شاربه يقلب صفحات مجلة بها صور قليلة الأدب.

أم لبيب هي أول من انتبه إليه، وضعت ذكر البط في حجرها وتأملته بدهشة. بدا كما لو أنها لا تصدق أنه تجرأ وصعد. وأحست به المرأة الثانية، فتوقفت وسروال زغلول في يدها. واحتار هو. فكر في أن يعود من حيث أتى، غير أنه سرعان ما أدارها في رأسه. لم يشأ أن يبدو أمامهما وكأنه يتراجع، فالسطح سطحه هو والسكان، وليس لهما إلا أن تكنساه وتمسحاه فقط، لا أن تجلسا فيه وتترحْرحَا هكذا. تقدم غير مبالٍ بهما، وبذات الخطوة الوقور التي تتلبسه عندما يكون في حرج أو على وشك الصدام، والمرأتان

ترمقانه حتى استند بمرفقه إلى حافة السور. وقف ينظر إلى الحارة من أعلى، وهما تتابعانه ولا تكفان عن الوشوشة، حتى الأولاد توقفوا هم الآخرين عن الحركة وطفقوا يتهامسون عليه، وهو يشعر ولا يعرف ما الذي يفعله ..

أشعل سيجارة، لم يتمَّها، نَفَس والثاني ثم هرسها بحذائه. ولم تعد له قدرة على التحمل، فمال برأسه نحو الحارة كأنه يتابع أحداً بالأسفل، وصاح بأعلى صوته:

- يا حاج علي. يا حاج علي.

ثم أشار له بلهفة، وأنه دقيقة ويهبط إليه.

ليس من أحد بالأسفل يتلقى منه التحية، لا الحاج ولا غير الحاج علي!

فعل ذلك على سبيل المناورة، فكرة طرأت له فظن أنها تدعم موقفه. واتجه نحو باب السطح، وبالخطوة إياها، الخطوة البطيئة الوقور، ومحاولاً أن يبدو أمامهم وكأنه لا ينسحب، إنما هو في طريقه إلى الحاج علي! وحتى إن ظنوا أنه ينسحب، فهو انسحاب الشجعان، انسحاب الكرام الذين يعفون عند المقدرة!

وعلى أول درجة فوق السلم، سمع أم لبيب وهي تقول: إنه قليل الأدب ويستحق قطع رقبته، والمرأة الثانية تؤمِّن على كلامها، وتؤكد على أن زغلول حتماً سوف يؤدبه!

لمحته البنت التي كانت تجفف شعرها، فأشارت إلى أمها

Opeikandi.com

بأنه لا يزال واقفاً يسمع كلامهم، فظللت المرأة بكف يدها فوق عينيها مع اتجاه إصبع البنت:

- آه والنبي، دا لسه واقف!

فردت أم لبيب:

- بيتصنت على إيه الموكوس، سمع الرعد في ودانه راجل ميختشيش!

لم يسمع باقي الشتائم، غطى على كلامهم زعيق ذكر البط الذي أسرع الأولاد لمطاردته بعد أن أفلت من حجر أم لبيب.

***

obeikandl.com

(٨)

مكث أربعة أيام في الشقة بلا خروج..

كل صباح وعلى مدار هذه الأيام، كان يوارب الشيش ويتابع ما يجري في الحارة.

كان قد ارتاح من هذا الشيش وأغلقه من قبل بالمسامير، لكن الظروف الآن تغيرت. فالخروج إلى التقاعد له ضرورات وأحكام، ولا مناص من أن يرتب نفسه على أن بقاءه في البيت سوف يطول. صحيح أنه شُباك لا يسّر لكننا الآن في مجال قتل الوقت، ولا مانع من أن يقف وراءه بالساعة والساعتين يتابع أطفالاً تلعب فوق الرصيف، مناوشة بين قطة وكلب، أو هؤلاء النسوة اللائي يبعن الخضر والفاكهة. سطر من النسوة لا حل له، كانت الحارة قبلهن هادئة مؤدبة، آه لو يعرف هذا الظالم الذي دلهن عليها!

obeikandl.com

يأتين من شبين القناطر، ترمي بهن سيارة (تيوتا) نصف نقل أمام باب العمارة، فيجلسن بمقاطف الخيار والكرنب والبطاطا، ومشنَّات الطماطم والفلفل واليوسفي. لا يدعن أطفالهن في البيوت، يهبطن بهم من صندوق التيوتا وهم على أكتافهن، ثم يطلقهن في الشارع ومنهم من يعطس أو يكح، أو كان بوله محبوساً فيفعلها أول ما تطأ قدماه إسفلت الحارة، والباقون شياطين لا ترحم.

نسوة جبابرة، لا يوقفهن شيء، لا حر ولا برد ولا مطر، كل يوم وهن على هذا الحال، يبدأن من أول الصباح ولا يخمد ضجيجهن إلا مع أذان الظهر. أنشأن سوقاً من لا شيء، ومشاحنات ونقار وشراسة في التعامل تصل أحياناً إلى مد الأيدي وتقطيع الهدوم.

كان يغلق الشباك بعد أن تجيئهن التيوتا ويرحلن، وإلى جهاز التلفاز متنقلاً بين نشرات الأخبار والمسلسلات، وفي آخر الليل يأتيه النوم مصحوباً بأحلام أشبه بالكوابيس، أحلام منها ما يقع في لقطة واحدة ومنها ما يطول، وتدخله في متاهات لا يخرج منها بشيء.

رأى نفسه مرة كما لو أنه في بيتهم القديم بالبلد، أشياء تؤكد أنه البيت، وأشياء تنفي هذا الإحساس. أشياء ليست غريبة عنه، يعرفها وتعرفه. وأشياء استحالة أن تخصهم أو تنتمي مطلقاً إلى هذا المكان، وكلما سأل: أين هو بالضبط؟

لا أحد يعطيه إجابة، يتأملونه فقط.

وفي حُلْم آخر وجد نفسه في قفص من الحديد بقاعة محكمة، والقضاة الذين يفصلون في قضيته كلهم بنفس الهيئة ونفس التقاطيع. لا تعرف هذا من ذاك، كل واحد فيهم مستنسخ من أخيه. وكان الحكم أن يُركل عشرين ركلة، وقيل في ديباجته إن هذا الحكم وبكل أسف صدر غيابياً لغياب المتهم. وهو مدهوش من أن عيونهم لا تراه، ويصيح من داخل القفص بأنهم هم الذين يستحقون الركل وليس هو.

عقب كل حُلْم كان يشهق وينتفض جالساً، وعندما ينتبه يستعيذ بالله ويعاود الرقاد مستعيداً مفردات الحُلْم لعله يحل شفرته. لا يحل شيئاً ويذهب عنه النوم، لتأتي على خاطره ومضات من أيامه القديمة..

يوم أن صاح فيه دعبس أفندي مدرس الحساب، بأن يضع كفه فوق حافة الدرج، ثم هوى عليها بحافة المسطرة.

ولماذا؟

لأن جدول الضرب طار من رأسي لحظتها، وتلعثمت أمامك خائفاً.

هرست أصابعي يومها يا دعبس الكلب!

ويوم أن استدعاه والده على عَجَل، ليحضر عقد قران أخته فردوس. كان الأفندي الوحيد بين الجالسين، شعره مفروق من المنتصف وبجيب سترته من أعلى مشط وقلم أبنوس،

وعلى عينيه النظارة الفالصو التي اشتراها بربع جنيه من بائع سَرِّيح. والنبوي (عريس أخته) يرمقه بإعجاب، ولا يتجرأ على النطق باسمه دون أن يسبقه بكلمة: (يا أستاذ) أو (يا جناب البيه). وأبو النبوي وأم النبوي وكل بيت النبوي فخورون به، يحسبون أنهم ضربوا ضربتهم وصاهروا الحكومة!

يوم أن دققت بابنا يا أخ نبوي، عيناك كانتا عليَّ أنا وليس على أختي فردوس!

كنت تحسبني ظهراً وعزوة، إذا عاكسوك في الجمعية الزراعية أرتدي بذلتي وآتي معك، وإذا بطحت فلاناً أو علاناً فمعك أيضاً إلى المركز، فهل نلت مرادك يا أخ نبوي أم شربت مقلباً؟

وتأتيه أطياف أخرى مزعجة، زغلول البواب، أم لبيب، أخوه عبد الرحيم، وهذا السافل الذي كان يطير بدراجة بخارية وخطف منه الحقيبة التي كانت بيده.

***

بعد الحُلْم الذين حكموا عليه فيه بالركل، استيقظ مصمماً على الخروج وإلا تعفن هنا، أخذته قدماه إلى مقهى (الحنش).

كانت خالية من الرواد، فمن يأتي في هذه الساعة المبكرة.. الناس لا تزال في طريقها إلى أشغالها، وكتاكيت صغيرة تسرع الخطى للحاق بالمدرسة، وعم هاشم بائع البليلة

يخرج من شارع جانبي، والحمد لله أن زغلول لا يزال نائماً، حتى أهل بيته جميعاً ليس لهم أثر. هذا أفضل، أراحوا واستراحوا.

اتجه إلى الطاولة التي ألفها..

طاولة من الرخام تقف على أربع قوائم من الحديد، إحداها تنقصها شعرة وتلمس الأرض. العيب الذي تشتهر به أنها مع أول لمسة بإصبعه تبدأ في الاهتزاز. لا تتوقف إلا إذا كتمها بقبضة يده. لا يعرف لماذا يأنس لهذه الطاولة بالذات، لها معَزّة في قلبه أكثر من معزة النبوي زوج أخته.

وجاءه كوب الشاي، فأشعل سيجارة مسترجعاً السؤال الذي طالما سأله لنفسه، لماذا لم يتزوج حتى الآن؟

ليست به علة ولا عيب، وكثيراً ما ساورته الرغبة في أنيس يقاسمه الحياة. أخذ هذه المسألة مأخذ الجد أول شبابه، وطالما فكر في أيهما أنسب له، أن يتزوج من هنا أم من فرشوط؟ ودخل بيوت وخرج من بيوت، والنتائج دائماً غير مُرْضية. فكل واحدة يعرضونها عليه كان بها العِبَر، خنفاء، عرجاء، أو بلغت سن اليأس ولا تصلح لزواج. زميله (عباس) هو الذي كان يرشده إلى هذه البيوت، ولا ينسى أبداً أنه لولا ستر الله لورَّطه مع امرأة (لَبَط)، وأبوها نفسه (رد سجون).

ما عاد لهذا الكلام مقتضى، فقد فاته القطار ومن هذه التي ترضى به الآن! والتي ترضى أكيد في حياتها تهمة

أو بلوى.

***

هو (البِكْري) بين إخوته، وبعده بسنتين جاء عبد الرحيم ثم فردوس.

استهواه الفن في البداية، تمنى لو يكون زماراً أو طبالاً ويلف مع أبيه في القرى والنجوع، لكن الذي حدث أنه دخل المدرسة. دخلها كيف أو استمر فيها كيف، كل هذا تاريخ قديم الإفاضة فيه ليس لها مقتضى الآن. المهم أنه سلك سبيل العلم على مهل وبدون أي استعجال، ينجح سنة ويرسب سنة، وفي آخر المشوار لم يجد في يده سوى شهادة الدبلوم، وبتقديرها الشعبي المعروف (درجة مقبول). أما عبد الرحيم فلا يعرف القراءة ولا الكتابة، وفي علم الحساب يعجز عن حل أبسط مسألة، ناهيك عن أنه في أول شبابه خالط أولاد الليل وكاد أن يصبح واحداً منهم.

ابن ليل، ابن نهار، أين هو الآن من عبد الرحيم!

بضربة خاطفة سطا على البيت ومعه الخمسة قراريط التي يملكونها، حتى العمامة والشال وساعة الجيب وكل ما تركه الوالد من متاع. لم ينْجُ منه شيء تقريباً، استغل مهاراته القديمة مع أولاد الليل وابتلع كل ما يخص آل الخربان من ميراث. وما شاء الله عنده الآن صبيان وبنات، كما نمى ثروته. أصبحت ثلاثة أفدنة ودكان بقالة، من حلال

من حرام الله أعلم! أما هو، قناوي المؤدب المتعلم المطيع فيعيش كالفأر في جحر بالبدروم، وعلى (الحميد المجيد) فلا أبيض ولا أسود، وفوق كل هذا لديه تعليمات مشددة من زغلول بألا يقترب نهائياً من السطح.

***

obeikandl.com

(٩)

ثُلَّة شباب دخلت المقهى..

دبلوم وليسانس وولد مرفوت من كلية الآداب وآخر بسلسلة وشارب (دوجلاس)، كلهم (عواطلية) والمقهى في وجودهم لا تطاق، فدفع ثمن المشروب وخرج.

قدماه من شارع إلى حارة إلى زقاق، تتخطيان الحفر وتتفاديان بلاط الأرصفة المكسور، ولا أحد يراه إلا وهو يثرثر، رغي في رغي في رغي! وفي ماذا؟ أكيد في تفاهات. وهؤلاء الذين لا يرحمون بطونهم، يلتفون حول عربة فول وأمام كل واحد منهم سطر من الأرغفة، خاصة هذا الرجل الذي يرتدي شبشباً وبذلة سفاري، ثلاثة أرباع الساعة وهو يأكل، ثم عرَّج بعدها إلى ثلاجة مرطبات، آدمي هذا أم خرتيت!

obeikandi.com

والآن إلى أين؟

هل أضيع الوقت هكذا في الفرجة على الناس، أم أقفز في هذا الأتوبيس مثلاً وأذهب به إلى آخر الخط، وهكذا أقضي اليوم ذهاباً وإياباً في الحافلات.

ليت ما بي سأم وضجر فقط، بل كسرة نفس وخيبة أمل .. ولدت وعشت وليس من أثر خلفته، فلا ولد يحمل اسمي أو صدرت لي رواية تنفع الناس، فلماذا لا أدع هذا الحُق الذي أسكن فيه وأرجع إلى بلدي؟ أدع (دير الملاك) أو (دير العفريت) هذه، وأكمل ما تبقى لي من عمر في فرشوط.

وما الذي أفعله هناك؟

أمسك بالفأس أم أشتغل خولياً للأنفار، ثم من عاد يعرفني الآن بفرشوط؟

لو رجعت فإن أختي فردوس ولا شك سوف تحسن استقبالي، لكن إلى متى؟

يوم. يومان. أسبوع. وبعدها سوف يمسك لي زوجها النبوي العصا، فبعد الكام خدمة التي خذلته فيها بامتياز، لن يمهلني دقيقة واحدة بعد الأسبوع. وأخي عبد الرحيم هو الآخر سوف يظن بي الظنون، سيقول في نفسه إني خرجت إلى التقاعد وما عادت لي الآن شغلة ولا مشغلة، وجئت طبعاً كي أناكف وأسأله عن حقي في الميراث، وعبد الرحيم هذا طبعه شرس، ولا أعتقد أنه سوف يسمح لي بالبقاء في البلد

أكثر من أربعٍ وعشرين ساعة.

حتى هنا ما الذي أفعله؟

كل خبرتي في شئون المستخدمين، الوارد والصادر، كشوف الإجازات، فلان أفندي الموقوف عن العمل أو علان أفندي الذي تخطوه في الترقية، تفاهات في تفاهات تستطيع أية ضفدعة القيام بها.

ألم يكن حانوت العطارة أنسب حل؟

الشيخ عمارة له محلاَّن، واحد في السبتية والثاني بسوق السلاح، قال لي: اختر أيهما يا بطل، وراتبك في الشهر خمسمائة جنيه غير الإكراميات.

لماذا تبغددت!

لو قبلت لكنت هائماً الآن في عالم الفلفل الأسود والمستكة والحبهان، أزن ربع كيلو كمون للحاجة عطيات وكيلو دوم للأستاذ عبد السلام، وتعالى يا قناوي وروح يا قناوي ومن يناولني ربع جنيه بقشيشاً، أو من ترجع إليَّ غاضبة وترمي البضاعة في وجهي وفوقها ثلاث شتمات.

وشارع في شارع وكدر في كدر، حتى رجع إلى البيت وضرب المفتاح في الكالون ودخل. دقيقة وسمع نقراً على الباب، نقر منغم، كما لو أن صاحبه يخرج لحناً بأطراف أصابعه وكلوة يده.

محاسن أخت زغلول..

التقاها عابساً، وبسط ذراعه ليحول دون اقتحامها الباب. تدبير احترازي لجأ إليه مؤخراً، بعد أن كان يفاجأ بها معه في الشقة وتصعب عليه عندئذ مهمة صرفها.

شطفت وجهها على ما يبدو وضفرت شعرها، ثم وقفت أمامه كالقضاء والقدر. وجهها لا يفترق كثيراً عن وجه زغلول، وما هذه الضفيرة التي تلف بها رأسها؟ أتحسب نفسها (فاتن حمامة) في فيلم (دعاء الكروان)!

رائحة عجين خامر تفوح منها، كما أن لها (ضَبّ). يشيح لها بأن تدعه الآن، لا تأبه ويلمح بيضتين في كفها. ومثل كل مرة يشرع في غلق الباب في وجهها متذرعاً بأية حجة، إلا أنها تدفع قدمها إلى الأمام وتحول دون تحرك الباب، وتقترب، يحتك به ثديها الذي يطل من فتحة الجلباب، يشعر بطراوته وهو يلامس ذراعه التي تحول دون دخولها، ولا أثر يسري فيه، لا تناوشه أية رغبة، ويشدد ذراعه على ضلفة الباب، وهي لا تختشي.

فكر أن يضع عصاً وراء الباب أو مقشة من مقشات البلح، أي شيء على سبيل الدفاع عن النفس، يضربها به إذا (غلّست) عليه وفعلت هذه الأشياء التي تفعلها، إلا أنه خاف من العواقب. فهي أقوى منه وأكيد سوف تلوي ذراعه وتأخذ منه الشيء الذي في يده، ومن يدري بعدها بما سوف يجري له.

تقول له وعيناها في عينيه: إنها تريد سلق البيضتين، فهل عنده مانع؟

يجيبها بحسم، بأن البوتجاز عطلان.

تغمغم: عطلان!

وتظل واقفة وعيناها تجوسان في محتويات الشقة، وتسأله إن كان يريدها ترتيب فراشه ولملمة أشيائه المبعثرة.

يقول: لا.

تقول: الفيلم العربي بدأ، ألن تشاهده؟

يقول: لا أشاهد إلا أحاديث الشيخ الشعراوي.

تغمغم ثانية: الشيخ الشعرواي!

يمد عنقه مرهفاً السمع، كما لو أنه أحس بخطوات قادمة. حيلة رآها في إحدى المسلسلات وأراد تجربتها معها، تبتلعها وتلتفت وراءها حذرة ثم تدعه مسرعة.

ما الذي تريده هذه المجرمة؟

ما الذي تريده بالضبط؟

لعب وقلة أدب، أم أنها تخطط للإيقاع به ثم حب وزواج!

الحمد لله، ليس له في هذا ولا ذاك، ثم هل يُعقل أن الأستاذ قناوي الروائي المحترم، ينظر إلى هلفوتة مثلها.

يعرف أنها فتاة كادحة، تخدم في البيوت دون أن تهنأ بمقابل لعرق جبينها. زغلول هو من يتفق ويقبض من أصحاب الشقق، وإن تحصلت على قرش في يدها فبالخناق

obeikandl.com

أو خلسة من وراء ظهره.

يقدر كفاحها، وكان يبتسم لها كلما رآها ويشجعها بكلمة طيبة. مجرد عطف. إنسانية. المشكلة أنها أوَّلت ذلك على غير ما يقصد، وبدأت في الإلحاح.

ويبدو أن أم لبيب لاحظت اهتمامه بها، فخمنت هي الأخرى أنه وقع في غرامها وما هي إلا خطوة أو خطوتان ويتقدم طالباً يدها. ليست أم لبيب وحدها بل زغلول أيضاً كان على يقين بأن محاسن لقناوي وقناوي لمحاسن، المسألة فقط مسألة وقت.

كان غافلاً عن كل هذا، لم ينتبه إلا يوم زفاف كريمة الأستاذ هلال الذي يقطن بالدور الرابع، فأخيراً أحسوا بوجوده معهم في العمارة ودعاه الرجل كباقي الجيران، بل تصادف أنه كان يجلس في الصدارة، كتفاً بكتف مع أبي العروس والمأذون، هكذا جاءت معه، فقد كان أول الحاضرين ومن إحراجهم منه خلوا له هذا المكان. وبعد (كَتْب الكتاب) وهوجة الزغاريد، بدأت أم لبيب في توزيع أكواب الشربات، وعندما سلمته الكوب بشت في وجهه قائلة:

- عقبالك يا قناوي أفندي، عقبالك عقبالك إمتى بقى هنفرح بيك إنت ومحاسن.

فبُهت..

ol-kanad.com

حدق فيها غير مصدق أن الأمر وصل معها إلى هذا الحد، وارتعش الكوب في يده غير أنه لم ينطق بحرف واحد، فماذا يقول؟ هذا النوع من الكلام لا يُرد عليه إلا بلكمة، ببوز الحذاء، بشيء يظل ماثلاً في الذاكرة إلى الأبد.

الكابتن رياض الرجل السخيف الغلِّس الذي يسكن بالدور الأخير، كان يجلس بالقرب منه، مال عليه مستفسراً:

- هو حضرتك متكلم على محاسن؟

فرمقه بضجر، وأثناء خروجه من شقة الأستاذ هلال فوجئ بساكن آخر يسأله نفس السؤال.

بات ليلته متكدراً، ومن يومها لزم الحيطة مع محاسن وأهلها، وكثيراً ما ساوره الشك في أنها تدبر له ملعوباً بالاتفاق مع زغلول، وأنهما ربما يخططان لأن تنفرد به في الشقة، ثم تسحبه شيئاً فشيئاً وعندها يطبُّ زغلول بعصاه، وساعتها أحد خيارين يا محترم: إما الفضيحة والكراكون، أو تستر عرضها بالزواج!

***

(١٠)

ما الذي رماه ناحية دير الملاك، وورَّطه في السكني بجوار زغلول؟

زميله عباس هو أيضاً السبب، قال له:

- على حد علمي السكن في الحتة دي رخيص، وهي مواصلة واحدة من الشغل وهتلاقي نفسك نازل قدام البيت.

كان ذلك بعد سنة ونصف من التحاقه بالشركة، فأخذ بنصيحته وجاء. طفق يبحث ويسأل حتى ألقته قدماه أمام هذه العمارة. كانوا يشطبون الواجهة يومها، وصاحبها الحاج غباشي يجلس أمامها على مقعد في الظل. سأله السؤال الذي يسأله منذ شهر لأصحاب العمارات، فقلب الرجل كفه قائلاً:

- كان على عيني، آخر شقة عندي كتبت عقدها يوم الجمعة اللي فاتت.

obeikandi.com

ويبدو أن فكرة طرأت له وهو يتأمل البنطال الذي يرتديه قناوي، فحك ذقنه مكملاً:

- عندي ولا مؤاخذة..

وأشار له بيده:

- اتفضل. اتفضل. واقف ليه!

نظرة ثانية إلى البقعة التي تملأ كُمّ السترة، وتشجع قائلاً:

- بالأمانة كده عندي مخزن جنب بير السلم، إن كان يلزم يبقى على البركة.

فغمغم قناوي: مخزن!

- وماله المخزن! دا تسعة متر في تمانية، وله شباك عالشارع.

وأشاح مبتسماً:

- دا الواد زغلول عينه كانت هتطلع عليه.

- زغلول؟

- زغلول. الواد الصعيدي اللي هيمسك العمارة.

فلبث قناوي صامتاً، والحاج غباشي يتعجله:

- هه، يلزم؟

- مخزن! بس يعني..

- دا مخزن مُكْن وياما شَوِّنا فيه حديد وأسمنت، إن عجب هبلطه وأهندسه وأعملك فيه أوضه وصالة وعفشة ميه.

وقناوي حائر بين (نعم) و(لا)، إلى أن قال له الحاج غباشي:

- إلا قولّي الأول، هو إنت شغال فين؟
- شغال فين؟!
- صنايعي يعني وللا أرْزُقي، وللا بتشتغل إيه؟
- أرزقي إيه يا حاج، دا أنا موظف وبقْعُد على مكتب!
- خلاص يا سيدي مغلطناش، موظف موظف!

ورضى قناوي بالمخزن، على اعتبار أنه في قابل الأيام سوف يتزوج وينتقل إلى شقة تليق، مثلما كان يتعشم في أنه سوف يصبح ذات يوم ممثلاً للعمال في مجلس الإدارة. ولم يكن بعصمة زغلول آنذاك سوى زوجته أم لبيب، وأخته محاسن لا تزال صبية، وبحكم الجيرة والإنسانية نشأت بينه وبين هذه الأسرة علاقة واتصل الود.

***

ربما أنا الذي أفسدت هذه العلاقة، وأخرجتها عن مسارها الطبيعي..

فمن أول يوم تسلمت فيه هذا المخزن، عفواً! أقصد هذه الشقة، وأنا أتباسط مع زغلول. وهو الآخر كلما جاءته (زيارة) من البلد كان يهديني منها، عيش فايش، بلح إبريمي، أو عسل أسود. والحسنة طبعاً يجب أن تُقابل بأختها، فدعوته مرة على الغداء بمحل (كشري) ومرة في (مسمط)، كما اصطحبته أيضاً إلى سينما (مصر) بشارع الجيش وشاهدنا معاً فيلم (الإخوة الأعداء).

ومن منطلق أن أولاد آدم إخوة، أمعنت في السير بهذا الطريق. وكنت لا أزال أحتفظ بجلباب بلدي أكمامه واسعة، شيء من بقايا سَحَّارة جدي التي أتيت بها من البلد. أرتديه وأتربع قبالته على الدكة التي بمدخل العمارة، نحتسي الشاي وسيجارة منه وسيجارة مني. ولم يَدُرْ ببالي مطلقاً أن السكان الذين يدخلون ويخرجون أمامنا، كانوا يحسبونني وقتها أحد (بلديات) زغلول، أو ربما بواباً في عمارة مجاورة يجيء لزيارته. هذا الذي فهمته بعدها..

فمرة كنت أجلس معه وفي حجر الجلباب الذي أرتديه راديو ترانزستور وعلبة الكليوباترا، وتركني هو لحاجة يقضيها. وأُفاجأ بامرأة سمينة من سكان الدور الخامس تهبط الدَّرَج وتقبل عليَّ وفي يدها صحن غويط، فاعتدلت في جلستي من باب الأدب، غير أنها مدت لي يدها بالصحن، وأنا وبكل تلقائية وجدت نفسي آخذه منها، وكانت هذه غلطة كبيرة غلطتها في حق نفسي.

أعرف هذه المرأة. اسمها الحاجة (إفترا). واسمع عن إجرامها ولسانها الطويل. وتصادف أن شاهدتها بعيني ذات يوم تنهر صبياً، بل لم تتورع عن ركله ببوز الحذاء. وعندما أبلغوا أم الصبي أتت مسرعة، ويداها مشغولتان بطيّ ملاءتها طيَّةً خاصة فوق كتفيها. كانت امرأة ممن يحترفن كار الدِّلاَلة ولها مؤخرة بالغة الضخامة، وما رأيتها

يوماً إلا واندهشت من عجائب الله في خلقه!
كل هذا ليس مهماً، المهم هو الطيَّة التي كانت تطويها للملاءة، إذ لها دلالة عند هذا النوع من النسوة وتعني أنهن عازمات على الشجار، وليس باللسان فقط وإنما باليد وشد الشعر وتمزيق الهدوم. حسبت يومها أن جارتنا الحاجة إفترا حتماً هالكة، وحالاً حالاً سوف نطلب لها الإسعاف أو ربما نقرأ على روحها الفاتحة. المدهش أن الحاجة إفترا هي التي أنهت المعركة لصالحها. ثبتت ذات المؤخرة بقبضة يدها، وبحركة متقنة لوت ذراعها حتى مددتها وكتفاها تلامسان الأرض، تماماً مثلما يحدث في حلبات المصارعة. ولم تكتفِ بنت الذين هذه، وضعت ركبتها على بطنها وبدأت في لكمها، حتى تكاثر الناس وسحبوا المرأة من تحتها. من يومها وأنا أعمل ألف حساب لهذه الإنسانة، وكلما رأيتها أرمقها بإعجاب مشوب بالحذر. لذا عندما سألتني عن زغلول، هببت واقفاً على الفور وبكل أدب قلت لها:
- دقيقة واحدة يا ست هانم.
غير أنها عاودت السؤال بضجر:
- يعني هو فين بالظبط؟
فقلت، وأنا أرجع خطوة إلى الوراء:
- مش عارف، يمكن في الحمام وللا بيقضي حاجة للسكان.

وهي تتململ وعيناها على الجلباب الذي أرتديه والصديري الذي يطل من فتحته، ثم قالت:

- أنا كل ما أدخل وللا أطلع من العمارة ألاقيك قاعد القعدة دي، هو انت وزغلول إصحاب؟

فتبسمت وسكت، فقد كنا فعلاً أصدقاء.

ثم قالت:

- إنت ماسك إني عمارة هنا، عمارة الحاج عبد الرسول اللي ورانا وللا بيت المليجي؟

فانتبهت وشرعت في إفهامها حقيقة الأمر، إلا أنها سبقتني قائلة:

- على كل حال إنت وزغلول واحد، يللا يللا كده جَرْي اشتريلي بربع جنيه فول، وبربع زيه فلافل، وقوام قوام تطلعلي الدور الخامس، الشقة اللي على الشمال.

ومدت لي يدها بنصف جنيه..

وأنا ما بين الصدمة والدهشة، وعندما أعادت عليَّ ما قالته، أشحت بيدي رافضاً أخذ النصف جنيه وقلت لها غاضباً:

- فول إيه وفلافل إيه يا ست انتي! دا انتي دماغك ودَّتك لبعيد، مش تحاسبي في الكلام!

- أحاسب في إيه!

- تحاسبي في الكلام، فول إيه وهباب إيه، هو إيه اللي

جرى في الدنيا يا ناس!

فشاطت فيها النار:

- وكمان بتقل أدبك!

وطفقت تصيح بصوت مرتفع:

- يا زغلول. يا زغلول. تعالى هنا شوف البلاوي دي اللي إنت بتلمها حواليك.

- بلاوي إيه يا ست إنتي، أنا ساكن هنا زيي زيك بالظبط!

- ساكن!

- أيوه ساكن، غريبة دي!

- إنت يا عِرَّة ساكن معانا هنا؟!

وشعرت بأن المسألة لن تقف عند هذا الحد، وأننا في سبيلنا للتماسك بالأيدي، فتحاشيتها قائلاً:

- على كل حال الله يسامحك.

ثم حسبتها سريعاً في رأسي ووجدت أن الخطوة التي سبق أن رجعتها إلى الوراء غير كافية، فرجعت ثلاث خطوات أخرى ليسهل عليَّ الفرار لو بادرت بأي هجوم. وازداد تركيزي على حركة يدها خوفاً من أن تباغتني، ولا محالة ساعتها من أن أضيع مثلما ضاعت صاحبة المؤخرة.

ورغم كل هذا الحذر والاحتياط تهورت، تهورت وإلى الآن ليس عندي أي تفسير. أفلت زمامي مرة واحدة، وبكل عزمي ألقيت الصحن فوق الأرض وطفقت أدشدشه بقدميَّ،

obeikandi.com

وأنا ألعن العمارة وسكان العمارة والحاج قطران صاحب العمارة.

هي لحظة وثُبْت إلى رشدي، ومع أول حركة من يدها طرت كالريح. ليس إلى شقتي بالطبع، فمن السهل عليها أن تلحق بي، جريت في الشارع. لم أعد إلا آخر الليل، بعد أن نامت العمارة كلها. استأت من نفسي هذه الليلة، فعلاقتي المبالغ فيها بزغلول هي التي تجر عليَّ المشاكل وتضعني دوماً في مواقف محرجة، ورغم ذلك مررتها له.

القشة التي قصمت ظهر البعير، كانت في الأسبوع الذي مرض فيه هذا الوغد. لزم غرفته آنذاك يشكو من كسل أصاب الكبد، وكنت كل يوم تقريباً أعوده وبيدي أكياس الفاكهة، وإذا به في آخر زيارة يغمز لأم لبيب بأن تدعنا الآن، ومال عليَّ قائلاً:

- آديك شايف، الولية على آخرها.

ويسكت..

- كنس على مسح سلم على طلبات السكان اللي مبتخلصش.

ويسكت..

- بس زي ما انت راسي العمارة برضه عايزة اللي يقعد قدام الباب، ويخلّي باله من اللي داخل واللي خارج.

أشيح بيدي بألا يبالي بهذا الأمر، فالمرض له أحكامه وحتماً السكان يقدرون.

- وكمان الراجل العازب ده اللي اسمه الكابتن رياض، يا ترى بقى أم لبيب هي اللي هتطلعله الطلبات!

وحتى الآن لم أفهم، فرماها في وجهي:

- يعني مروءة منك لو كل يوم بعد ما ترجع من الشغل تقعدلك ساعة وللا اتنين قدام الباب، وإذا حد من السكان عاز طلب ولا حاجة آهو البركة فيك.

لم أنطق بكلمة، قمت من سكات إلى شقتي وأنا أحمد الله أنه ليس بي عرق الإجرام الذي عند أخي عبد الرحيم، وإلا لكنت كتمت أنفاسه.

***

obeikandi.com

(١١)

أسبوع والثاني وتعود قناوي حياة الكسل..

لم يعد يصحو إلا مع أذان الظهر، غير أنه اليوم وعلى غير عادته استيقظ مبكراً على جلبة عم درويش بائع الصحف.

يفعل درويش جلبته هذه منذ ربع قرن، الساعة السابعة بالدقيقة والثانية، حتى إن قناوي سأل نفسه أكثر من مرة عن مِلَّة هذا الرجل؟ أهو من دم ولحم مثلنا! ألا يقعده المرض يوماً، ألا ينقطع مرة عن المجيء ولو حتى بغير سبب.

تستمر نداءاته على الأخبار والأهرام وروزا والمصور زهاء ربع الساعة، وطيران إلى مكان آخر.

لكن بعد ماذا؟

بعد أن يكون قد كَهْرَب المنطقة، فالعم درويش رغم حجمه الضئيل له حنجرة لا يُستهان بها، ولصوته ارتفاعات

obeikandi.com

وترددات تؤذي الأذن.

يشعر بعدها بالعم صبحي بائع الحليب..

يعلن عن قدومه برنتين من جرس دراجته، ثم يبدأ في ركنها إلى جوار الشباك.

لماذا شباكه هو بالذات؟ لا يعرف..

دراجة ليست كالدراجات اللطيفة الظريفة التي يركبها الناس في تنقلاتهم. لا . لا. نوع آخر وشكل آخر مختلف، هيكل من الفولاذ صُمم خصيصاً لحمل الأوزان الثقيلة وتحمل الصدمات والحفر، وفي الخلف شبكة من الحديد وخطاطيف وشناكل للإمساك بأقساط اللبن. دراجة (عمولة) من تلك التي تُصنع بالطلب وفي ورش مخصوصة. يركنها منذ عشرين سنة في هذا المكان. تشاجر هو وقناوي عشرات المرات بسببها، وبسبب ما تحدثه من خرابيش وتلفيات دهورت حال الشباك، والعم صبحي لا يعبأ ولا ردعته المحاضر التي حررها له بقسم البوليس. كل ما كان يفعله الابتعاد يومين أو ثلاثة ثم يعود. اختار شباكه من دون كل شبابيك الحارة، وتأتي هانم وعلية وصباح وأم علي وأم حسين ويصب هو في الكيزان والسلاطين، ومن ينام بعدها أو يهنأ براحة. لا محبة إلا بعد عداوة فعلاً، فقد تصالحا الآن وصارا كالسمن على العسل.

كاد أن ينسى هؤلاء الناس بعد أن أحالوه إلى التقاعد،

يجيئون ويذهبون الآن دون أن يشعر بهم، فلم يعد يصحو إلا في ساعة متأخرة حيث لا وجود للعم صبحي أو العم درويش، ونسوة شبين اللائي يبعن الخضر قد أصابهن الإعياء ويتأهبن للرحيل.

وطالما قام اليوم مبكراً فليجعله إذاً يوم عمل، تناول إفطاره سريعاً وكان أول قرار اتخذه هو حسم مسألة السطح.

لكن مع من يبدأ المشاورات؟

لا يعرف أحداً من الجيران المعرفة الواجبة، وإذا فرضت عليه الظروف الكلام معهم فكلمة أو اثنتين بالعدد. الحاجة (إفترا) هي الوحيدة التي دخل معها في علاقة مباشرة يوم موقعة (الصحن)، فهل هذه الحيزبون المتهورة تصلح لمشاورات؟! الأستاذ هلال الذي دعاه يوم زفاف ابنته هو أفضلهم، لا يتجاهله مثلهم بل ويسلم عليه سلاماً حاراً وباليد كلما التقى به.

كان باشكاتباً بمحكمة باب الخلق وسبقه إلى التقاعد بعشر سنين، غير أن تقاعده كان مشرفاً، ببلوغ السن وحفلة وداع، وليس مثله الذي شلحوه من وظيفته..

العيب الخطير الذي في هذا الإنسان، أنك لا تخرج منه بشيء.

هذا الذي سمعه من أهل الحارة.

ففي أول الأمر كانوا يستشيرونه في أغلب أمورهم. توقفوا

الآن. توقفوا نهائياً. فمن يستشره مرة لا يكررها، ويحذر غيره من التعامل معه.

يقولون إنه لا ينطق بجملة مفيدة، يصدع رؤوسهم فقط. يدخل في حكايات وروايات لا علاقة لها بالسؤال الذي سألوه، والنتيجة لا شيء! لا يتكلمون معه الآن إلا بقصد اللهو والثرثرة.

هذا الذي يُقال، لكنه لم يجربه. ثم إن مسألة شلح زغلول من السطح لا تخص قناوي وحده، بل والأستاذ هلال أيضاً ومعه كل سكان العمارة, فلماذا لا يبدأ به؟

طرق على باب شقته فالتقاه الرجل ببشاشة واستضافة بغرفة الجلوس، وشرع قناوي على الفور في عرض الموضوع، وكان حذراً من أن يجره الأستاذ هلال إلى متاهة من متاهاته. أفاض في الكراكيب التي تملأ السطح، وأن زغلول وأهل بيته يقفون له بالمرصاد كلما صعد إليه، ومن يدري؟ فربما فعلوا ذلك أيضاً مع غيره من السكان، وأن الواجب يقتضي تكاتف الجميع ووقوفهم وقفة رجل واحد ضد هذا الإنسان.

وبعد أن أفرغ كل ما عنده حسا آخر رشفة من كوب الشاي، واعتدل في جلسته منتظراً الرد، غير أنه لم يسمع شيئاً. فالأستاذ هلال كان قد انصرف عنه باللعب في (ريموت) التليفزيون، ثم تركه فجأة وقام ليطل من الشباك. مشاجرة صغيرة ثارت في الحارة بين الحاج حسن صاحب محل

السجَّاد الذي بأسفل العمارة، وامرأة من نسوة شبين تجاوزت حدودها وفرشت أمام باب المحل، فوقف هو من أعلى ليصلح بينهما، وينبه على المرأة بأن تتزحزح بفرشتها قليلاً، وأنت يا حاج حسن: أَطِل بالك يا أخي ولا تنفعل هكذا! ربع ساعة وهو محشور بينهما، وقناوي يضع يده على خده وينتظر. وفشل طبعاً في إنهاء المشاحنة، فعاد لقناوي حانقاً:

- أما ولية بياعة لكن مخها زِنِخ، تصدق يا قناوي أفندي...

فأوقفه قناوي قائلاً:

- خلِّينا في موضوعنا يا أستاذ هلال.

- موضوعنا! خلاص خلينا في موضوعنا، اتفضل كمل.

- أكمل! أكمل أقول إيه، ما خلاص خلصت.

- خلاص خلصت! جميل. جميل.

وقناوي يغمغم: هو إيه دا اللي جميل!

والأستاذ هلال يتأمل الساعة التي تلف معصم قناوي ويسأله عنها، من أين اشتراها وبكم؟

وقناوي يجيبه بضجر بأنها ماركة (الخنفساء)، ماركة ليس لها وجود الآن، فهي لم تعد تُباع ولا لها قطع غيار، وأنه اشتراها بجنيه وربع منذ ثلاثين سنة، وربما هو الوحيد على ظهر الكون الذي يرتديها.

وهو يتابعه بشغف ثم دخل في موضوع آخر، فهب قناوي

ohelkandil.com

واقفاً وخطا خارجاً وهو يقول:

- سلام عليكم، الضُّهْر وَجَب.

***

obeikandl.com

(١٢)

سكان العمارة تقريباً على شاكلة الأستاذ هلال، فبعد أن خرج قناوي من عنده محبطاً، طرق عليهم الأبواب جميعاً دون فائدة.

فمن في غفلة ولا يعرف أن للسكان حقاً في السطح، والداعم باللسان فقط، والضَّجِر لأن قناوي كبس عليه وقت القيلولة، والمرأة التي تسكن بالدور الثاني وظنته جاء يتحرش بها فلقنته درساً في الأدب. وهذا الأفندي الذي التقاه بشورت وفانلة بحمالات، رجل عجيب! انفعل وثارت حميته، كان مصمماً على حل هذه المشكلة بالذراع ورمي كل كراكيب زغلول من فوق السطح، وإن أمكن رمي زغلول نفسه وراءها، ثم ما الذي حدث؟ لا شيء! زاغ هذا الأفندي بعدها، وكأنه (فص ملح وداب).

obeikandl.com

رغم كل ذلك لم ييأس قناوي، قال في نفسه: هذا هو حال الناس، خاملون ولا يبالون من حقوقهم إلا بالأكل والشرب فقط، أما أنا فغيرهم ولن يثنيني أي شيء عن كنس هذا البني آدم من السطح. وما دامت العمارة لها صاحب فسوف أبدأ به، فالوسائل السلمية هي أول الطريق، وإن لم تُجْدِ لن أعدَم الحيلة، فجعبتي والحمد لله عامرة بالخطط والمناورات التي أكسر بها أنف زغلول. وفرك يده مستعيناً بالله، وذهب إلى (مَغْلق) الخشب الذي يملكه الحاج غباشي بشارع الخازندار.

***

الحاج غباشي يقف في حوش المَغْلق، بجلباب بلدي أكمامه واسعة وعلى عينيه نظارة نظر. وثُلَّة من العمال هناك في آخر الحوش، البعض يطس وجهه بحفنة ماء والبعض يجفف عرقه بذيل الفانلة أو منديل. كانوا قد أفرغوا للتو شحنة خشب، من صندوق عربة نقل لا تزال واقفة. يشير لهم الحاج بالعصا التي بيده بأن يستريحوا الآن، ثم يبدءُوا في رص ألواح الخشب، سطر هنا وسطر هناك. وسائق النقل يدق مرتين على البوق، ويعود بالمركبة إلى الخلف تاركاً وراءه دفقة دخان مؤذية.

يصل قناوي في هذه اللحظة، وعندما يجتاز بوابة المَغْلق يتلقى بوجهه دفقة الدخان كاملة. يهشها بكفيه متأففاً ويتجه صوب الحاج غباشي. يقف وراءه بخطوة ونصف. يدعه

منشغلاً بما هو فيه، وتروح عيناه إلى ظل الحاج الماثل على الأرض. الظل لا يستقر على شكل أبداً. يبدو قصيراً وفجأة يطول أو ينبعج، ومع حركة الرجل التي لا تهدأ يأخذ أشكالاً أخرى تثير الانتباه، وفي كل الأحوال لا تعرف منه أين الرأس وأين الجسد، أما العصا التي يلوح بها فيبدو خيالها شبيهاً بكوز الذرة.

ينتبه إليه الحاج غباشي، ويسأله:

- فيه حاجة يا ريس؟

تضايقه كلمة (يا ريس)، إلا أنه يبتلعها وخطوة إلى الأمام حتى حاذاه معرفاً بنفسه:

- أنا قناوي.

- أهلاً وسهلاً، بس ولا مؤاخذة مفيش بيع النهارده.

- أنا قناوي الخربان يا حاج غباشي.

- خربان! خربان مين؟

- قناوي الخربان بتاع دير الملاك.

- دير الملاك! دير الملاك!

وتبسم:

- تكونش إنت بتاع بير السلم؟

لا تعجب قناوي هذه الطريقة في الكلام إلا أنه كتم ضجره، وعلى الواقف بدأ في شرح الموضوع، والحاج غباشي معه بأذنيه وعيناه على ألواح الخشب التي تُرص. يستمع

obeikandi.com

إليه ورأسه يروح ويجيء مع حركة العمال، أو فجأة ينهر أحدهم:

- مش كده يا طور! حاسب هتكسر اللوح.

يضطر قناوي إلى التوقف، فيبادره:

- كمل. كمل. سكت ليه؟

يشرع ثانية في الحديث، إلى أن يستوقفه:

- ومن إمتى الكلام ده؟

- من زمن وهو على دا الحال.

- زمن!

يدعه الحاج موبخاً أحد العمال، فيعاود قناوي النظر إلى العصا التي يشوح بها، عفية، لها بزابيز، ودماغها ما شاء الله كما الزلطة!

ويتمتم: آه لو يتذوقها زغلول..

وعندما التفت إليه الحاج غباشي، طفق يكمل باقي الأحداث مضيفاً إليها بعض الحواشي والزيادات التي أثارت غضبه، فسأسأ قائلاً:

- آه يا جربان يابن الكلب!

وينكش بقاعدة العصا في فراغ بين بلاطتين من بلاط الحوش:

- يعني إن غاب القط العب يا فار، أنا ياما جتني شكاوي في الوسخ ده، وأقول دا غلبان وخلُّوه ياكل عيش، إنما لحد

obeikandi.com

كده، عشة وفراخ وبط!

ويرمق قناوي:

- فيه حاجة تانية يا فندي؟

- سلامتك يا عم الحاج.

ويمد يده لمصافحته:

- عشمنا كبير في ربنا وفي حضرتك، ألا الحكاية زادت عن حدها.

ويخطو خطوتين منصرفاً ثم يلتفت إلى الحاج:

- وإن شاء الله حضرتك هتشرفنا قريب.

- ضروري، ضروري، كلها يومين وهتلاقيني طبيت على العمارة.

***

obeikandl.com

(١٣)

هو يوم واحد فقط وجاء الحاج غباشي بعربته المرسيدس.. رزع بابها وفوراً إلى السطح، مشيراً لزغلول أن يلحق به. وقناوي الذي يتابع من وراء الشيش، تريث حتى وصلا إلى منتصف الدَّرَج وبدأ في الصعود وراءهما، وعند باب السطح وقف في موضع خفي يمد عنقه ويرى.

الحاج غباشي اليوم بالملابس الإفرنجية، بذلة سفاري بكُمّ طويل وعلى رأسه طاقية بيضاء. أزاحها قليلاً إلى الوراء ثم عقد يديه خلف ظهره متمهلاً في مشيته. كان يمشي مشية المتفرج، وزغلول وراءه بخطوتين.

المشهد بالفعل فاق تصوره..

عشة لها باب من السلك خلفه طيور تلوح بمناقيرها، ساعة حائط من أيام الملك فؤاد مركونة بحذاء السور، إلى

obeikandl.com

جوارها صندوق مياه غازية ماركة (إسباتس) التي أوقفوا إنتاجها منذ أربعين سنة، وزكيبة شباشب قديمة جمعتها أُمّ لبيب على مدار السنين.

عينا غباشي تلاحقان كل هذا الذي تراه، ورغم ذلك كانت تفلت منه أشياء، كرتونة يطل منها (دبدوب) بأذن واحدة، حذاء ميري بعنق من أيام أن كان زغلول مجنداً في سلاح الحدود، فقد مر عليهما الحاج مرور الكرام.

يلتفت فجأة ليتأكد أن زغلول لا يزال وراءه، ثم يقف أمام جهاز للتلفاز من النوع القديم (الأبيض والأسود). يدفعه بقدمه فلا يتزحزح، وتصدر عنه زَنَّة خفيفة. أظنها من اهتزاز اللمبات، فيبدو أنه من الأجهزة التي عاصرت بداية الإرسال وتعمل باللمبات وليس بالإلكترون. يدفعه دفعة أشد، وأيضاً لا يتزحزح يظل ثابتاً على الأرض، الزَنَّة هي التي خرجت بصوت أعلى، فيغمغم حانقاً: ما شاء الله ما شاء الله!

وينظر إلى زغلول متسائلاً:

- والبتاع ده بسلامته بيعمل إيه هنا؟

ولا ينتظر منه إجابة، تجذبه أشياء أخرى فيشير إليها بإصبعه:

- وحَلْق باب على طبق مخروم على صندوق ببس! الله الله!

ويرمق زغلول فيجده صامتاً:

- سامعني يا أخينا وللا أنا بكلم نفسي.

- سامع سامع يا عم الحاج.

- طب استأذن! قول يا سكان! يا حاج غباشي! يا فلان! يا علان!

ويشير إلى كومة من مخلفات الدجاج والبط، كانت قد جمعت في آخر كنسة للسطح ولم يتم التخلص منها بعد، ينكشها بمقدمة حذائه متأففاً:

- أعوذ بالله! حتى دا كمان فوق السطح.

ويعاود المشي بغضب صوب الغرفة الأبلكاش، التي شيدها زغلول لضيوفه الذين يأتون من البلد. يدخل من بابها. ويغيب. وزغلول عيناه على باب السطح خوفاً من أن يراه أحد وهو في هذا الوضع، وقناوي يخبِّئ نفسه أكثر وأكثر كي لا يلمحه ويفهم أنه السبب. وفي ذات الوقت تسمع حركة الحاج غباشي من الداخل، كما لو أنه يذود عن نفسه ويهش ويضرب ويخبط على بذلته السفاري، أظنه تعرض لهجمة من البراغيث. ويأتي صوته وهو يسب ويلعن زغلول وأبا زغلول وجد زغلول، وهو من الخارج يستعطفه:

- السماح يا عم الحاج. السماح ياللي حطيت إيدك على شباك الرسول.

والحاج غباشي من الداخل:

obeikandi.com

- السماح! سماح مين يابن الرفضي!

ويخرج وبيده شيء أشبه بالبشكير، يرميه في وجهه صائحاً:

- براغيت! براغيت يابن الكلب! صحيح اللي اختشوا ماتوا.

ويخطو عدة خطوات، ثم يعود برأسه إلى زغلول:

- وبتبني في ملكي يا مقشف! بتعمل أوضة وأنا لسه على وش الدنيا، ومراتب ومخدات وبابور جاز!

وخطوة أخرى ويعاود الالتفات:

- طب خليك خفيف، كركوبة وللا كركوبتين وكفاية!

ويكلم نفسه:

- لكن كفاية إيه! الحاج غباشي لا هو حاسس ولا دريان، والسكان كل واحد مَلْهِي في حاله، وأعمل أنا اللي بدالي!

ويقف مستديراً له بكل جسده:

- مش كتّ بتقول كده لنفسك يا وَلَه؟!

فيطأطئ زغلول رأسه متلعثماً، وفي نفس اللحظة يلمح الحاج برغوثاً يقفز على كُمِّ السفاري، فيعود بعنقه إلى الوراء متأففاً ويهشه بكف يده، وعلى غير توقع يدنو من زغلول ويصفعه صفعة مدوية. لا أظن أن الحاج كانت في نيته هذه الصفعة، فهو رجل طيب وأقصى ضرر يأتي منه شتمة أو شتمتان أو يزعق ويهلل في وجه من يتكلم معه، البرغوث هو الذي أثاره وأوصله إلى هذه المرحلة. ويتلقى

زغلول الصفعة متقهقراً إلى الخلف، يقف على مسافة من الحاج حذراً من أن يتلقى أختها، ويخرج صوته خافتاً وبمسكنة:

- بتضربني يا حاج!

- أضربك! دا أنا أضربك وأضرب أبوك كمان، هو نص يوم يا وسخ ومن الفجر هكون هنا، إن لقيت قشاية واحدة فوق السطح هحمِّلك إنت وعيالك على عربية كارو وأرجعك من مطرح ما جيت.

***

غير أن الحاج غباشي لم يثق في قيام زغلول بالمهمة كما يجب، فأرسل ثلاثة أنفار وصبياً ومعهم منشار وفأسان وجاروف. وفوراً شرع هذا الفريق في تدمير كل ما هو ثابت أو منقول فوق السطح. لم يتركوا المكان إلا وهو أرضاً محروقة. ولبث زغلول نصف يوم هو وقبيلته، يهبطون بالبقايا والأنقاض على أكتافهم فوق الدَّرَج، حتى التليفزيون لم تُكتب له النجاة، نال ضربة فأس لا ندري إن كانت بطريق العمد أو الخطأ، فكومه زغلول في (شوال) للتصرف فيه لاحقاً. الذي عفوا عنه فقط هو كل ما فيه نَفَس وروح ، كالكتاكيت والدجاج والبط، وهذا بتعليمات قاطعة من الحاج غباشي كي لا تركبه الحُرْمانية ويخالف الشرع، هذا الذي قاله رجال الحاج وهم يغادرون.

ohelkaal.com

ولم تكفَّ أم لبيب عن لعن العمارة ومن في العمارة، خاصة النذل الخسيس الذي وَشَى بهم. كانت على وشك العبور من الباب الخارجي، وفي يدها زوج من البط ولا تكف عن السب والغمغمة. ووراءها الزوجة الثانية تحمل فوق صدرها كرتونة بها أرنبة وخلفتها، فضلاً عن قفص دجاج يهتز فوق رأسها وهي تسنده بكفها. بدأتا في اللف على الفرارجية بحثاً عن مُشْترٍ، وشمرت محاسن جلبابها حتى عجيزتها. لم يعد يسترها سوى بنطال البيچامة الكستور، وتأخذ من الأنفار وترص فوق ظهر الكارو التي تقف أمام الباب، وزغلول بالصديري والسروال ويده بيدها.

عيال في الشارع استوقفهم المشهد فطفقوا يحدقون، وصبي الكوَّاء وهلفوت ببنطال منامة وشرز جاءا لمد يد العون والمساعدة. والأستاذ هلال ومعه أحد السكان وقفا يتساءلان في همس: هل يجمعان قرشين لزغلول، أم يكتفيان بجبر خاطره بكلمتين؟ ثم انصرف كل منهما إلى حال سبيله دون أن يتوصلا إلى قرار. ولبَدَ قناوي في غرفته مواربأ ضلفتي الشيش إلى أقل درجة ممكنة، يتابع هذا الحدث من أوله حتى آخره.

كانت معمعة تلاها يوم للكنس والمسح والرش، فقد شوهدت حشرات بعضها معروف والبعض الآخر لم يسمع به أحد أو رآه سابقاً. أصبح السطح بعدها خالياً من كل

سوء، وركبوا له باباً جديداً سلموا لكل ساكن من السكان مفتاحاً له. وبدأ أصحاب الشقق في الصعود، يوم والثاني وفترت حماستهم، أما قناوي فيومياً كان يرتدي ما يتيسر له من الثياب وإلى السطح.

***

obeikandl.com

(١٤)

الدنيا أول الصباح، وقناوي يقف مستنداً إلى سور السطح.. هذه هي المرة الأولى في حياته التي يشعر فيها بطعم الفوز، بعد أن تجرع ما يكفي من الإخفاقات. صحيح أنه لم يدخل في معركة مباشرة مع زغلول، لكن من هذا الذي ينكر أنه الذي حرك الأحداث وأجلاه عن السطح.

بيوت الحارة تبدو أمامه متقاربة في الطول والعرض، وكلها تقريباً بنفس الشكل كما لو أن الذي بناها جميعاً نفس المقاول. ولا تسأل عن هندسة المعمار أو حالة الطلاء وهذه الشروخ التي تهبط متعرجة على الجدران، كل كل في الدَّرْك الأسفل وكأنها عاهات وليست عمارات.

عمارة الحاج غباشي هي أفضل بناية في الحارة، دخلت مرحلة الكهولة غير أنها لا تزال بزهوتها، فالطلاء على

obeikandi.com

حاله ولا خرابيش أو بذاءات مكتوبة على الحيطان، ولا أحد عبث فيها وبهدل الواجهة أو وسع الشقة على حساب البلكونة، فالحاج صارم في هذه المسائل ولا يأذن بها لأحد، ناهيك عن أن السطح ذاته ليس كأي سطح، فله عبق في أنف قناوي كعبق الأرض المحررة.

الحارة تمتد أمامه بانحناءة خفيفة عند المنتصف، ثم تعود إلى حالها الأول. يراها من أول دكان الفرارجي، حتى آخر بيت. بيت المليجي. بيت كبير في السن مبني بالحجر الدبش، وله بوابة كبوابات الدواوير. ورغم أنه ضئيل الحجم قياساً إلى عمارات في الحارة وصلت إلى الدور الخامس والسادس، إلا أن له مهابة في قلوب الناس، وتتاخمه قطعة أرض فضاء ليس معروفاً على وجه التحديد من هم أصحابها.

كثيراً ما راح وجاء بجوار هذه الأرض أو خاض فيها ليختصر الطريق، غير أنه لم ينتبه إلا الآن إلى أنها أشد اتساعاً مما كان يظن، وفي موقع ممتاز، تملك زمام الحارة تقريباً من ناحية الشرق.

ويشرد بعينيه..

ففجأة تلقي له الأرض الفضاء بومضة من ومضات السيناريو، يتلقاها بشغف ويقلبها في رأسه، ثم يعود ثانية إلى بيت المليجي.

obeikandi.com

سكان هذا البيت كلهم من نسل هذا الإنسان، ويقال في الحارة إنه كان فتوة من فتوات زمان، غير أنه لم يكن من الفتوات الكبار. كان مصنفاً على أنه فتوة من فتوات الدرجة الثانية، فباعُه كان محدوداً وأعوانه لا يزيدون على ثلاثة أو أربعة. فحارتنا في ذلك الوقت كانت حارة تافهة، لا تضاهي في حجمها أو وزنها الحارات الفطاحل كحارة الحسينية أو العطوف وشارع السد، كانت مجرد أرض تزرع بالكرنب واللفت والجرجير لخدمة البكوات والباشوات الذين يقطنون بشارع (الملك)، وشيئاً فشيئاً بدأت العشش، فبيوت من الطين، وأخيراً هذه العمارات البائسة.

لا ندري من أين جاءنا المليجي..

من ديروط، من أبنوب، من براري كفر الشيخ، العلم عند علام الغيوب. فهذا السر لم يفصح به بتاتاً لأحد، غير أن الشواهد تقول إنه ارتكب مصيبة في المكان الذي جاء منه، ثم لاذ بالغلابة الذين يعيشون هنا. أجاروه وخبئوه، وعندما اشتد ساعده أمسك لهم النبُّوت وفرض عليهم الإتاوات.

هذا هو ملخص حياتك يا مليجي في الدنيا التي عشتها، لكن معي سيكون لك شأن آخر، فضع في اعتبارك أنك من الآن فصاعداً ستكون الشخصية المحورية للسيناريو الذي أخطط له.

واعلم أيضاً أني أعرف عنك أشياء أخرى يا حضرة الفتوة،

فقد سمعت من عواجيز الحارة الذين عاصروك أن أيامك كانت سوداء، كنت جهماً كَشِراً حَلُّوفاً في تعاملاتك ولم تعمل عملاً صالحاً يتذكرك به أحد، أما من حيث الشفافية والذمة والضمير فحدث ولا حرج، القاصي والداني يعرف أن لك ملفات في الفساد لا تُحصى ولا تُعد.

والآن دعنا من تاريخك البائس وهذا الحال الذي كنت عليه، فالأمر معي سوف ينحو منحىً آخر، سوف أجعلك تفرح وتحزن وتعطي وتأخذ وتمكر وتناور وتتحسب وتخاف مثلما يتحسب ويخاف عباد الله أتباعك، والأهم من كل هذا سوف أجعلك تقدم للحارة خدمة عظيمة، بالمختصر المفيد سوف أضعك في كفي وألهو بك كيفما أشاء.

لا تبرطم ولا تجادل، فهذا هو الحال الذي ستكون عليه ولا خيار لك.

***

ينتبه قناوي إلى حركة خلفه..

كانت محاسن..

وجهها عابس وبيدها منفضة، وتئن من سطر الأكلمة التي تحملها فوق رأسها. تدع السطح كله وتقبل نحوه مباشرة. تلقي الأكلمة فوق الأرض إلا واحداً تفرده على السور، دون أن تحييه أو تنطق بكلمة.

يحتار في أمرها، أهذه آلية جديدة من آليات التحرش، أم

obeikandl.com

أنها تتهيأ للعراك معه بإيعاز من زغلول؟

يركبه العند، ولا يتزحزح من مكانه..

ذراعها التي تهوي على الكليم بالمنفضة كلها عضل، وكوعها أشد سواداً من هباب الحلة، ولا يزال وجهها عابساً. يسألها بأدب أن تبتعد عن المكان الذي يقف فيه، فتوقف الخبط وتقول له بحزم:

- أنا هفضل مطرحي، مش عاجباك وقفتي الدنيا واسعة ويللا اتفضل من هنا.

ثم تعاود الخبط وبعد أن تفرغ من تنظيف الكليم، تقول له ولكن بلين هذه المرة:

- عمارة الحاج عبد الرسول آهي قدامك هناك الناحية التانية، والشبابيك زي ما انت شايف مليانة ستات، يللا يللا روح اتفرج براحتك.

لا يفهم ما تقصده، فهل هو التحرش الذي توقعه أم هي إرهاصات العراك. وفي كل الأحوال كان يخشى من اختلائها به، ليس لأن الشيطان شاطر، فمن هذه الناحية هو مطمئن، فالشيطان ليس عبيطاً حتى يدخل هذه الباذنجانة في حساباته، ويعول عليها في الإيقاع بأحد. ليس الخوف من الإغواء وأن توقع به، فقد مضى هذا الزمن. هي الآن من فلول زغلول، والتحسب والحذر أصبح واجباً ولا تعامل معها إلا على هذا الأساس.

obeikandl.com

يقول في نفسه: يوم يمر، ولا أظنها سوف تأتي كل يوم بسجاد وأكلمة.

ويهبط قاصداً شقته..

***

obeikandl.com

(١٥)

السيناريو الذي استقر عليه قناوي، أحداثه تقع في حارة من حارات زمان. حارة ليست كحارات نجيب محفوظ طبعاً، فأين هو من هذا الأخطبوط! حارة (على القد)، فإن أصاب فلكل مجتهد نصيب، وإن خاب فأين هي المشكلة؟ الخيبة والفشل شيء تعود عليه، مثلما تعود على حلاقة الذقن وفك رباط الحذاء.

بيت المليجي والأرض الفضاء هما اللذان ألهماه بفكرة الحارة، لكن عليه أولاً أن يرى هذه الحارة بعينيه، طولها، عرضها، شكلها ومَنْ مِن سكانها سوف يتعامل معه. يراها من خلال ماكيت، رسم، من مجرد إسكتش صغير، المهم أنه يراها قبل أن يبدأ ويقول: بسم الله الرحمن الرحيم.

تذكر أن لديه رزمة من أفرُخ الورق البيضاء، ورق من

obeikandi.com

الورق المُقوَّى الذي يضعونه في براويز ويعلقونه على جدران المدارس والشركات. دخل بنصف جسده أسفل السرير، وأتى به هو وفرشاة وعدة قنانٍ من ألوان الماء.

أفرُخ الورق هذه عنده منذ سنة. كانوا يعرفون في الشركة أنه بارع في الخط، فاستدعاه حتاتة أفندي وسلمها له ومعها أمر ممهور من مدير شئون العاملين، بأن يخصص واحداً منها للهيكل التنظيمي للشركة، ويسجل في باقي الأفرُخ اختصاص كل إدارة وقسم. شددوا عليه يومها بالإسراع، وأدخلوه إلى المدير الذي سلم عليه يداً بيد وأثنى على انضباطه ودقته في العمل. كانت لحظة من اللحظات المؤثرة في حياته، فلم يسمع من قبل كلمة شكر واحدة من أي إنسان. ولم يكتفِ المدير، أصر على أن يضيفه بسيجارة ووعده بأنه إذا أتم هذه المهمة بنجاح، سوف يُدرج اسمه هذه السنة في كشف العلاوات التشجيعية.

تبسم عندما سمع كلمة العلاوة التشجيعية..

فهذا الشيء لا يعرفه أو توقع يوماً الحصول عليه. كانوا يتخطونه دائماً. الكل تقريباً حصل على هذه العلاوة إلا هو، عباس ودبور وفرغلي والشيخ عمارة حتى عم زكي الفراش، أما عنده فكانت تقف الأمور. المهم أنه استبشر خيراً وبدأ، غير أنهم لم يفتحوا معه هذا الموضوع مرة ثانية، ثم حدث ما حدث وبيعت الشركة فظلت الأفرُخ عنده

إلى اليوم.
ما الذي يفعله بها الآن؟
هل يذهب بها إلى مقر الشركة ويسلمها إلى الشيخ الرهوان مالكها الجديد، أم يخطف رجله بها إلى وزير الصناعة.

***

فرك يديه، ثم فرش فرْخ ورق وبدأ..

انحنى بالفرشاة ورسم سطراً من البيوت ناحية اليمين، بيوت من دور ودورين، بيت واحد فقط هو الذي رسمه من ثلاثة أدوار، وبكل دور شرفة عريضة من الخشب البغدادلي. اعتنى بهذا البيت بالذات. زخرفه بلمسات من الفرشاة، حتى أصبح أفخم بيت في الحارة. وعاد برأسه إلى الوراء متأملاً الرسم، ثم مال ووضع أسفل البيت وكالة للأقمشة، تعلوها لافتة مكتوب بها (الحاج رزق وولده شاهين - أقمشة وحرائر ومستلزمات الحريم)، فالحاج رزق هذا هو صاحب الوكالة والبيت، بل وشهبندر تجار الحارة.
ومَنْ هذه الصبية التي تطل من شرفة الدور الأول؟
(زينات) بنت الحاج رزق، لذيذة، عفريتة، وأردافها لا تزال تكبر وتستدير..
ألا من نسوة أخريات يتبصصن أو يتلصصن من فتحات المشربيات، أو امرأة ليس عندها حياء تقف فوق السطوح بقميص النوم؟

obeikandl.com

لا داعي. تكفي زينات الآن، ومن يدري فربما أعود إلى هذه التفصيلات لاحقاً..

وفي أسفل البيوت رسم عدة دكاكين، عطار، مَوَّان، علاف، إسكافي، صالون حلاقة، محل لبيع الحُصر والمشايات، ولا مانع من دكان منفصل لا يعلوه أي بناء، وليكن كواءً للطرابيش. ولا ننسى الإضاءة، فوانيس تضاء بالجاز ترشق في جدران البيوت، بيت الحاج رزق بالذات نضع أمامه فانوسين، ويكونان بحجم أكبر وعليهما لمسة زخرفة.

وما الرأي لو وضعنا زيراً أمام أحد البيوت، شيء تشرب منه السابلة لو أحست بالعطش. ولتكن لمسة إحسان من صاحب هذا البيت، أليس في الحارة أناس محسنون!

ها هو الزير وها هو الغطاء والكوز، وإلى هنا وكفى فالجانب الأيمن تقريباً اكتمل.

***

وبالفرشاة إلى يسار الفرخ..

نفس الشيء، بيوت ودكاكين ووكالة. ولتكن وكالة لعربات الكارو. لها مدخل معقول، لا ضيق ولا واسع، وحوش خلفي كبير. لن يظهر الحوش طبعاً في الرسم. ليس مهماً، اللافتة هي الأهم. ويتذكر زميله عباس: أهلاً بك يا عباس، أنت أنسب شخص لمعاشرة الحمير! وعقاباً لك على نذالتك معي

سوف أضع اسمك فوق اللافتة (وكالة عباس وولده عطا). وبجوار الوكالة (مكوجي رِجْل) للجلابيب والقفاطين، وتعريشة مسقوفة بجذوع النخيل لبيع القلل والأزيار وباقي أواني الفَخَّار، أمامها مقعد من القش يجلس عليه صاحبها الريس (دربالة)، ثم وكالة للأقمشة تنافس وكالة الحاج رزق، وليكن اسمها (وكالة الغرابلي). اسم مناسب. وبعد الغرابلي نضع مقهى، نسميها هي الأخرى (مقهى الحنش)، على اسم المعلم الحنش الذي طفحت عنده هذا الصباح كوباً من الشاي كله تفل، وليس هناك ما يمنع من رسم حنشنا (حنش السيناريو) وهو يقف أمام مقهاه. هذا هو الوجه، ثم الطول والعرض، وهذه هي اللبدة والملفعة، لكن كيف أرسم أسنانه الأمامية المذهبة؟ هذه صعبة، وستبدو في الرسم بمنظر كئيب. ورذالته ولسانه الطويل، هل من الممكن إظهارهما في الرسم؟ هذا أيضاً صعب!

وما بال أهل هذا الحارة، ألا يصلون؟

طبعاً يصلون، وأكيد تلزمهم زاوية و(ميضة)..

فإذاً بعد بيت أو بيتين نصمم لهم الزاوية، ولي غرض أن يكون معمارها بسيطاً، وحبذا لو شابَهُ بعض الهرجلة. فأثرياء الحارة لم يجدوا وسعاً يبنون فيه جامعاً على هواهم، وبالتالي لم يَرُقْ لهم هذا المكان المحشور بين الدكاكين والبيوت ولا أخرجوا له مليماً واحداً من جيوبهم. فهم يميلون

Obeikandl.com

إلى الجوامع لا الزوايا ويسمونها بأسمائهم، يفضلون الأشياء الكبيرة الظاهرة للعيان، الأشياء التي تجعل صيتهم على كل لسان، لا الأشياء الصغيرة المدفوسة التي تُلاحظ بصعوبة! الحاج رزق مثلاً بني جامعاً في بين الصورين وسماه باسم ولده شاهين، وأولاد الغرابلي ردوا عليه بواحد أكبر منه سمي هو الآخر باسمهم. أما هذه المسكينة فبنت عباد الله الغلابة الطيبين، فكل واحد منهم، شيال، خباز، فواعلي أو أجير في دكان، كان يجود بما في يده، عربة طوب، لوح خشب، علبة دهان، إبريق أو كوز ماء للمراحيض، حتى خرجت لنا على هذا النحو.

شيء لا هو مربع ولا مستطيل، أو تحكمه قاعدة من قواعد البناء والهندسة. والسقف بعروق خشبية تغطيها ألواح، بينها فجوات تكشف عما وراءها من شمس وقمر وسماء. وليس بها قبلة منحوتة في جدار، القبلة مرسومة على الحائط، إلى جوارها رف من الخشب مرصوص فوقه نسخ من القرآن الكريم. أما على الأرض فالحصير كله جديد وسليم، فالشيخ سلامة صاحب محل الحُصر والمشايات يجدد ما يتلف منه مع المولد النبوي الشريف كل عام. وعلى ناحية كومة من علب البوية وشكائر إسمنت وجير وسلم خشبي وفرشاة، أشياء أتى بها أحد المحسنين لاستكمال ما تبقى من أعمال النقاشة والدهان، هذا منذ مدة تزيد على الشهرين إلا أنه لم

obeikandi.com

يُنفذ منها شيء إلى الآن. وبجوار السلم كليم مطوي طيتين. كليم أتى مستعملاً من أحد البيوت، واحتاروا في أمره: هل يفردونه في مدخل الزاوية، أم يضعونه تحت أقدام من يؤم الصلاة؟ وإلى الآن لم يتوصلوا إلى قرار. و(الميضة) عدة نُقَر في الأرض بجانب كل نقرة طوبتان للجلوس، وإبريق ماء وكوز من الصفيح للتشطيف، وثمة أبواب تفصل بين النقرة والنقرة. أبواب لا معنى لها أو تحجب الكثير، تغطيها ألواح من الأبلكاش قَبَّ بعضها وانتفخ من طول ما شربت من ماء (الميضة) على مدار السنين. وفي الأعلى مئذنة شرعوا في بنائها بعدة مداميك من الطوب، غير أنها لم تُستكمل بعد لضيق ذات اليد.

والزاوية ليس بها شيخ معتمد من وزارة الأوقاف، ولا خصص لها أهل الحارة واحداً بأجر يمهرونه له كل شهر أو حتى كل عام، فتطوع لخدمتها رجل بلحية وشارب حليق اسمه الشيخ خميس. رجل ظاهره التقوى والصلاح أما باطنه فالله أعلم بما في النفوس، ويمتلك دكاناً لتأجير وإصلاح الدراجات. فالرجل يفتح الزاوية ويغلقها ويكنسها وينظفها، ويهش عنها المتنطعين الذين يودون جعلها فندقاً للنوم بين أوقات الصلاة، وفوق كل هذا يؤذن ويؤم الناس، وفي كتف الزاوية من اليسار دكان هذا الشيخ. دكان متر في مترين، تليه عدة بيوت كل واحد منها حجمه تقريباً بحجم

openkanda.com

علبة الدخان.

إلى هنا وكلامنا يجب أن يكون خافتاً وبأدب، فقد وصلنا إلى بيت الفتوة. آخر بيت في هذا الصف، وأمامه على الصف المقابل دكان كواء الطرابيش الذي رسمناه قبل قليل: لست محظوظاً يا أيها الكواء، ظلمتك بغير قصد عندما وضعتك وجهاً لوجه أمام الفتوة، فلا تعاتب ولا تَلُمْ، فبالله عليك ما الذي أفعله! لابد أن يكون للفتوة جيران، والمسألة جاءت فيك، حظك هكذا يا أخي والدنيا حظوظ.

لا تزال في الجانب الأيسر مساحة لم ترسم بعد..

هذا صحيح، وأنا منتبه لذلك منذ أن بدأت الرسم، وقد صنفت هذه المساحة على أنها أرض فضاء، ولكي أحدد معالمها سأضع علامة في شمالها وأخرى في الجنوب، ومثلهما في الشرق والغرب.

نأتي الآن إلى الطريق الذي يفصل بين الجانبين. طريق نحيل. شيء طويل رفيع كما الثعبان. فلم يعرفوا وقتها لا اللوريات ولا الترِلاَّت أو سمعوا عن شيء اسمه الحافلات. كانوا يكتفون بسكة مدقوقة بالحصى والدقشوم، لمرور البشر والدواب وعربات الكارو أو الحنطور. مجرد سكة، لكنها سكة معقولة. وإذا شاء صبية الحارة أن يلعبوا فيها، فما المانع؟ يلعبوا..

ها هي السكة، معتدلة أول الأمر، ثم انحناءة خفيفة إلى

Obeikandl.com

اليسار تعود بعدها إلى حالها الأول، والرسم بذلك وكما أظن وأعتقد يكون قد اكتمل..

لا تظن ولا تعتقد، فالرسم لم يكتمل بعد. ينقصه شيء مهم. تنقصه خرابة، خرابة طويلة عريضة تتمدد وراء الحارة. ليس خرابة واحدة، بل خمس أو ست خرابات على الأقل. خرابة تأوي الفواعلية وأصحاب المهن الوضيعة، والثانية ومن أولها لآخرها مغلقة على من يعملون في كار النفايات، والثالثة للشحاذين و(القراداتية) والمتخصصين في الأشياء المضروبة، وخرابة كل قاطنيها بصغيرهم وكبيرهم وحريمهم ورجالهم من النَّوَر وأرباب السوابق..

معقول، فكرة في محلها، فالخرابات شيء لا غنى عنه. وبذا يكون الرسم فعلاً قد اكتمل. حارة جانبها الأيمن يمتد بالبيوت والدكاكين، حتى يتقاطع مع حارة أولاد هارون. والجانب الأيسر بعد ثلثيه يتوقف العمران وتبدأ الأرض الفضاء، ثم ندخل ثانية في زمام أولاد هارون. والخرابات الحمد لله أنها كانت في البال ولم نَنْسَها.

والآن بماذا نسمي هذه الحارة؟

نسميها، نسميها، نسميها على اسم فتوتنا القديم (حارة المليجي)..

***

(١٦)

أنت الفتوة إذاً يا مليجي..

تعرف أني مشتاق للقائك، فخذ خطوة إلى الأمام لو سمحت، ودعني أتأمل وجهك وأرى طولك وعرضك..

لا تمكر أو تداري نفسك، فخط سيرك عندي بالحرف: فأنت إما نائم حتى آذان الظهر أو في جولة بالحارة، ومن بعد العصر فوق الدكة التي أمام بيتك، وتجيئك المشاريب من مقهى الحنش. هذه هي الإتاوة التي فرضتها عليه. شاي، قهوة، عِنَّاب، خَرُّوب، والشِّيشة طبعاً، حلالاً زلالاً لك أنت ورجالك، متى حللت وشرفت المقهى أو آثرت الجلوس على الدكة.

رجالك في ركابك أينما ذهبت فيما عدا (الدكروري)، فأنا لا أراه معك كثيراً. دائماً مشغول. موضع ثقتك وفي

obeikandi.com

ترتيب الأقدمية هو الذي بعدك، ولا تكلفه إلا بأهم الأعمال. فهو المتحدث باسمك عند عقد الاتفاقات أو في قعدات الصلح، وهو المسئول عن الضبط والربط في الحارة، كما أنه الوحيد الذي يجمع الإتاوات من الأسماء الكبيرة. أولاد الغرابلي والحاج رزق والمعلم عباس أو المعلم ياسين. فلا شأن له بالتفاهات التي يدفعها أصحاب المِشنَّات، أو من يقفون بعربات اليد أو غيرهم من الهلافيت التي تتنطع في السوق، فكل هذا من اختصاص رجلك الثاني (غراب).

ليس هذا فقط الذي أوكلته لغراب، أسندت له أيضاً حقيبة متعبة، حقيبة النَّوَر وأرباب السوابق الذين يقطنون بخرابة (عكاشة)، فهم في الأساس أبناء جلدته، أمه كانت منهم وأخته أيضاً تزوجت منهم، ناهيك عما يقال بأن له فيهم أخاً في الرضاع. بالتالي وكما قدرت وحسبتها في رأسك هو أنسب واحد في رجالك لحل مشاكلهم الكثيرة، وأي شيء يخطفونه من أهل الحارة هو مسئول بأن يأتيك به في ظرف نصف ساعة. فهذا هو الشرط الذي اشترطته عليه وإلا يدعك ويبحث له عن وظيفة في مطرح آخر، فإلا أهل الحارة، هذا أمر لا تتسامح فيه، أما خارج الحارة فهم وشأنهم، يخطفون يسرقون يلطشون هذا شيء يخصهم.

وبالنسبة لمن تبقى من رجالك المقربين، أي (البغل) و (سماحة)، فهما يلازمانك أغلب الوقت، تحركاتهما

محسوبة بالورقة والقلم وليست لهما حرية الحركة المتاحة للدكروري وغراب. ولكل شيء سبب، فبخصوص سماحة وعلى حد علمي واستنتاجي تريده إلى جوارك، يتعلم منك ويفهم الكار، فأنت تنظر إليه على أنه خليفتك. ليس الآن طبعاً، بعد عمر طويل، بعد سنين وسنين فأنت لا تزال بصحتك. فالأمر وكما أتصور أنك تحبه لله في لله، ربما لحداثة سنه ونقاء سريرته، وربما للشبه الذي بينه وبين ابنك (سعيد)، أو لأنه (ابن ناس) فهو ليس عربجياً كالبغل، ولا ابن ليل كغراب، أو (شمحطجي) مثل الدكروري، فأبوه صاحب صنعة وكان له بيت ودكان، الزمن هو الذي مرمغ أنفه في التراب وشتت أولاده كل واحد في ناحية.

المهم أن قلبك مال إليه، وعندما يميل القلب لا جدوى من الخوض في الأسباب. وها أنت ترعاه أفضل رعاية كما لو أنه ابنك سعيد الذي جاء من ظهرك وصلبك، تريده أن يبدأ هذا الكار من أول سلمة، يعرف الصغيرة قبل الكبيرة، وقد بدأت معه فعلاً بالأعمال الخفيفة، تأديب الصبية الذين يتحرشون بالنسوة أو يحدثون غاغة في الشارع، مرسالاً يأتيك بأي نفر في الحارة، يعسُّ ويجيئك بالأخبار. وقد طاف في بالك مرات كثيرة أن تزوجه ابنتك (حسنات)، غير أنك لم تقطع برأي نهائي في هذه المسألة، لا تزال تقلبها في رأسك وترجئها لوقتها.

البغل هو مشكلة المشكلات. تقريباً حلوف! فليس له في السياسة واللطف والكياسة، يده كالمرزبة ولا يفهم إلا في العراك، ولهذا لم تسند إليه أية حقيبة من حقائب الناس. أبقيته إلى جوارك كي لا يشطح وينطح ويسيء لك بأفعاله. تعاملت معه مثلما يتعامل رجال الجيش مع الدبابة، لا يحركونها إلا إذا كانت هناك معركة وبعدها تسكت وتلزم مكانها.

ومنذ أول يوم لك يا مليجي في الفتونة، وضعت لرجالك نظاماً لا يحيدون عنه. فالكلمة كلمتك والفعل فعلك ولا شيء إلا برضاك، فهم الجوقة وأنت القائد، وليس أي قائد، قائد لا يطيق العزف المنفرد أو يقبل مطلقاً أي نشاز.

وحذارِ ألف حذارِ، أن يمد أحد منهم يده ويأخذ سحتوتاً من أي بني آدم في الحارة. وحسابه معك عسير من ينشئ علاقة من وراء ظهرك، خاصة مع أصحاب الدكاكين، أو يتمحك في فلانة أو علانة ويلطش منها إوزة أو بطة، أو يقبل حلة طبيخ أو جوال دقيق أو حتى تلقيمة شاي. ففي الإتاوة ما يكفي الجميع، تملأ منها بطنك أولاً، وتخزن للزمن ثانياً، وما يتبقى توزعه على رجالك كلّ بحسب أقدميته وإخلاصه وعدد من يعوله في بيته. فضلالك يا مليجي من نوع فريد، تحاسب رجالك حساب الملكين أما مع نفسك فالمسألة بنت وقتها، فأحياناً تفتحها (على البحري) وأحياناً تستحي

وتتعفف.

وما شاء الله لك شَنَّة ورَنَّة في الحارة، ولطلتك على الناس مهابة. مهابة صنعتها ونفختها وكبرتها على مدار السنين. ليس فقط بسبب النبوت الذي في يدك، بل وبلطفك مع الصغير والكبير، ولشهامة لا تزال فيك، شهامة تروح وتجيء، وعندما تجيء تصبح منصفاً للمظلوم وأباً لليتيم وعائلاً للأرملة، حتى إنك تبدو في أعين الناس كما لو أنك وليّ من أولياء الله الصالحين أو حتى (الفاروق عمر) ذاته. وإن غابت عنك الشهامة، فلا حافظ منك ومن إجرامك إلا لطف الله. على أية حال وللإنصاف، فإنك لا تبدأ عادة بالغلط أو تلجأ إلى قلة الأدب والبذاءات، ولا سمعنا أنك هويت فوق ظهر أحد بنبوتٍ أو خيزرانة إلا لضرورة وبغرض التأديب ليس إلا، ولتذكرة الأنطاع والمشاغبين بأن الحارة ليست سَدَاحاً مَدَاحاً والفتوة (حسه في الدنيا) ولا يزال حياً يرزق. فهذه هي الحسبة التي أفهمك إياها (العم مفتاح)، يوم أن تسلمت عرش الفتونة..

أفهمك أن التلويح بالعصا يجعلك فوق الناس، واللطف معهم يجعلك منهم، وهكذا تملك زمام الأمور. تبدو للناس وكأنك منهم، وفي واقع الحال أنت سيدهم. أما الضرب بالعصا فعلامة ضعف لا قوة، وقد تنكسر منك فتضيع أنت ورجالك، وإن لم تَضِعْ فلن تجني منها إلا الحزازات.

هذه هي السياسة التي سرت عليها يا مليجي. تجعل العصا معلقة في الهواء لتبدو وكأنك ستهوي بها في الصغيرة قبل الكبيرة، وأنت لن تهوي بها إطلاقاً إلا إذا خرج الأمر من يدك ولم يعد أمامك حلّ إلا ذلك، وهكذا سُسْتَ الحارة عِقداً بأكمله.

وفي المسائل البروتوكولية تعليماتك واضحة، إذا كنت في جولة فرجالك وراءك بخطوة ونصف، باستثناء الدكروري الذي يمكن أن يحاذيك. وإن جلسوا حولك عند الحنش يجلسوا باحترام، فلا مزاح ولا تباسط أو كلمة زائدة. يفعلون ما يحلو لهم بعدها، طالما ليس في وجودك. أما لو كنت تجلس فوق الدكة التي أمام بيتك، فالانضباط ساعتها يكون في أقصى درجاته. فنحن هنا في دار الحكم والأدب أمر واجب، حتى إنك لا تسمح بالسعلة لو سعلها أحد من رجالك إلا إذا كان لها مقتضى.

العم مفتاح هو الاستثناء..

فتوة قديم. قديم جداً. تقاعد منذ ما يربو على الخمسين سنة. بلغ من العمر أرذله ولا يزال صاحياً. تضاريس وجهه عصية على الوصف، فالكرمشة والنتوءات والأخاديد لا يستطيع أحد أن يوفيها حقها مهما اجتهد. وكذلك جسده، رخو، لين، وعظامه هشة كألواح البسكويت. تستطيع أن تثنيه وتفرده مثلما تفعل مع جلبابك، وإن شئت أن تكوره

وتصره في منديل فهذا أيضاً متاح. مخه هو بيت القصيد. يزن بلداً. يلف ويدور ويحاور ويناور، يبتلعك ويهضمك ويتجشؤك يا أخ مليجي أنت وعشرة من أمثالك، كما لو أنكم أوراق خسٍّ أو أعواد جرجير. هذا الذي أتصوره، إلا إذا أثبتَّ لي عكس ما أقول.

في زمنه كانت الحارة تمشي على الصراط، كما أن له مآثر لا تُنسى، فقد استمات هذا العجوز للدفاع عن الحارة حتى فقد عينه اليمنى في غزوة لأولاد هارون. أولاد هارون الذئاب الملاعين الذين سوف تأتي سيرتهم لاحقاً. الحارة تجِلُّه لهذا السبب، وأنت أولهم. ومن باب الأدب لا تخاطبه إلا قائلاً: يا عم مفتاح. ورغم ذلك فإن حاسديه يلقبونه بالأعور، ومنهم من يزيد.

لم تنطق أنت أبداً ببذاءة من هذه البذاءات، لا أمامه ولا من ورائه، وتزجر من يتفوه بها، بل اتخذته مستشاراً وتعطيه نصيبه من الإتاوة إكراماً للأيام القديمة، وهذه مروءة منك سوف أدرجها حالاً في سجلك.

***

بيتك يا مليجي لا يبعد سوى رمية حصى عن الأرض الفضاء، أعرفه مثلما أعرف كف يدي. بناية من دور واحد تحصلت عليها بعد أن صرت الفتوة، وكان هذا أول إجرامك. هجرت العشة التي كنت تسكن بها في خرابة (عبد

السِّيد) التي تقع في كتف الحارة، وقايضت الحاج بكري تاجر الغلال على هذا البيت بجحش كنت تملكه أيام فقرك، أعطيته الجحش وفوقه ثلاثة جنيهات، عُشر الثمن تقريباً!
قلت لسماحة: الجحش مربوط في الخرابة، فُكه وسلمه للمشتري وخذ منه مفتاح البيت.

والرجل يتأملك أنت والنبوت الراقد في حجرك، وأنت تقول: أما الجنيهات يا حاج بكري فسوف أدفعها لك بالتقسيط، كل شهر ربع جنيه!
فهكذا حكمت وقررت ووقع الإيجاب والقبول..

ودفعت أول شهر والثاني ثم توقفت، واستعوض هو الله واعتبر ما حدث قضاء وقدراً وابتلاء من ابتلاءات الزمان.
أما عن الجحش فالكل يعرف أن سمعته بطالة وداءه الاستعباط، وطالما حكوا في الحارة بأنه إذا طلب منه راكبه مثلاً أن يتوقف، كان يدعي الطَّرش ويظل ماشياً. وإذا نخسه بالعصا كي يسرع الخُطَى، يؤوِّلها على أنه يريد اللعب معه وأول اللعب أن يلقيه من فوق ظهره، فيفعلها ويظل واقفاً حتى يمتطيه ليلقيه هو من جديد. ومن سوءاته أيضاً أنه لم يصل بحمولة أبداً في ميعادها، ولا احترم صاحبه، وفي الزريبة بالليل يبدأ في فرض سطوته ورفس الحمير بغير سبب.

يعرف الحاج بكري كل هذا، وأنه جحش عديم الضمير

وأصوله وضيعة، وإذا قوَّمناه بسعر السوق لن يزيد ثمنه عن ثمن بطة أو دجاجة، فمن يشتري هذا الوَسِخ!
يعرف إلا أنه قبل بهذا الاتفاق ليتقي شرك. صحيح أنه لا يسكن في الحارة، بيته في فم الخليج، لكن مصالحه هنا، وبإشارة من إصبعك تجعله أمثولة. فسلم أمره لله وسحب الجحش، مشى يغمغم ويسب الدين لك ولنفسه وللدنيا كلها، وما إن خرج من زمام الحارة حتى احتار فيما يفعله بهذا المجرم! لم تَدُمْ حيرته طويلاً، أطلقه في الشارع هو والبردعة التي عليه، أطلقه وهو الكسبان!

***

البيت الذي نهبته يا حضرة الفتوة، (مندرة) وثلاث غرف.. الغرفة البحرية لسِتِّ الدار أُم عيالك، زوجتك (إنصاف) التي عقدت عليها أول شبابك، قبل أن تدخل عالم الفتونة. عندما كنت سمكرياً لبوابير الجاز، وتقبل يدك (وجه وظهر) لو تحصلت في اليوم على (شلن). والثانية لبناتك. الصبيان ينامون في أي مطرح. في المدخل، في غرفة الخزين، فوق السطح، لا فرق، المهم أن يكونوا بعيدين عن البنات في هذه السن الحرجة. فأنت صارم في هذه المسائل، وطالما صرحت في جلساتك بأن هذا هو حكم الشرع، وياليت كل واحد في الحارة يقتدي بك. وهذه إحدى نقاطك المضيئة، ولن أغفل عن تسجيلها في ملفك كأختها التي سبقت.

ومجاملة مني لك لن أبوح مطلقاً لزوجتك إنصاف عما يدور بذهنك، إلا إذا اضطرتني الظروف يا بطل. فأنت يا لئيم تفكر في الزواج من زينات بنت الحاج رزق، غير أنك لم تعزم بعد ولا تزال تحسبها بميزان الربح والخسارة. هذه هي المعلومات التي عندي، صدق أم كذب، الله أعلم! الأيام هي التي سوف تكشف لنا الحقيقة.

الغرفة الثالثة أنا وأنت نعرف ما بها، أجولة دقيق تكفيك أنت والزمان، كراتين صابون هدية من المعلم ياسين، أقمشة ومستلزمات من طرف الحاج رزق، وأشياء أخرى لا تُحصى ولا تُعد وكلها سُحْت في سحت. أما في فناء البيت فتوجد عنزة وثلاث بطات ودجاجة بياضة، كانوا تائهين في الحارة وليس لهم صاحب، فزافهم سماحة أمامه وأدخلهم الفناء، فالعرف يقول: إنك صاحب من لا صاحب له، فهنيئاً مريئاً لك أنت وعيالك!

***

obeikandl.com

(١٧)

ساعة وأنا أتسكع أمام دكان كَوَّاء الطرابيش، مترقباً قدومك يا مليجي..

لست وحدي، العم مفتاح ينتظرك هو الآخر. الرجل يجلس فوق الدكة التي أمام بيتك، ساقه مطوية بين ثنايا الجلباب والساق الأخرى تتدلى ملفتة بضمورها ونحافتها، وبين شفتيه سيجارة يشعلها باستعجال ليفرغ تماماً من التدخين قبل حضورك.

ومن هؤلاء؟

رجالك يا مليجي. ينتظرونك وهم وقوف، حتى في غيابك لا يتجاسرون على الجلوس فوق الدكة. غراب يتكأ بظهره إلى الحائط ومعه البغل، والشبل سماحة انتحى جانباً برجل دخل في الزمرة مؤخراً اسمه (لملوم)، أما الدكروري وكالعادة

obeikandl.com

في مشوار من مشاويره.
أخيراً ظهرت..

سعلت سعلتك المشهورة ودلفت خارجاً من باب البيت، وأنت لا تدري بالمفاجأة التي أعددتها لك، فأنا وسواءً قبلت أو لم تقبل سأحل عليك ضيفاً، ضيفاً ثقيلاً يلازمك ليل نهار. أراك وأكلمك وتغمرك أنفاسي بل لن أتوانى عن العبث في رأسك من الداخل، وكل هذا دون أن تراني، فلن تستدل عليَّ أبداً يا بطل إلا بإحساسك.

جلبابك صوف إنجليزي بياقة قصيرة. اشتريت القماش من محل (عوف) بالغورية، والتفصيل عند أشهر حائك في بر مصر، (المنزلاوي) الذي لا يعرف بابه سوى العُمُد والمشايخ وأولاد البلد الفطاحل. يعرف طلباتك. الزراير صدف أصلي، والقِطَان غرزته حرير وهو هو لون القماش، أما زَمَّة الباط فأوسع قليلاً من المعتاد كي لا تعوق حركتك إذا اضطررت فجأة لاستعمال النبوت وأنت في هذه الهيئة. صحيح أنه جلباب للمنظرة و(الفنطزية) لكن من يدري؟ فقد يباغتك أمر ما ولا بد من الحيطة. والشال الذي يلف كتفك مغزول في مقاطعة كشمير، تفضل هذه الأنواع فصوفها ناعم والرسومات التي عليها أصلية. وفي إصبعك الخنصر خاتم بفص كعين الكتكوت، ومن فرط الدلال أملته خفيفاً إلى اليسار، أما الطاقية فوحدها حكاية. ليست كأي طاقية. طاقية

من وبر الجمل الثمين الغالي، فحضرة الفتوة لا يُبارى أبداً في الأناقة والغندرة. لا أدري إن كان هذا طبعاً فيك، أم هي عقدة من أيام أن كنت تسلِّك بوابير الجاز وتشتهي (هدمة) نظيفة.

المرجح أنها عقدة ..

وها هو ابنك سعيد يلحق بك ..

تشيح له بأن يدعك الآن، لا تحب أن يشاركك قعدات الفتونة والقيل والقال ومشكلات الحارة.

تطمع في أن يكون تاجر مانيفاتورة، صاحب فراشة، عطارة، علافة، صاحب أي شيء! أو ليته دخل المدرسة وأخذ شهادة، لكان الآن أفندياً في المحافظة أو المحكمة أو المدرسة الإلزامي، وتراه كل يوم بالحُلة والطربوش، أي شيء إلا الفتونة ووجع الرأس، فأنت تعشق أولادك ولا تريد لهم إلا راحة البال والبغددة. فكلمتك المأثورة التي طالما صدعت بها رؤوسنا: ملعونة الفتونة! أولها حلو وآخرها مُرّ وأوسطها تعب قلب وبهدلة، ويكفي بيت المليجي أن واحداً منهم تحمل وزرها.

***

العم مفتاح ومثلما تعود كلما التقاك، يُخْرج من سيالته علبة تُمْباك ودفتر ورق من أوراق البَفْرة. يسحب منه ورقة يحشوها بالتبغ ثم يشذبها برفق ويقدمها لك، فتقبلها راضياً

obeikandi.com

وتبدأ في التدخين.

تهفو نفسه إلى الدخان هو الآخر، وبالذات في هذه الدقيقة.. يعرف أن هذا الشيء محرم عليه، فممنوع في حضرة الفتوة أن يضع أي إنسان بين أصابعه سيجارة. مسألة من مسائل البروتوكول. بدعة فرضتها على الحارة. وهذا الأمر يضايقه، يضايقه فعلاً ويشعره بالضآلة. فهو ليس أي واحد في الحارة، لا هو (زاهر) الحلاق ولا (سبعاوي) الإسكافي أو حتى الحاج رزق أو المعلم عباس، هو أكبر من كل هؤلاء. كما أن جلساتكما تطول بالساعة والساعتين، وأحياناً ما تمتد من بعد العصر حتى صلاة العشاء. وهو مأزوم. عُمْر وهو يدخن. من أول ما تسلم الخديو توفيق حكم مصر وحتى أيام الملك فؤاد، وعلبة الدخان لا تفارق جيبه. دخن مع فتوات في عمر أبيك وربما في عمر جدك، ومع أعيان ووجهاء، وفي حضرة المأمور ورئيس المباحث، وتجيء أنت يا فسل وتحرمها عليه!

مرات عديدة وهو يحاول لفت نظرك وأنت لست هنا، أن يفعلها أمامك وأنت تردعه. ليس بالكلام. بنظرة من العين. يكرهك يا مليجي. والله يكرهك. فالذي تحسبه أنت عرفاً وتقليداً يؤوله هو على أنه قهر وكسرة نفس، والقهر إذا طال واستمر ولد الرغبات المكبوتة، ثم والعياذ بالله العقدة ومرض النفس، فتصور معي كيف حال رجل في التسعين

مصاب بعقدة نفسية! وأنت لا تفهم، وهو يحاول ولا تزال أحباله طويلة، يدع علبة الدخان مفتوحة أمامه، لعل وعسى.. يمد يده إلى ورقة بَفْرة وعيناه عليك، فمن يدري؟ لعلك تسمح، وأنت تلحظ وتميل بعنقك مثبتاً عينيك على ما يفعل. نفس النظرة التي يحذر منها، فيؤثر السلامة ويواري علبة التُّمباك في سيالته هي ودفتر الورق. وتنشغل أنت عنه يا مليجي. تشد الأنفاس وبصرك ممدود إلى الأمام، إلى صف الدكاكين الذي في مواجهتك، دكان كواء الطرابيش تحديداً. لست مرتاحاً..

لك حق، فلن ترتاح أبداً طالما تشعر بأني أخايلك. تتذكر النبوت، فترسل في طلبه. لا تزال مشغولاً. قلبك يحلف لك بالله والرسول بأن أحداً يترصدك. يعد عليك أنفاسك. وتدفعك الغريزة إلى النظر حيث أقف، ويوسوس لك قلبك بأني هناك أمامك، فتصدق، ولوهلة يُخيل إليك أنك لمحتني. وتزم حاجبيك وتدقق، لتتأكد من أني فعلاً أمامك، غير أنك لا تصل إلى نتيجة، فقد راحت عن حواسك الغمامة وكل الذي رأيته امرأة تحمل في يدها ثمرة كرنب، وعلى بعد خطوات منها رجل يحمل فوق كتفه زكيبة. وتعاود وأيضاً بلا نتيجة، فليس من أثر لأحد غيرهما أمامك، فتقلب كفك مستعيذاً من شر الوسواس الخناس وأنا من موضعي أرمقك وأبتسم.

Obeikandi.com

برهة وجاءوك بالنبوت..

نبوت مهول. تسميه (عَيُّوشة)، على اسم جدتك لأبيك التي كنت تفعل كل فعلة في الصغر وتلبد في حجرها. له مقبض من جلد الغزال، كي لا يفلت من قبضتك في ساعة الوغى. ولمعة. فكل يوم تمرر عليه خرقة مبللة بالزيت. وعلى خلاف رجالك لم تدق فيه مسماراً، أو لففت رأسه بحلقة من الحديد لإحداث العاهات في خصومك. تركته (على عَبَله). اكتفيت بالخلقة التي خلقه عليها الله. فهو في حد ذاته مصيبة، وبه وبعون الله تستطيع مجابهة رزمة من الرجال. جسدك متين، رسغك قوي، ونبرة صوتك فيها حلاوة. ولو عشت زمننا واحترفت الطرب، لكان صوتك في عذوبة صوت (محمد عبد المطلب). وجهك هو المشكلة. يذكّرني بوجه زغلول. زغلول بواب عمارتنا الذي خرج إلى الدنيا بعدك بسنين طويلة، فبينك وبينه على الأقل خمسون أو ستون سنة. فأنتما تقريباً الخالق الناطق، لكما نفس التقاطيع، والحاجب الكثيف، ونفس الشارب، والأنف المفلطح، والشعيرات التي تخرج من فتحة الأذن هي هي باللون والسمك والعدد. أكاد أجزم بأن زغلولاً من نسلك، من حلال من حرام هو أحد أحفادك!

لا تغضب أو تجادل أو حتى تتأفف، فهكذا أراك وليس لك خيار آخر. لكني أخشى أن تظن بأن بي هوىً، أو اتخذت

منك موقفاً لأنك عكشت الحارة مثلما عكش هو السطح.
أنا إنسان محايد، ولو تعاملنا بالعقل والمنطق وبلا أية حساسيات لتأكدت من ذلك.

***

obeikandl.com

(١٨)

مضى أسبوع وقناوي ليس على ما يُرام، المليجي هو السبب..

كان في حسبان قناوي أن المليجي شخصية طيعة، عجينة يشكلها كيفما يشاء، وكلما لاح في خياله ستهبط عليه الأفكار كالمطر، وشهر في الثاني ويكتمل السيناريو ويخرج للناس في مسلسل يُعرض على جميع الشاشات.

لم يحدث شيء من هذا للأسف، هي المشاهد القليلة التي ذكرناها وتوقف المليجي بعدها عن تقديم أي جديد. إنسان كسول، متعب، لا يعطي ما عنده بسهولة. التمس له قناوي عشرات الأعذار وأعطاه أكثر من فرصة، حتى ضاق به ولعن خاشه هو وجدته عيوشة.

تجاوزنا منتصف الليل تقريباً..

obeikandi.com

الوقت متأخر كما أن في الجو لسعة برد، ورغم ذلك صمم قناوي على الخروج والترويح عن نفسه، وإلا انفجر في المليجي وكرشه نهائياً من السيناريو. ارتدى ملابسه وخرج، الشرز والبنطال والقميص وفات عليه لبس الحذاء، خرج بالشبشب الزنوبة.

الحركة في الشارع قليلة، وقبل أن يعرِّج إلى مقهى الحنش صادفته محاسن أخت زغلول. لم يستطع الإفلات منها، استوقفته.

تثبت بأصابعها السَّبَت الذي فوق رأسها، وهي تسأله عن أحواله، وأين هو وأين هي أراضيه؟

لا يرد، وتروح عيناه إلى السَّبَت فيجده مملوءاً بثمار اللفت، فيغمغم سائلاً نفسه: لفت! وفي هذه الساعة، من أي بطن ولدت هذه الإنسانة؟!

تلحظ مسار عينيه وتقول: ما رأيك لو خللت لك برطماناً؟ اللفت جميل وفاتح للشهية.

فيشيح بيده، بأنه ممنوع من هذه الأشياء.

تقترب منه نصف خطوة، فيرجع خطوتين للوراء وعيناه على ثمرة تبرز من حافة السَّبَت، حذراً من أن تسقط عليه.

تقول: لم تعد تسأل، فهل نسيتني؟ نسيت محاسن!

يعض على شفته وعيناه ترنوان نحو باب المقهى، فتسأله: هل ستدخل عند الحنش؟

يومئ برأسه بأن نعم، فتقول: ما رأيك لو غيرت فكرك وتمشينا معاً، (لفة) حتى محل العصير ثم نعود؟
وتشجعه: لن نتأخر، (شوب) قصب على السريع أو نأكل فطيرة عند عم سعد.

يتأملها باستغراب، فتفسر الأمر على أن الفكرة أعجبته غير أنه لم يحسم أمره بعد، فربما يخشى أن يراهما زغلول معاً، فتقوي قلبه وتطمئنه: وإن كان على زغلول فلا تشغل بالك به، لن يشعر ولن يحس فهو الآن في (سابع نومة).

أفضل رد على هذا العرض الذي تعرضه عليه أن يناولها صفعة تعلمها الأدب، وطبعاً لم يجرؤ، انسحب من أمامها دون تعليق. ثقيلة. مملة. هل معقول أنها بهيمة إلى هذا الحد، ولا تزال تأمل في أن تدخل معه في علاقة. وعلى فرض أنه فقد عقله ووافق، فهل كانا يتمشيان هكذا في أنصاص الليل وفوق رأسها كل هذا اللفت!
السيناريو ولا شك في حاجة إلى هذا النموذج، إلى شخصية بهذه المواصفات تحيل حياة المليجي إلى جحيم.

لن تفلت منه، فهل هي أفضل من الحنش أو من صاحبه عباس! فالحنش ومنذ أول مشهد في السيناريو أصبح عيناً من أعيان حارة المليجي، وله فيها الآن وبكل فخر مقهى أحسن ألف مرة من مقهاه التي هنا. عباس هو الآخر سار في نفس الطريق، فبعد أن كان مجرد رجل تافه يتصعلك

في الشوارع بلا وظيفة ولا هدف تسلم وكالة محترمة للكارو والحمير، وها هما ينعمان بصحبة المليجي ويعيشان حياتهما بالطول والعرض.

فلماذا لا تنضم إليهما محاسن؟

ما (الميزة) التي في إنصاف وليست في محاسن، كي يختارها زوجة للمليجي؟

لا مزية ولا فرق..

فالاثنتان طبع واحد ودم واحد ولهما نفس المنخار والضَبّ، ولا داعي للخوض في القوام والتقاطيع أو في الكياسة ورجاحة العقل، فالتفاصيل مؤسفة والكلام فيها كلام مخجل. وطالما الأمر كذلك وكل واحدة منهما صورة طبق الأصل من الثانية، فما الداعي لبقاء إنصاف معنا؟ نركلها ركلاً من السيناريو وتحل محلها محاسن. تصبح زوجه للفتوة ويرتاح منها هو، وإذا عكننت عليه مرة على السلم أو في الشارع مثلما فعلت الآن، يرد لها قناوي الصاع صاعين في السيناريو: فأهلاً بك معنا يا أخت زغلول، ولكن بشرط أن تُدْخلي المليجي كل يوم في متاهة، وحبذا لو جَعَلْتِه يكره عيشته. ويعلم الله أننا لا نتجنى عليه أو نصفي معه أية حسابات، الدراما هي السبب ولها الكلمة الأولى في رسم وتحريك الشخصيات، وبالنسبة للاسم لا مشكلة فيه، نستبدله، نرفع اسم إنصاف ونضع بدلاً منه محاسن، خاصة

obeikandi.com

أنه اسم غير مناسب، اسم لا يليق بزوجة فتوة، فهل سمع أحد عن فتوة يعرف الإنصاف.

***

المقهى لا تزال ساهرة، لا تنام إلا قرب الفجر، والحنش مال برأسه ودخل في غفوة.

ستة أو سبعة رجال فقط هم كل الزبائن، وكلهم عواجيز، وبعد أن دخل قناوي أقبل عجوز آخر يعطس ويكح كل دقيقة، ومن المتوقع أيضاً قدوم آخرين. زبائن آخر الليل. نوع مختلف عن بقية الناس. نماذج توقفت عن العطاء، معاشات، على واحد لا عمل له في الحياة إلا حل الكلمات المتقاطعة، وعم (عطية) الذي شمعوا دكانه بالشمع الأحمر بأمر من المحكمة، وهذا الأستاذ الذي يرتدي نظارة وبيريه ويحسب نفسه (توفيق الحكيم)، وكلهم ودون استثناء عفاريت في لعب الطاولة وشرب الشِّيشة.

لم يجرب الشِّيشة من قبل، طلبها هذه المرة على سبيل التغيير. نَفَس والثاني وأخذ يقلب المبسم بين يديه. لم يتعود عليه كما أن الشِّيشة ذاتها مربكة، حجر وجمر وكركرة، السيجارة أرحم! يدخنها في أي وقت، ودون حاجة إلى تجهيز واستعدادات.

الجو هادئ في المقهى، فرق كبير بين الحال الذي هي عليه الآن وحالها أول السهرة، فلا غاغة ولا زيطة وها هو

أبو نظارة وبيريه قد دفع الحساب وخرج، وفي نفس الدقيقة أقبل أربعة رجال دفعة واحدة. أعور يلف رأسه بكوفية، والباقون بالعمة والكاكولة وعلى أعينهم نظارات سود. شيوخ عميان ممن يقرءُون في المآتم البسيطة، والأعور هو السمسار. يبدو أنه معروف هنا. رحب به (شحاتة) عامل المقهى وبذيل المريلة وبسرعة نظف لهم سطح الطاولة، وفي ثانية أو ربما أقل أحضر المشاريب. كل هذا والحنش لا يزال منهمكاً في النوم، وقناوي هناك وراء طاولته المفضلة يشد الأنفاس باستمتاع، فبعد أن أنهى أول حجر ودخل في الثاني بدأ يألف الشِّيشة. الجديد الذي طرأ عليه أن عيناه كانتا في وضع ساكن، وعلى وجهه بعض التجهم والتركيز. وضعه كان محيراً فهل يا تُرى كان شارداً في شيء يشغله؟ أم أن المسألة أبسط من ذلك، ويتسلى فحسب بالتحديق في جمرات الشِّيشة وهي تتوهج وتنطفئ.

برهة وصفق طالباً فنجاناً من القهوة، غير أن شحاتة تكاسل ولم يأتِه له به إلا بعد ثلث ساعة. والذي عفرت قناوي مسكة شحاتة للفنجان، يقبض على أذن الفنجان بإصبعَي السبابة والإبهام، فلا صينية يضعه عليها ولا كوب ماء كما لو أننا فوق الرصيف وليس على مقهى. إنسان رذل، وهذه هي طريقته مع من لا يفهمون أن في الدنيا شيئاً اسمه البقشيش، أما من يدفعون له فيتنطط أمامهم ويمشي لهم على يديه.

وقناوي طبعاً يفهم، وطالما تقبل منه هذه السخافات بروح رياضية، إلا أنه الليلة لم يكن في حال تسمح له بالتعامل مع أحد بأريحية، انفجر فيه، ناوله شتمتين وأطاح بفنجان القهوة من فوق الطاولة.

كان من الممكن أن يقف الأمر عند هذا الحد، يقبل قناوي العشرين اعتذاراً التي أبداها شحاتة وتنتهي المسألة. لا أعرف ما الذي جعل زمامه يفلت ويمسك به من المريلة، رافعاً سبابته في الهواء بأنه ومن الآن فصاعداً إن لم يلْقَ الاحترام الواجب في هذه (المخروبة) سوف يرتكب معهم جناية. واستيقظ الحنش على الضجة، غير أنه فشل هو الآخر في السيطرة على قناوي.

لا أعرف على وجه التحديد، ما سبب كل هذا الغضب الذي كان فيه؟

هل لأنه لمح شحاتة وهو (يزغر) إلى شبشبه الزنوبة أكثر من مرة، أم لأنه فعلاً ليس على ما يرام؟

لم يَدُم الشجار أكثر من ربع ساعة، فثلة الشيوخ العميان بارك الله فيهم ومعهم عم عطية بذلوا جهداً لا ينكر لاحتواء الموقف، وعاود قناوي الجلوس بعد أن طيبوا خاطره، وأحضر له الحنش بنفسه أفخم صينية في المقهى وفوقها ثلاثة أكواب ماء بجوار فنجان القهوة. وإن أردنا الحق فإن شحاتة لم يرتكب الذنب الذي يستحق كل هذا الذي فعله قناوي، كما

أن حكاية الشبشب هذه جاءت منه عَرَضاً وليست مقصودة، فأكثر من مرة وقناوي يدخل المقهى بالبالطو فوق البيچامة، أو بفردة جورب واحدة ناسياً الثانية في البيت، ناهيك عن أن رباط حذائه على الدوام مفكوك، ولم يكن شحاتة ولا أحد غيره يعلق أو يلتفت من الأساس لهذه المسائل. تعودوا عليه، استقر في ثقافة المقهى أنه شخص خارج الحساب. فمسألة الشبشب إذاً مستبعدة، المذنب الحقيقي في نظري هو المليجي! شخصية غير سوية، إنسان مشاكس، أسبوع وهو يعاند قناوي حتى وصلت روحه إلى حلقومه وانفجر في شحاتة والحنش وكل الجالسين، فكل ما وقع هنا الليلة كان من تحت رأسه، وهو هناك فوق الدكة يرغي ويثرثر مع العم مفتاح.

***

o b e i k a n d i . c o m

(١٩)

خفت الرجل من المقهى..

انصرف الشيوخ ومعهم الأعور، لم يتبقَّ سوى رجلين يلعبان الطاولة، وانتحى عم عطية جانباً يتابع فيلم (التوت والنبوت) الذي يعرض على شاشة القناة الأولى. وهدأ قناوي قليلاً إلا أنه لم يصْفُ تماماً، طفق يرشف من فنجان القهوة وخيال المليجي يروح ويجيء أمامه، وعتاب ولوم وتوبيخ ثم اشتبك معه.

ما هذا (يا أخينا)، تلبس الوبر والكشمير وليس وراءك إلا (اللَّتّ والعجن) فوق الدكك، فهل هذا شغل فتوات!

السيناريو حتى الآن ليس فيه حدث يستحق الذكر، ولو مكثنا على هذه البلادة فسوف أفشل وأخيب مثلما حدث لي من قبل في الروايات، وساعتها يا نذل لن أرحمك..

obeikandl.com

تلَحْلَح يا أخي، افعل شيئاً، أريد حركة، (أكشن).

تعطي أذنك للعم مفتاح وتقول له ويقول لك، فهل (خال) عليك أمره؟ هل لا تزال غشيماً وتحسب أنه يحترمك!

أنت فعلاً غشيم، فقد سبق أن حذرتك من هذا العجوز غير أنك لم تستوعب. وطالما أنك قدري، وفي هذا السيناريو أنا وأنت طريقنا واحد، فمن حقك عليَّ أن أعاود النصح والتحذير: فيا سيد مليجي، يا فتوة يا محترم، لا تحسبن نفسك شيئاً كبيراً في عين هذا الرجل، فأنت كلك بطولك وعرضك وشاربك ونَبُّوتك، لست عنده أكثر من خرقة من الخرق التي ينظفون بها الزجاج!

فكومة العظام هذه التي تجلس قبالتك الآن على الدكة، كان لصاحبها زند وعضل وصيت كالطبل، وصولات وجولات مع أولاد هارون وغير أولاد هارون. فتوات لا حصر لهم في الوايلي والحسينية ودير الملاك ونواحي سوق السمك، حتى إنهم غنوا له على المزمار وقالوا فيه الزجل. وفي زمنه أيام أن كنت أنت مجرد قطعة لحم في (لفة وقماط) ولا تعرف رأسك من بطنك، كان هو السبع. شكم الكبير والصغير، والغني والفقير، والمقيم وعابر السبيل، حتى إن العيِّل ابن يومين الذي لا يفهم كان يفهم أن طاعته والحذر منه أول درس له في الحياة. عشرون سنة يا مليجي، ولا ينصب سرادق لفرح أو تقام حلقة ذكر أو تمر زفة طهور

إلا بإذنه ورضاه. وفي الانتخابات هو (البرنجي)، فلم يَجُسْ أحد بقدميه في الحارة أو علق الرايات والزينة أو نال منها ربع صوت، إلا إذا طرق بابه أولاً، وملأ حجره بالجنيهات ثانياً.

فعل كل الأفاعيل، الحلال منها والحرام..

دس أنفه في الحارات التي حولنا، وما من فتوة من فتواتها إلا وكان يدين له بالطاعة. وعندنا هنا في الحارة فرض الإتاوات أضعافاً مضاعفة، من أول الدكاكين الكبيرة حتى التي تقعد على الأرض بِمشنَّة فجل وجرجير. وخطب وُدَّه الأعيان بكسوة في الصيف وأخرى في الشتاء، ومن خصص له (كارِتَّة) لتنقلاته، والذي أشركه بنسبة في مكاسب التجارة، وذلك البيت الذي لوى ذراع صاحبه وأخذه بتراب الفلوس. ربع الثمن تقريباً. بيت العلايلي! طبعاً تعرفه. البيت الذي بأسفله دكانا الإسكافي والعلافة. وإن كنت أنت قد تفوقت عليه في مسألة البيوت بالذات، فلم تأخذ بيت الحاج بكري بربع الثمن مثلما فعل، أخذته تقريباً ببلاش، وكانت هذه إضافة جديدة من إضافاتك.

ورغم كل هذا غفرت له الحارة، غفرت وسامحت لوقفاته الكبيرة وخصوصاً أمام أولاد هارون. واختلط الأمر على الزجالين والرواة، نسوا كل آثامه ولم يذكِّروا الناس إلا بجسارته وعشقه للحارة. فهذه هي الحارة وهذا هو طبعها،

قلبها أبيض ونظيف مثل قلب ثمرة الخَسِّ، يشطح فيها الفتوة هنا وهناك بنبوته وساعة الحساب تنسى له الأَسِيَّة ولا تتذكر إلا الطيب والمعروف.

وراح العم مفتاح وجاء آخر، ومن فتوة إلى فتوة حتى أتيت أنت يا سمكري بوابير الجاز، ولله في خلقه شئون! فعندما يضرب الحظ ضربته لا تقل لي هذا ولا ذاك. فهل يا ترى سوف تصبح مثله، هل شرف الحارة وعِرْضُها هو الذي في ضميرك ويشغلك، أم ما أنت فيه الآن من فنطزية وأبهة؟ سوف نرى يا حضرة السمكري..

وآخر شيء أحب أن أقوله لك في موضوع العم مفتاح قبل أن نذهب إلى الموضوع الذي يليه، أنه إذا كان هذا العجوز يتقرب منك الآن ويستميلك باللسان الحلو والإطراء، فما ذلك إلا لأنه عاجز مهدود، فكما ترى ساعده كعود الحطب، وعين راحت والعين الثانية أقصى كفاءة لها ثلاثة أمتار وبعد ذلك (طشاش). مضطر للعب عليك ليظل مقامه محفوظاً في الحارة، قدمه على حافة القبر ولا يبغى إلا الاحترام. والاحترام في حارتنا وأنت سيد العارفين لا هو بالمال فقط، ولا هو بالصيت القديم ولا حتى بالذي في قلوب الناس، فالناس زادوا أم قلوا، مالوا أم تخلوا، لا بأس لهم وقلوبهم ضعيفة، رضا الفتوة وبكل أسف هو مربط الفرس وبيت القصيد. فهذا الذي يجعله حريصاً على شراء خاطرك

وليس على لسانه إلا الذي يرضيك، أما في داخله فيلعنك ويلعن اليوم الذي أصبح فيه واحداً من معيتك.

***

هذا عن العم مفتاح، أما عن الأرض الفضاء التي لا تبعد سوى رمية حجر عن الدكة التي تجلس عليها الآن..

ما هذا يا إنسان؟!

كنت تنصت لي بإمعان، وأول ما بدأت معك في الكلام المهم تدعني وتتأمل الخاتم الذي يطوق إصبعك.

هل بالك فارغ إلى هذا الحد؟

أما كان أوْلَى أن تنقل هذا الخاتم من الخِنْصَر إلى السبابة، وتلكم به هؤلاء الذين خطفوا منكم هذه الأرض!

ألا تستحي يا حفيد عيوشة وهم يجوبونها ليل نهار، وهكذا أمامك! ومن يبني منهم فيها عشة، ومن يمسك بنبوت، ومن يزرع نخلة أو يخطط لبناء ورشة.

فهيا تحرك وأرني ما الذي سوف تفعله، أم ستظل بليداً وكل يوم من أيامك كالذي فات.

آه لو تعرف يا مليجي، ما الذي أعددته لك..

شيء خطير، شيء سيبقى في سجلك وسجل الحارة أبد الدهر.

أرى عينيك قد ذهبتا إلى بعيد، تفكر طبعاً فيما أقول، يسوقك الفضول لأن تعرف بالضبط ما الذي أخبئه لك..

لا يا حضرة الفتوة، ليس الآن، اصبر قليلاً وكل شيء سوف يأتيك في حينه.

ومع هذا فإن شيئاً آخر قفز إلى ذهنك هذه اللحظة، وتسأل نفسك: من أين يأتيك هذا الكلام؟ ومن هذا الذي يتكلم؟ هل هو إنسان مثلك، أم شيطان يحوم حولك، أم مجرد وسواس يلعب في رأسك؟

هذا هو الغلط بعينه يا مليجي، فأرجوك ألا تشغل نفسك بهذه الأمور، فهي صعبة عليك كما أنها لا تقدم ولا تؤخر ومضيعة لوقتي ووقتك. الشيء الوحيد الذي يجب أن يشغلك هو كلامي فقط، فاجتهد في أن تعيه وتنفذه بالحرف، فلي نظرة في الرجال لا تخيب وأتوقع حدوث شيء كبير على يديك، صحيح أنك شخص متعب وساعات تفجُر وضميرك يموت، لكني في النهاية قادر على ترويضك.

لا تطأطئ رأسك أو تُخرج مصحفاً من جيبك تحلف لي عليه بأنك لست كذلك، فلا أي حلفان سوف يغير من فكرتي عنك ولا أي تبرير تسوقه سوف يجمل صورتك، الفيصل بيننا هو تصرفاتك المقبلة.

الشيء الأخير الذي أطلبه منك الآن، أن تكثف من ضغطك على العم مفتاح، أن تسمع منه وتستفيد، فهذا الرجل العقدة لو أخلص سوف يسهل علينا الأمر وتسترد الحارة أرضها الفضاء بأقل التكاليف.

obeikandl.com

والآن خذ احتياطاتك يا مليجي، فنحن وفي عز الكلام الذي نتكلمه، غافلنا (البغل) وانصرف عنك متجهاً صوب الأرض الفضاء.

فهيا انشط، تَلَحْلَح واتخذ إجراءاتك..

***

obeikandl.com

(٢٠)

يلحظ المليجي أن البغل فعلاً ذهب عنه، فيلاحقه سائلاً:

- على فين يا أبو سيد؟

يلتفت إليه البغل مشيراً بيده بأنه ثانية ويعود، وتعبيرات وجهه تشي بأن بوله محبوس ولم يعد قادراً على الاحتمال. أقرب مكان للبغل هو الأرض الفضاء، يجوس فيها بقدميه والمليجي يتابعه من الخلف، وكلما أوغل تحفزت غدد التحسب والانفعال في صدر المليجي وازداد توتره. وانحبست الأنفاس، عض غراب على شفته وبحركة تلقائية أمسك بقبضة نبوته، والدكروري لحسن الحظ كان موجوداً، رمق المليجي رمقة ذات مَغزى واتخذ وضعية القتال، ولملوم والشبل سماحة كانا في مشوار ووصلا هذه اللحظة، فهما سريعاً ما يدور وعلى الفور وضعا نفسيهما تحت

obeikandl.com

تصرف الفتوة. العم مفتاح هو الوحيد الذي كان مشغولاً بنفسه، لدغته حشرة في ركبته وولت هاربة، وهو مشتت بين مطاردتها أو هرش موضع الإصابة.

المشهد لم يكتمل بعد..

فما إن شمر البغل جلبابه، حتى خرج له رجلان من أولاد هارون. طفقا يركضان نحوه ويصيحان فيه بأن يغور من هنا، أن يفرغ ما عنده بعيداً عنهما: أمجنون أنت، ألا تعرف في أي أرض تبول! وهو غير مكترث، وبوادر عراك تلوح في الأفق.

عيناك على ما يجري أمامك يا مليجي، وهاجس يجعلك تحمل على البغل. فهذا الأحمق في ظنك يورطكم في مشكلة، وتتمتم في سرك بأن ليس هذا وقته يابن الناس! (الميضة) هنا على الشمال وليست بعيدة، فلماذا رحت لهذا المكان بالذات؟ آه يا حلوف يا جلاب المشاكل!

ويشيع الخبر في الحارة وتنشط الحركة، من تجري لتلملم أولادها، والتي تهرول وعلى كتفها سَبَت خضار أو رضيع، وأدخل المعلم عباس كل حميره في الوكالة وأغلق عليها بالترباس، كذلك فعل الحاج رزق ووضع المفتاح في سيالته مسرعاً إلى البيت، وعيال من سكان الخرابات هدومهم رثة طاروا كالريح لإبلاغ أهاليهم. وأقسم رجل يرتدي قفطاناً وجُبَّة ، بأن هذه المسألة ومن أولها لآخرها مدبرة، فما

فعله البغل كان بقصد وتعليمات صريحة من الفتوة، وحالاً حالاً سوف ينشب العراك ويطاح نهائياً بأولاد هارون. وأكد رجل أكتع يقف بعربة ترمس وحب العزيز على أن رواية صاحب الجبَّة والقفطان كلها صحيحة، وأنه سمع بكلام مثل هذا يوم أمس في السوق. وأناس ساقتهم الحمية أو ربما الفضول من هذا الذي يقال، فاتجهوا مباشرة إلى الأرض الفضاء وتحلقوا حولها، ووضعت أنت يا مليجي في خانة ضيقة!

كنت في موقف صعب، تقوم من فوق الدكة ثم تقعد، كفك تتحسس العيوشة ثم تحجم، تفكر في أن تصيح في البغل كي يقصر الشر ويعود غير أنك تخشى أن تُحسب عليك ويعايروك بها في الحارة، ووجهك يا غلبان أصبح مائة لون. كنت مرتبكاً، فلا تكذب عليَّ وتقول غير ذلك. وفجأة شمرت أكمامك، وفي ثوانٍ انتفضت واقفاً وفي يدك العيوشة. وجهها يا ستار يا رب كان مكفهراً وصلعتها كلها بزابيز، نفس السحنة ونفس التكشيرة التي تكون عليها عندما يحدثها قلبها بأن المسألة ليست هزاراً، وإنما دخلت فعلاً طور الجد. وتأخذني الحيرة..

فهل صحيح أن الدماء فعلاً تدفقت في عروقك وشرايينك؟ هل أخذتك النخوة وأنا لا أدري؟ أم أنك تساير وتناور وهذه حركة من حركاتك القديمة، لإفهام الحارة بأن هذا الذي يقع

obeikandi.com

في الأرض الفضاء لك فيه كلمة وموقف.

ينتفض معك بقية الرجال، ويشعر العم مفتاح غير أن عينه السليمة لا تفيده بشيء أو تقدم له أية معلومات. فيسألكم. لا تلتفتون إليه. تنشغلون عنه بعصِيِّكم وزعابيبكم. ففي لحظة نفض غراب جلبابه ونفخ في كفيه قبل أن يلف بهما قبضة النبوت، والدكروري شمر الجلباب وحزم به خصره ثم كبس الطاقية فوق رأسه، فهذا هو الوضع الذي يرتاح فيه كلما تهيأ لقتال، ولملوم والشبل سماحة ما بين الحماسة والتوجس، فهذه أول عركة يشاركان فيها. وأخذت الحمية رجلين من العامة فانضما إليكم، واحد منهما معه سيخ والثاني في يده مرزبَّة. أما أنت يا مليجي، فقد لمحتك وأنت تقبل رأس العيوشة وتستحلفها بالله أن تجبر خاطرك هذه المرة.

غير أنه وبكل أسف لم يحدث شيء، مضى الأمر وكأنه زوبعة في فنجان، فقد أفرغ البغل حمولته بنجاح، وها أنا أراه يرفع سرواله ويجتاز الأرض الفضاء متجهاً نحوكم، والرجلان اللذان تصديا له من قبل يصيحان فيه من الوراء، بأن هذه المرة (سماح)، وإن تكررت فالله أعلم بالذي سوف يحدث وقتها. وتتنفسون كلكم الصُّعَداء، تتبادلون النظر دون أن يبدر من أحد فيكم أي تعليق، حتى العم مفتاح، فيبدو أنه استنتج وفهم. وترجعون إلى الدكة وإلى الكلام والثرثرة،

وكأن شيئاً لم يحدث!

ما هذا يا مليجي؟

أبعد كل ما جرى تعاود الرغي مع العم هباب..

وفي ماذا؟ في زينات بنت الحاج رزق!

أيمر عليك ما حدث مرور الكرام هكذا..

كنت أحسبها فرصة لفتح موضوع أولاد هارون، إلا أنك خذلتني، خذلتني بامتياز!

آه يا عرة الفتوات!

ما دام الأمر كذلك، فلن أدعك تهنأ بجلستك. فخذ عندك هذه، حتى أورطك الورطة التي تليق بك يا تنبل.

فما إن بدأتم في الثرثرة، وبغير أن تشعر بدأ نفس الرجلان في التنطع جيئة وذهاباً حول الأرض الفضاء، فوق شريط الحد بالضبط، ولو مد واحد منهما قدمه ربع خطوة لكان في الحارة.

أثارت حركتهما صبية يلعبون الكرة، صبية من عمر أصغر أولادك، أوقفوا اللعب وبدءُوا في الوشوشة، ثم بدا على وجوههم السخط. بدأت الشرارة من أصغرهم، سفروت صغير ابن عشر سنين. طفق يرميهما بحصى في حجم ثمرة البندق، تلاه عيل آخر بزلط صغير. شاطت النار بعدها في الباقين، انهالوا عليهما بأحجار وفوارغ وشباشب قديمة وبكل ما هو ملقى في عرض الطريق من نفايات.

obeikandl.com

أراد أحد السابلة إيقافهم كي لا تتطور المسألة، غير أنك هببت واقفاً وأشرت له بأن يدعهم لما يفعلون. جميل! رِدَّة فعل في محلها..

ويشاء الحظ أن يصاب أحد الرجلين في رأسه، فانفجر غضبه وجرفته قدماه حتى جاس في الحارة. كان منظره مستفزاً. يركض برأسه المبطوح، وزميله وراءه يساند. والصبية كالعفاريت، واحد يجري أمامهما والثاني يلسعهما بشتمة، والذي يناور ثم يرشقهما بطوبة أو زلطة. وتكهربت الحارة. وطرت أنت يا مليجي برجالك وعصيك ودخاخينك، حتى العم مفتاح كان يتكفأ وراءكم وفي يده مطواة. وانقلب الصبية من الفر إلى الكر وهم يصفقون لكم، ومنهم من كان يؤازر بأحجار وأعواد حطب يلتقطها من الأرض. ورنت زغرودة من البيت المواجه للأرض الفضاء، وراءها زغرودة ثانية من أقصى الحارة، وأطبق الحصار على الرجلين فأقعيا على الأرض يحميان رأسيهما من الشلاليت والضرب، ويتوسلان لك بأن تحق الحق فهما لم يبدآ بالغلط، البغل هو الذي بدأ وبعده الصبي الذي بطح، فسهمت بعينيك لحظة ثم قبلت منهما هذا المنطق، وبإشارة من يدك كف عنهما الناس. صور لك خوفك من العواقب أن الغلط أتى فعلاً من عندك، وأن من حقهما أن يُعاملا معاملة حسنة. وفي نفس الدقيقة وقبل أن تنتهي من أمرهما

بقرار طار الخبر إلى حارة هارون، فجاءُوكم بعصيِّهم وسكاكينهم وبناطيل تلوح أسفل الجلابيب، ومنهم من كان يحمل بندقية بروحين تُعمر بالخرطوش. ووقفتم أنتم لهم برجالكم ونسائكم وصبيانكم وبناتكم، حتى كلاب الشوارع أحست بالأزمة وطفقت تعوي في وجوههم بأقصى ما فيها. فهموا على الفور أن المسألة ليست سهلة وأن العركة ستكون عركة موت، فهموا أيضاً أنك عاقل وحكيم وأنه لولاك لهلك الرجلان، فقصروا الشر قائلين:

- سليمة وشغل عيال.

وقلت أنت:

- خلاص سليمة سليمة، بس اللي يقرب من عيل من عيالنا ملوش إلا النبوت.

فقالوا:

- لو كان بينَّا وبينكم مراسيل وكلام رايح جاي، مكنش حصل اللي حصل.

فرددت بغضب:

- ما قلنا قبل كده وبدال المرة ألف، إن الأخد والعطا هو اللي هيحل المشاكل، إنتو اللي قعدتوا تبيعوا وتشتروا فينا.

فربَّتوا على كتفك قائلين:

- خلاص خلاص متزعلش، واللي عملته النهارده مع ولادنا مروءة ماتتنسيش، سيبنا شوية أيام نتشاور وبعدها

يجيلك الرد.

وانصرفوا، وعدت أنت ثانية إلى دكتك.

أفلتَّ من الورطة التي ورطتك فيها يا مليجي، أفلت منها كما تفلت الشعرة من العجين.

***

obeikandl.com

(٢١)

الأرض الفضاء.. الأرض الفضاء..
هذه هي البلوى التي تسكن في عِبَّك يا مليجي..
من أول ما قالوا يا شوارع ويا حارات وهي في زمامكم، حتى طب هؤلاء البشر.
من أين جاءوا؟
لا أحد يعرف على وجه اليقين، فمن يقول من هنا ومن يقول من هناك، والغالب على اللسان أنهم جاءوا من حارات كالثعابين محشورة بين الشوارع والسكك، فالله وحده الأعلم بحالهم. المهم أنهم جاءوا وأكلوا الزقاق الذي في ريحكم، وعمروه وكبروه وجعلوه حارة أسموها على اسم واحد من أجدادهم. ومضى زمن وزمن وأنتم نيام، لتفيقوا ذات صباح على نعالهم تطأ أرضكم. ليس في زمنك يا أبا سعيد، في

obeikandl.com

زمن فتوة آخر. كان صالحاً غير أن الحيلة لم تكن حرفته، غافله الملاعين ونهشوا من الحارة كتفها الشمال فراح فيها ومات بحسرته. وأتيت أنت وتربعت فوق كرسي الفتونة، ومعك هذه البلوى فقد تربعت هي الأخرى في حجرك وتمددت.

فأنت الآن وبلا جدال في مشكلة، قلبك يحثك ويدفعك غير أن عقلك يثبطك. قلبك يريد الأرض الضائعة بأي ثمن تدفعه، وعقلك يتحسب من العراك والمعمعة، وأنت مشتت يا بطل، فتلتفت إلى العم مفتاح وتسأله:

- وأخرتها يا عم مفتاح؟

- الصبر، الصبر يا سِيدنا الصبر.

لا تعجبك كلمة (الصبر). كلمة لا محل لها من الإعراب، شيء لا جدوى منه في الحال الذي أنتم فيه. أنت تريد الحل والخلاص، وليس هذا الشيء الممل السخيف الذي يقال لك، فقد شربت وارتويت وسمعت كل مواويل الصبر حتى ضجرت أذناك.

فتقول له وعلى وجهك مسحة أسى:

- يعني هنفضل قاعدين كده وحاطين إيدينا على خدنا.

- مفيش حاجة بتفضل على حالها، وياما أكتر من كده وربنا بيزيح.

وتشيح بيدك:

obeikandi.com

- مش قالوا قدامك سيبنا كام يوم وبعدها يجيلك الرد، آهو الكام يوم بقوا كام شهر!

وهو يؤمِّن على كلامك:

- قالوا يا سيدنا قالوا، وسمعت بوداني.

فتطرق بكفك غاضباً فوق صلعة العيوشة:

- أنا عارفهم، والله ماهم مِتَّعتعين من مطرحهم إلا بعركة.

ثم تغمغم مكلماً نفسك: خلاص عركة عركة!

وهو يتأملك وقلبه يغمغم ساخراً: عركة! عركة مين يا أبو فصادة!

ويقلب عينيه في رهط المعيز الذي يحيط بك، الدكروري ولملوم والبغل وهذا التافه الذي اسمه سماحة. ويلوح في خاطره حبشي والكافر وعرابي وأبو دراع، ثُلَّته القديمة التي كانت تبلع الزلط والواحد منهم برقبتك أنت وكل رجالك.

***

وتنشغل أنت عنه ببعض الأمور..

تعليمات سريعة للدكروري، وكان غراب في مشوار بعيد وقادماً يلهث، لم تسمح له بالتقاط أنفاسه، شخطت فيه وأمرته محتداً بأن يغور من وجهك الآن، ولا يعود إلا ومعه المعزة التي خطفها أحد النَّوَر من أمام بيت المعلم ياسين، ومعها هذا المجرم مربوطاً بحبل، ثم قضيت حاجة في البيت وعدت ليتلقفك العم مفتاح مرة ثانية ويعاود معك الدردشة:

openkandil.com

- دا أنا جاني خبر بإن الورداني فتوة شادر السمك، كان بيتعشى ليلة إمبارح عند ولاد هارون.

وأنت تنقر بكعب العيوشة خفيفاً فوق الأرض.

- الورداني! الورداني يا سِيدنا اللي إحنا كلنا فاكرينه بتاعنا!

فترمقه رمقة خفيفة، وتعود إلى ما كنت فيه.

- وشفت اللبس اللي بيلبسوه! بناطيل وجزم كاوتش، واللي لابس شرز واللي في رقبته سلسلة، وإن لبسوا طواقي يلبسوها بزر ويطولوا شعرهم زي النسوان!

ويتنهد متعجباً:

- فين الجلاليب البلدي أم قَبَّة واسعة، وفين الطاقية واللاسة وللا حتى العباية والطربوش، منين داهية ولاد الكلب دول اتحدفوا علينا!

لا تجيب، وبماذا تجيب وأنت من الأساس لست هنا.

- وعليهم تقاليع! الفتوة عندهم مش زينا كده بالدراع، قال إيه بيقعدوا مع بعض ويفضلوا يتشاوروا يتشاوروا لحد ما يختاروا واحد فيهم!

ويتنهد ثانية:

- وهي كام سنة ويشوفوا غيره!

وأنت لا تلقي بالاً بما يقول، فمنذ برهة وأنت مع شيخ الزاوية (الشيخ خميس)..

obeikandl.com

لم يأتِ على بالك فجأة، من أول أمس وهو في دائرة تفكيرك. لم تضع هذا الإنسان في حساباتك من قبل. لم يشغلك بتاتاً. ولماذا يشغلك؟ إنسان عادي. واحد من آحاد الناس. عجلاتي في يده منفاخ ومفك، وفي أوقات الصلاة شيخ يؤم الناس. هذه هي قصته وهذا هو ملخص حياته. هكذا كنت تظن. كنت غافلاً عنه حتى اتضحت لك أول أمس أشياء جعلتك تنتبه. أشياء لا تفسير لها إلا أن هذا الإمَّعَة تجاوز الخطوط الحمراء، ودخل في باب الجنايات والكبائر.

كنت تتفقد الزاوية، مجرد روتين تفعله بين الحين والحين. لا لا يا مليجي، المسألة لم تكن روتيناً مثلما ظننت، فهذا ظن ساذج وبساطة في التفكير. الأمر ليس كذلك ومختلف بالمرة، فلو سألت قلبك واسترجعت ما حدث بهدوء ورَوِيَّة لعرفت أن فيك شيئاً لله، فخميس لم يطرأ على بالك بتاتاً في هذا اليوم أو من الأصل كان له عندك أي ذكر، بل وحتى قبلها بدقائق كنت مجهداً وجالساً تتثاءب فوق الدكة، ولم يَدُر في بالك أية زيارات تفقدية، كل الذي كنت تفكر فيه هو فخذة الخروف التي جاءتك هدية من أولاد الغرابلي، فلم يكن برأسك شاغل آخر سوى أن تتعشى بها وتنام. شيء إلهي هو الذي جعلك تنسى كل هذا وتطب على الزاوية. كانت حوالي العاشرة، ونحن في الشتاء وأذان العشاء كما هو معروف أقصاه الساعة السابعة، فكان طبيعياً أن يشد

بصرك بابها المفتوح، رغم أنك نبهت على الشيخ خميس سبعين مرة من قبل بأن يغلقه بالقفل والترباس بمجرد أن يفرغ الناس من الصلاة.

دلفت منه بحذر..

الزاوية كانت خالية، فلا أحد يتركع أو يمسك بمصحف ويقرأ القرآن. هذا البني آدم فقط وعلى مسافة منه ثلاثة رجال يقعدون في أحد الأركان، رؤوسهم في رؤوس بعضهم البعض ويتهامسون. لم يشعر بدخولك، كان مشغولاً بجمع المصاحف ورصها فوق الرف، أما هم فنزل عليهم سهم الله وطفقوا يحدقون فيك. أخذتهم المفاجأة وهم يرونك واقفاً أمامهم وجهاً لوجه. اصفرت وجوههم وأصابهم الشلل، هبوا واقفين بعدها وفي أقل من ثانية أسرعوا خارجين بعد أن حيوك بكل أدب. وارتبت أنت، فمن هؤلاء؟ وما بال أشكالهم لا تريح! هكذا قيمتهم. كل لحية طولها شبر، والشوارب ممسوحة، أما الجلباب فينقصه قيراطان على الأقل ليصل إلى بِزّ الرجل. نفس ماركة الشيخ خميس، نسخ بالكربون. ولماذا هذا الارتباك عندما فاجأتهم؟ هم يعرفونك إذاً، لديهم أخبار ومعلومات عنك، وهذا أول شيء في أمور الحرب، أن تعرف عدوك أولاً، آه يا أولاد (الفرطوس)، الفتوة ذاته موضع تحريات! وطبعاً يعرفون رجالك واحداً واحداً وبالأسم، وأكيد يراقبونك كل يوم وأنت تدير شئون

الحارة من فوق الدكة! سجلت كل هذه الملاحظات في رأسك وسكت..

وأحس هو أخيراً بوجودك، فأقبل عليك مسرعاً..

سألته عنهم، فرجع خطوة إلى الوراء وهو يقول: إنهم (بلدياته)، أهله وعشيرته، أناس غلابة، مساكين على باب الله، أتوا من هناك من محافظة الإسماعيلية، من بلدته بمركز أبو صوير، ليشهدوا الليلة الكبيرة لسيدنا الحسين، ولا مأوى لهم فاستضافهم في داره.

لم تمر عليك مرور الكرام الخطوة التي خطاها إلى الخلف، أتت منه كردة فعل غريزية، وترجمها لك عقلك. فإذا هو مرتبك، لا تفسير سوى ذلك، في الأمر رائحة غريبة وشيء يدبر في الخفاء، وما معنى (أهلي وعشيرتي) هذه التي قالها؟ كلام جديد، لغة لا يعرفها قاموس الحارة. ألك عشيرة يا نذل، وأنا لا أدري! ألست مجرد هلفوت من الهلافيت التي تتمنى رضاي. ورمقته بريبة، ففهم أنك لم تبتلع ما يقول.

لم يقف الأمر عند هذا الحد، الذي استفزك وعفرتك النبابيت الثلاثة التي لمحتها بالقرب من الموضع الذي كان يجلس فيه هؤلاء الأنطاع. أكيد نبابيتهم. من اضطرابهم نسوها عندما أسرعوا بالخروج، وتسأل نفسك: أهذه وجوه فيها صلاح! وجوه تبتهل إلى الله! أهؤلاء أناس جاءوا إلى

باحة سيدنا الحسين ليقولوا: مَدَد مَدَد يا رسول الله، أم هم فرقة من فرق الموت! وهالتك النبابيت. الطول والسُّمْك والبزابيز. كل نبوت فيهم يضاهي نبوتك العيوشة، وأين؟ في بيت من بيوت الله! آخر مكان تظن أن يأتيك منه الخطر. آه يا خسيس، رجال ونبابيت!

وتسأله، فيقسم بالله العلي العظيم وبالأنبياء والرسل من أول آدم حتى سيدنا محمد عليه السلام، بأنه لا يعرف شيئاً عنها ولا من هم أصحابها، ويعاود القسم بعينه وعافيته مؤكداً ما يقول. لم يلهمك عقلك ساعتها بأن تقطع في أمره، فأين الدليل؟ صحيح أنك تبطش في أشياء أقل من هذا بكثير، لكن بالبيِّنة حتى ولو كانت ملفقة. اكتفيت بوضعه في دائرة الشبهات، ومن باكر ستكلف أحد رجالك بأن يتقصى خبره ويجمع لك التحريات. وشخطت فيه ونبهت عليه من جديد بألا يفتح باب الزاوية مرة ثانية في غير أوقات الصلاة، وإن ظهر أصحاب هذه النبابيت يأتيك بهم في الحال، وإن لم يظهروا حتى باكر وأقصاها صلاة الظهر يسلمها للشبل سماحة. أما هؤلاء الثلاثة الذين يقول إنهم ضيوفه، فهم أول خيط سوف تمسك به، يقب ويغطس ويأتيك بهم. يسلمهم يداً بيد للدكروري، فهو أفضل رجالك في أمور السين والجيم، ولسعتين من كرباجه السوداني ويبين المستور.

وخرجت (والفأر يلعب في عبك)، فمن أنت يا شيخ خميس،

هل أنت رجل طيب وخلوق مثلما يقول عنك الناس، أم ابن حرام ولك حكاية لا يعرفها إلا الله!

والعم مفتاح لا يزال إلى جوارك، ولم يفرغ بعد من الدردشة:

- تحب أجيبلك قرار الورداني، وإيه اللي حصل بالظبط بينه وبين ولاد هارون؟

ويرمقك منتظراً الإجابة، وأنت لا تريد أن تنطق أو حتى تسمع، بالك مشغول بهذا الشيخ الذي ظهر فجأة على خريطتك، أعدو هو أم حبيب؟!

وتشير للعم مفتاح بأن يرحمك من رغيه وكلامه، وتجرجر نَبُّوتك وفوراً إلى السرير.

***

obeikandl.com

(٢٢)

قناوي لا يزال هائماً في أحداث السيناريو، والحنش يرمقه بضجر فقد تأخر الوقت وحان إغلاق المقهى. الحمد لله، أخيراً قام وعلى الفور رزعوا الباب وراءه وشدوا الترابيس، وقفز شحاتة وزميله عمارة في (تريسكل) الحنش. آلة من مخلفات الحرب العالمية الثانية، يقال إنها كانت تستخدم في نقل البريد بين وحدات الجيش البريطاني التي كانت تحارب الألمان في الصحراء الغربية. شحاتة وعمارة محشوران في صندوقها الخلفي كما الدجاج، ولف الحنش خصره بذيل الجلباب وجلس فوق مقعد القيادة. ورغم أن الكشاف الأمامي للتريسكل لمباته محروقة والإطارات تقريباً فقدت نصف مخزونها من الهواء، إلا أن الحنش لم يأبه أو اعتبرها مشكلة، ضرب ضربتين فوق البدال وطار به كالحمامة. إن

obeikandl.com

وصل هؤلاء الناس إلى بيوتهم سالمين، فهذا من لطف الله. أهل الحارة في حكم الأموات، فلا دَبَّة رجل تسمعها ولا عيل ابن يومين تراه أمامك. الدنيا هُسّ هُسّ، مجرد خروشة تأتي من ميكروفون الجامع، خروشة خفيفة أعقبها نقرتان على السماعة، الشيخ إدريس على ما يبدو يستعد لرفع أذان الفجر.

يذكِّره الشيخ إدريس بالشيخ الآخر، شيخ السيناريو (الأخ خميس)، وأنه فات عليه تحديد مسكنه على الخريطة. وهذه غلطة كبيرة! فالمعلم عباس والحاج عطوة والريس دربالة وسبعاوي الإسكافي وقبل كل هؤلاء طبعاً المليجي، كلهم كلهم بيوتهم معروفة، ومن حرصه لم يغفل عن أن يسجل بأعلاها الأحرف الأولى لأسمائهم، إلا الأخ خميس! فكيف غاب عنه هذا الشيء المهم؟ تحدث أحياناً، خاصة لأمثاله من المبتدئين. المهم أنه تذكر، وهذا أول شيء سوف يفعله بمجرد رجوعه إلى البيت، حتى قبل أن يستبدل هدومه.

بيت خميس سيكون ملاصقاً لبيت المعلم عباس..

ولماذا يكون ملاصقاً؟ يسكن معه في نفس البيت. يؤجر له عباس الشقة التي في الدور الأول، وتوضع عدة علامات على الخريطة، سلم داخلي مثلاً، فتحة، الشباك في الشباك، أو يشار في أحداث السيناريو بأن كُلاًّ منهما موضع سر للآخر، أي شيء يُستفاد منه أن الأمور بينهما طيبة والعلاقة

متينة. والقصد أنه لو حدثت أية مشكلة للأخ خميس مع المليجي يؤخذ عباس بجريرته، ولا ظلم في هذا، فمثلما يقال في الأمثال: من جاور الحداد انكوى بناره.

تستحق يا عباس، فطالما سخرت من رواياتي..

أتتذكر ما قلته عن رواية (الذين يغطون في النوم)، ألم تقل إنها تفاهات في تفاهات ولم تخرج منها بنتيجة. أتتذكر يا نذل، أم نسيت؟

والآن تعالَ إليَّ أنت الآخر يا شيخ خميس..

الشقة التي أجرها لك عباس، ثلاثة مطارح ودورة مياه. جميل! غرفة النوم هي أهم مطرح، وأظنك تتفق معي في هذا.

لماذا يبدو عليك القلق؟ لا تقلق ولا تَخَفْ، فأنا لن أفشى أسرارك بتاتاً للمليجي. هذا وعد. سأدع الأمر لفطنته وذكائه. والآن دعنا نعود للغرفة، نعلق عمامتك أولاً على مسمار بالحائط المواجه للسرير، ثم مسمار آخر للشال والسُّبْحة، أما الجُبَّة والكاكولة والعصا الأبنوس التي تعلقها أحياناً في ذراعك .. ما هذا اللغو! لا. لا. هذه الأشياء ليست ضرورية ولا داعي للإفاضة فيها، ستكون مجرد خلفية للمشهد. المهم هو المصيبة التي تنام أسفل السرير، جوال به حُزْمة نبابيت. وليست أي نبابيت، نبابيت من النوع الفتاك. وبلطة، لكن أين وضعتها يا خميس؟ آه. حشرتها هنا تحت

المرتبة. وما تبقى من أشياء حادة، سنجة، سيف، جنزير، مطاوي قرن غزال، وزعتها شيئاً في غرفة العيال وشيئاً في السَّندرة، أما زجاجات ماء النار فقد خبأتها يا لئيم في سَحَّارة زوجتك (سنية).

لو رأى المليجي هذه الأشياء، فأنت ميت يا خميس!

أنت الآخر يا عباس لن تفلت من العقاب والبَهْدَلَة، أقل شيء يفعله معك المليجي كفَّان ثلاثة على وجهك، وأن توضع بالمقلوب فوق أحقر حمارة وكبشة عيال تزفك في الحارة. آه لو صحت توقعاتي وحدث ذلك فعلاً، فساعتها سوف أصمم لك زفة محترمة تستغرق نصف حلقة من حلقات المسلسل على الأقل. لا تنسَ أيضاً يا عباس أنك معرض للغرامة المالية، فمن المحتمل أن يصادر المليجي نصف حميرك ويبيعها في السوق لحسابه.

***

لا رغبة لدى قناوي في العودة إلى البيت الآن..

يشرع في جولة تسكعية بالحواري المجاورة، يداه معقودتان خلف ظهره وإحساس بالنشوة يطغى عليه، فالدنيا الآن أفضل كثيراً مما كانت عليه أول الليل. وصور وخيالات وكلام عن خميس ومفتاح والمليجي وغيره وغيره من شخصيات السيناريو، أشياء لا حصر لها تهبط على رأسه كزخات المطر، أكثر ما يشغله منها وضعه هو ذاته

في علاقة المليجي بخميس.

فكيف يلفت انتباه الأول إلى الثاني، خاصة أنه قطع وعداً على نفسه لخميس بألا يفشي أسراره، كما أنه رجل محايد وليس من الحياد أن يحابي شخصية على حساب الأخرى. فهل لو وسوس للمليجي مثلا، مجرد وسوسة وليس كلاماً مباشراً، أو لو وضع في طريقه ظروفاً وملابسات تساعده على الفهم والاستنتاج، أشياء كالتي صورها من قبل في مشهد الجامع والنبابيت، فهل هذا يعد حراماً وحنثاً بالوعد الذي التزم به؟ فعلاً مشكلة!

ويعلو أذان الفجر..

يأخذه الأذان مما كان فيه ويجذبه صوت الشيخ إدريس، وهو يقول: الصلاة يا مؤمنين الصلاة..

تخشع نفسه فيذهب إلى الجامع وينضم إلى المصلين، اكتمل الصف الأول والثاني خلف الشيخ إدريس، ورجلان فقط يقفان إلى جوار قناوي في الصف الثالث، ودمتم يا مؤمنين! فهذا هو حال الحارة في صلاة الفجر.

تفرغ الصلاة، فيستدير الشيخ إدريس إلى المصلين ليتلو معهم بعض الأدعية والأذكار. يلحظ قناوي. يرمقه رمقة مدققة، فهو بالنسبة له وجه جديد، فرواد الفجر معروفون له جميعاً، بالعدد والاسم. رجل صالح، ويقال إن الناس تقف وراءه صفوفاً صفوفاً في صلاة الجمعة. يهربون من جامع

الحكومة الواسع المفروش بالسجَّاد، ويفردون الحصير من هنا حتى محل العم سعد بائع الفطير. ورغم أنه لم ينلْ قسطاً وافراً من التعليم، إعدادية الأزهر وحسب، وفتاواه كلها بسيطة وعلى السجية، إلا أن بشاشته ولينه حبَّبا فيه كل خلق الله.

يرمق قناوي رمقة ثانية، فيشعر وينهض متجهاً إليه، يرحب به الشيخ ويسأله:

- أأنت جديد هنا يا عمنا الأستاذ؟

- يعني.

- بارك الله فيك، وحبذا لو حرصت على صلاة الفجر.

فيجيبه قناوي بصدق:

- لا تفوتني أبداً صلاة، لكني يا مولانا أنام متأخراً فيضيع مني الفجر.

- أتسهر في عمل أم لهو؟

فيتلعثم قناوي ثم يقول:

- في عمل طبعاً.

فيربت على كتفه:

- لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

يتأمله قناوي طويلاً قبل أن ينصرف، وعلى باب الجامع وهو يضع الزنوبة في قدميه يلوح له الشيخ خميس، فيهشه

على الفور من خياله.

***

ويعود منهكاً إلى البيت..

تثاءب عشر مرات وهو يفتح الباب وحالاً حالاً إلى السرير، فلا حدد بيت خميس على الخريطة ولا حتى استبدل هدومه، وشيئاً فشيئاً انتظمت أنفاسه ودخل في النوم ..

وكأنها الحارة..

حارة السيناريو لا الحارة التي يسكن فيها. الشارع والبيوت والدكاكين التي طالما رسمها في خياله، غير أنها لم تكن واضحة المعالم، كأنها مجرد هياكل تلوح في الضباب. ظهرت له في لقطة سريعة، انشغل بعدها بما وقع له. أمسكت يد بياقة قميصه من الخلف، والتفَّت اليد الثانية حول عنقه من الأمام. بدا الأمر كما لو أنه محاولة لكتم أنفاسه.

الرجل الذي يثبته من الخلف صوته ليس غريباً عنه، وأنفاسه تنبعث منها رائحة المعسل:

- أخيراً أمسكت بك يابن الجزمة؟

ثم يرفع يده من فوق الياقة، ويبدأ في صفعه على قفاه. كف يده غليظة والضربات موجعة وهو لا يستطيع التملص منه أو حتى الاعتراض، كان مسلوب الإرادة كما أن الرجل أقوى منه بمراحل:

- لماذا تحوم حولي؟ ما الذي تريده بالضبط؟ هل أنت من

طرف (النمس) فتوة المغربلين أم تعمل لحساب من؟ انطق وقل لي من أنت، قبل أن أكسر رأسك وأدفنك هنا؟

أخيراً نطق بصوت له بحَّة غريبة، كأنه يأتي مباشرة من الحنجرة وليس من الفم وحركة الشفاه:

- أنا قناوي. قناوي الخربان. موظف غلبان بشركة الغزل والنسيج، كنت ذاهباً لأفك حصري في دورة المياه لكني تهت!

- تهت! أتستهبل يابن القحبة! أتحسبني مختوماً على قفاي! موظف حكومة وتلبس جلباباً ولاسة! كلما التفت أجدك ورائي يا وسخ وفي لمح البصر تختفي، احْكِ لي حكايتك بالضبط وبسرعة وإلا شربت من دمك.

يكتشف قناوي أنه كذلك بالفعل، وأن اليد التي تمسك به تقبض على قبة جلباب وليس ياقة قميص.

ويصحو فجأة. صحا على مواء القطة مقطوعة الذيل. القطة التي تعشقه وتعشق شباكه. يبدو أنه نسي الشباك مفتوحاً، فقفزت عليه وبدأت في المواء. ريقه جاف وجسده مبلل بالعرق. كابوس ولا شك. يتنقل بعين زائغة بين محتويات الغرفة، وليس على لسانه إلا كلمة: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ويتذكر اليد التي كانت تحيط بعنقه من الأمام، كان بإصبعها الخنصر خاتم، لمحه بطرف عينه، خاتم بفص كعين الكتكوت. خاتم المليجي. آه يا مليجي يا

عديم الضمير! تضربني على قفاي وتخنقني خنقة موت! ضوء خفيف يأتي من النافذة، مجرد نور وليس أشعة الشمس، فهل نحن في صباح نفس اليوم أم هو فجر اليوم التالي؟ بلل قطعة خبز ووضعها أمام القطة، تتمسح في كُمِّ الشرز الذي يرتديه، يربِّت عليها بحنان، أنقذه مواؤها من إجرام المليجي، يرطب جوفه برشفة ماء ويعود ثانية إلى الفراش.

***

obeikandl.com

(٢٣)

أحس قناوي برغبة في الصعود إلى السطح..

فاليوم هو أول يوم تسطع فيه الشمس، بعد أسبوع من المطر والبرد قضاه كله تحت اللحاف. وناهيك عن ذلك، شمس أو صقيع أو حتى نتف ثلج تسقط من السماء، فالسطح ذاته يستحق الصعود من حين إلى حين، وإلا ما قيمة كل ما جرى من مشاحنات لتخليصه من قبضة زغلول.

تناول إفطاره على مهل، ثم فرد أمامه خريطة الحارة وطفق يتأملها باستمتاع. تبدو الحارة لعينيه سهلة خفيفة، فلا تفريعات ولا تعقيدات. مجرد صفين من البيوت يمضيان إلى الأمام في آخرهما قطعة الأرض الفضاء، وعدة خرابات تلوح في الأفق ثم الدكاكين والوكالات والفتوة والناس. الرسم يستهويه، ويزداد تعلقاً به كلما جاس بخياله وبعث فيه

obeikandl.com

الحياة، ورأى شخوص الحارة وهم يتحركون ويتصرفون على النحو الذي يريده، ويتكلمون بالكلام الذي يرضيه.

فكر في أن يتأبط الخريطة ويصعد بها إلى السطح هي وعدة أفرخ من الورق وبعض الأقلام، فمن يدري؟ لعل الله يفتح عليه بشيء جديد، بعد هذا النوم والوخم الذي استمر معه قرابة أسبوع، غير أنه تردد، خصوصاً بالنسبة للخريطة. خشي أن يراها معه أحد الجيران ويحسبها خريطة من خرائط الإسكان، وقد يؤوِّل الأمر على أنه أصبح مساحاً في (الحي)، أو يشت بفكره ويظن أنه يعمل في جهة من الجهات التي تصدر قرارات بهدم البيوت، وأنه يدبر لعمل مصيبة من وراء السكان!

لم يأخذ معه أي شيء، اكتفى بمقعد صغير من تلك الأنواع التي تقبل الفرد والتطبيق، علقه في كتفه وأغلق الباب وخرج، التقاه زغلول على أول الدَّرَج، فلاحظ أنه يرمقه بدهشة هو والمقعد، فتوقف وسأله بضجر:

- فيه حاجة يا أخينا؟

لم يجِبه زغلول، فسأله مرة ثانية:

- أنا طالع السطح، عندك اعتراض؟

وكانت أم لبيب تدلف من باب العمارة، تَفَلتْ في عِبِّها ثلاث تفْلاَت وهي تمضي أمامه، ووراءها زغلول وهو يرمقه بربع عين ويغمغم بصوت مسموع: جيبنا فاضي ونعلنا

مخروم، وعاملين فيها أفندية وبهوات!
لم يعلق، آثر ضبط النفس، فمن الواضح أنهما يجرانه إلى معركة ليس مستعداً لها الآن.
وصعد..

***

الحارة من أعلى حالها حال كل يوم..

العم ربيع لا يزال واقفاً بقدْرة الفول، ومقهى الحنش أبوابها موصدة. ليس اليوم فقط، بل وربما لعدة أيام. فالحنش فتح رأس أحد الزبائن، وهو وشحاتة وعمارة وصبي آخر من صبيانه محجوزون في القسم رهن التحقيق. والأولاد الذين تسربوا من المدرسة أحدهم يدحرج أمامه (كرة شراب)، والباقون فرغوا للتوِّ من تقسيم أنفسهم إلى فريقين. لا جديد إلا قدوم موسم البرتقال، فثلاثة من نسوة (شبين) يجلسن بمشنات مملوءة حتى آخرها بثمار (أبو سُرّة) والناس أمامهن طوابير، ورجل بطاقية وجلباب يدفع بيديه هو الآخر عربة برتقال، ويولول وينادي عليها بحماسة كأنما برتقاله بالذات هو المميز وسر الحياة، وليس البرتقال الذي يباع في المشنات.

خشي قناوي أن تصرفه هذه المشاهد عن الغرض الذي جاء من أجله أو تشوش عليه الحارة التي بذهنه، فانتقل إلى الجانب الآخر من السطح حيث تقف عمارة الحاج عبد

الرسول. فرد المقعد وجلس، غير أنه لاحظ امرأتين بإحدى الشرف ترمقانه من أول ما قعد ولا تكفان عن الوشوشة. تتوشوشان دقيقة أو دقيقة ونصف ومرة واحدة تنفجران في الضحك، وكلما حدق فيهما كي تختشيا، تسكنان لحظة ثم تعاودان الضحك. لعنهما في سره هما وأمهاتهما والبلدة التي أتتا منها، ولما تأكد له أن زمامهما فالت ولا حل معهما ولا نتيجة، حمل المقعد وانزوى بعيداً عنهما ثم بدأ.

والآن اقترب مني يا أخ مليجي، وقل لي ما هذا الذي فعلته؟

جئتني في الحُلْم وكدت تخمد أنفاسي، فهل هذه أفعال أناس محترمين!

هل نتحاسب الآن، أم أمررها لك.

أراك خزيانَ وتضع عينيك في الأرض، لا مشكلة سأتجاوز هذه المرة وأسامحك، لكن إن وَزَّك الشيطان وكررتها فلا تلومن إلا نفسك حينها.

والآن أرني ما لديك..

آخر مرة رأيتك فيها، كنت تشعر بالسأم من العم مفتاح وتركته وقمت لتنام.

فهذه عرفناها..

وأنك لست مهموماً بأولاد هارون وحدهم، بل وبهذا (الخميس) الذي طلع لك في البخت..

هذه أيضاً انتهينا منها، فما الجديد؟
الجديد يا حضرة الفتوة، أنك تغلي!
لم تنم ليلة الأمس تقريباً. تغفو دقيقة وتصحو عشرة، وتنفخ وتفرك في السرير.
تشعر بك زوجتك محاسن (إنصاف سابقاً) وتسألك، فلا تجيب، وعندما تلح أو ترفع صوتها وتزغدك، تقول لها أي كلام!
معك حق، فمنذ متى تشعر بك هذه الخرتيتة، وحتى إن شعرت هي والبهيمة سواء، فلا مَلْفَظ حسن ولا خلقة تسر العين أو حباها الله بفتفوتة عقل.
كانت تناسبك أيام أن كنت سمكرياً، عندما كنتما تتشاتمان وتسبان الدين لبعضكما البعض، وإن تشاجرتما بالأيدي فليس الشجار الخفيف، كنت ترميها بوابور الجاز وهو مشتعل، أو تفاجئك هي من الخلف بصفيحة ماء تغلي أو تنزل فوق ظهرك بقحف. كانت تناسبك هذه الأيام، أيام العدس والبصارة والفول وجلبابك الذي تفوح منه رائحة العرق والجاز، أما الآن فلا أظن.
تدلعت وتدللت الآن يا مليجي، وهي لا تزال على حالها. منخار كمنخار الجمل. عشرون سنة وهو يصيبك بالكآبة. حاولت أن تنساه ولا فائدة، أن تكفَّ عن التحديق فيه ولم تستطع. فشيء فيك، علة، مرض، رغبة في جَلْد الذات،

حسرة على البخت والنصيب، شيء من هذه الأشياء كان يجذبك إليه ولا ترى أمامك إلا هو. بل تفاقم معك الأمر إلى حد أن هذا الأنف لم يعد يبارح خاطرك، فقد تكون في جلسة مع رجالك أو في جولة بالحارة وتتملى فيه، تتذكره جزءاً جزءاً وفي كافة الأوضاع. وهو في وضع أمامي، أو على شكل بروفيل، وفي أوقات الشخير، أو عندما تمسك الأنفلونزا بمحاسن فيصيبه الاحمرار وتخرج منه أصوات كالفرقعات. وليت المشكلة في المنخار فقط، فليس لهذه (المزغودة) أية فائدة في الحياة أو تعرف الأدب أو لها طلة فيها أنوثة وحياء. كلها كتلة واحدة، وطبعاً لها كَرِش. امرأة لا يشغلها في الدنيا سوى الأكل والطبيخ، وأن تفتح كل يوم الحجرة التي تشونون فيها العطايا التي تأتيكم من الناس، فتجدها في ازدياد فتقبل كف يدها (وجه وظهر) وتحسبه رزقاً من الله، رزق يصلها حتى باب بيتها، مثلما يرزق الله الدودة في بطن الحجر!

حاولت من قبل إشراكها فيما يشغلك، تلقي بأحمالك عليها، تقول لها وتقول لك، تفضفض. أي شيء، وكانت النتائج محبطة!

كانت تسمع منك كلمة والثانية وأقصاها الكلمة الثالثة، وفجأة تقطع حديثك متكلمة في موضوع آخر. ويكون حديثك مهماً وربما خطيراً أو يتعلق بتحديد مصير، إلا أنها تُدْخلك في

تفاهات. تقول لك مثلاً: إن الدجاجة أم ريش أبيض في أسود باضت أخيراً بعد شهرين من الانقطاع، أو تسألك عن عم عليش بائع الجاز، لماذا لم تكلفه بأن يرسل صبيه بصفيحة جاز مثلما قالت لك؟ وتدخل معك في سين وجيم، فتنسد نفسك ولا تكمل معها ما بدأته من حديث. أما إن استمعت إلى حديثك حتى آخره، فسوف تفتيك بفتاوى مؤذية، ولو أخذت بها لرحت في حديد.

توقفت عن إشراكها في أي شيء يخصك، ولو كان في مقدورك لقطعت عنها الكلام نهائياً. عندما ضغطت عليك ليلة الأمس، داورت وادعيت أن سهرك والنوم الذي يجافيك ليس لمشكلة أو هَمّ لا سمح الله، تحججت بما قلته لها من تفاهات.

كنت تكذب يا مليجي! والله كنت تكذب! فأنا على يقين من هذا، وعلى يقين أيضاً من أن الشتمة كانت على لسانك كي تغلق فمها وتسكت، وفكرت في أن تصفعها صفعة من الصفعات التي تكيلها لأوباش الحارة، أو تضع إصبعك في عينيها لو أمكن. كان صدرك حَرِجاً، بالونة تنقصها وخزة وتنفجر، غير أنك لم تجازف وتخرج همك فيها، فأنت أدرَى الناس بردة فعلها لو طُلْتها بكلمة، فما بالك لو مددت يدك، تحملتها وتحملت نفسك، كي تمر الليلة على خير.

***

(٢٤)

لست وحدك الذي كنت مهموماً يا عمنا المليجي، محاسن هي الأخرى كانت مهمومة..

قلبها يحدثها بأنك تخطط للزواج عليها..

زينات، ومن غيرها..

عيناك منها وسيرة أبيها دائماً على لسانك، فلا تعاتبني وتقل: إني أذعت أسرارك، أنت الذي فضحت نفسك.

ألم تعرف قدماك مؤخراً بيت الحاج رزق، عسى أن تدخل عليك زينات بقدح شاي أو كوب عنَّاب، وتتلقف أنت البِنيَّة وتجوس فيها، أردافها، أعطافها، المنحر وتدويرة الصدر، وحبذا لو كان ثوبها شفيفاً فتلمح شيئاً من خفاياها. وفي الحال كان الخبر يصل إلى أم العيال، فهذه التي تحسبها غبية وعبيطة لها جواسيس في كل دار. بل ولم تكن تستحي

obeikandl.com

حتى وأنت في بيتك، لا تمر فرصة إلا وتحرض ابنتك كي تصاحب هذه (الملطوشة) وتدعوها للزيارة، وفي بالك أنك سوف تغافل الجميع وتختلي بها، ويأخذك النزق إلى ما هو أبعد وعيناك غافلتان عن أن لزوجتك قرون استشعار.

أو كنت تحسب أن هذه الأفعال كانت غائبة عنها، ظنك ليس في محله، فصنف الحريم أشطر منك ومني ويشتَمُّ الخطر على بعد أميال. وها هي تتقلب مثلك في الفراش، وتقول لنفسها: منذ متى وأنت تهيم فيها يا قليل الأصل! هذا إذاً الذي يجعلك تسهر الليل.

هكذا فهمت الأمر، وحاولت هذه الليلة بالذات أن تقطع الشك باليقين وتسمعها منك صراحة، ثم تعطيك درساً في الأخلاق بعدها. وإن كنت أحسب أن قلبها كان مطمئناً بعض الشيء، ففي كف يدها المشكلة وفي الكف الأخرى الحل. فهي تعرفك. تعرفك مثلما تعرف أن الدجاجة تبيض والديك يصيح، عجنتك وخبزتك وأكلتك وتجشأتك عشرين سنة، وأحسبها تخمن الآن بأنك ستفكر وتفكر ثم تنام وتصحو لتعاود التفكير، فهذا دأبك، لا تصل إلى رأي أو قرار إلا بصعوبة. وإن تغلب عليك شيطانك وقامرت بالذهاب إلى الحاج رزق طالباً يد زينات، فساعتها سوف تتدخل وتفسد لك كل مخططاتك. هو مرسال واحد إلى أهلها في الصعيد، ويطبون عليك ويسحلونك مثلما تُسحل البهيمة. فلا تكابر

وتقل لي: إنك الفتوة أو حتى شيخ الفتوات، فأنت تعرف هؤلاء الناس أكثر مني. أولاد ليل وأرباب سوابق، وما من واحد فيهم إلا وله ملف في الحكومة، وإذا عرفوا أنك (نكدت) عليها لجاءوا وبَهدَلوك في الحارة. ولا أظنك نسيت ما فعلوه معك من قبل، ويشهد على ذلك الخربوش الذي بعنقك، والبطحة التي لا المراهم ولا الشاش ولا الحقنة التي أخذتها في العضل أتت معها بنتيجة، لهذا وبعد أن أعيتها الحيل وعجزت عن سحبك في الكلام، قالت في نفسها: ملعون أبوك يا مليجي، وإن كنت رجلاً فعلاً ولك شارب فأرني كيف ستفعلها، وشدت عليها اللحاف ونامت..

***

لا حول ولا قوة إلا بالله في زوجتك هذه التي تفهم الأمور بشكل مختلف!

فصحيح أنك مشغول بزينات وتتعشم في أن يضمكما الفراش يوماً ما، إلا أنك هذه الليلة كنت مهموماً بشيء آخر. ففي أول الليل وبعد أن ضجرت من قعدة العم مفتاح، اختليت بنفسك وطفقت تفكر وفي النهاية حسبتها وقلت: لماذا الهم والغم يا مليجي؟ أولاد هارون وبعون الله سوف أجد لهم حلاً، فإقصاؤهم عن الحارة شيء لا مناص منه، وإن لم يحدث اليوم يحدث غداً أو بعد غد، فالمسألة مسألة وقت لا أكثر ولا أقل. الشيخ خميس هو الأمر العاجل، هو الفأر

الذي يعبث في أغراضي ومتاعي ولا بد من كسر أسنانه أولاً أو رشه بمبيد. فالدنيا أولويات، ولن أكون المليجي سبع الحارة وفتوتها إن لم تقطع العيوشة دابر هذا الإنسان، فوالله ثم والله لن أدعك تستغفلني بعد اليوم (يا شايب الكوتشينة)، فأنا المليجي الذي لا يعرف الهزل مع من يسوق الاستعباط في أمور الجد، ولسوف أنتهي منك أولاً ثم أفرغ بعدها لأولاد هارون.

وضعت لنفسك خارطة للطريق، من يلعب بالنار هو أول من تمسك برقبته، وبعده أولاد الحرام الذين يحسبون الأرض الفضاء ورثاً ورثوه من أبيهم!

كيَّفت الأمر على هذا النحو، ثم تعشيت وطلبت الشاي وظننت أنه بذلك ارتحت وحُلت كل المشاكل، غير أن وسواساً جاءك يقول: وما بال أهل الحارة، هل هم معك أم عليك، هل تقصيت يوماً خبرهم وعرفت كيف يزنون الأمور؟

وسواس، خاطر، أنا الذي ألعب في رأسك وأقول، كل هذا لا يهم، المهم أن هذا الشيء جاءك. والحمد لله أنك فطنت إلى أن أهل الحارة يستحقون منك النظر، فسواء غفلت عنهم أو تغافلت هم محل اعتبار وإلا لماذا جاءك هذا الوسواس.
وقمت من قعدتك..

هما رشفتان فقط اللتان رشفتهما من كوب الشاي، ونفضت

عنك سريعاً جلبابك الكشمير، فلا وبر ولا كشمير ولا خاتمك أبو فص أو ساعتك أم كتينة قبل أن تقطع دابر هذا الوسواس. ارتديت أي جلباب وقدماك في أي مداس، ثم لففت شالك القديم حول رأسك وأذنيك. لففته لفة استخباراتية، ولم تأخذ معك العيوشة طبعاً فالحارة كلها تعرفها، ووجودها معك يدل عليك.

بدأت من أول محل الدراجات الذي يملكه الشيخ خميس، كان مغلقاً ودراجة من دراجاته مركونة بحذاء الباب، وشيء كالمنديل أو الخرقة لونه أسود ومعقود عقدة غريبة بطرف المِقْوَد. لم تلمسه. احتطت منه. أوَّلته على أنه تَمِيمة أو تعويذة، غير أنك سرعان ما لفظت هذا التأويل، فالشيخ خميس في تقديرك أخطر من هذا. رجحت أنه شفرة، إشارة، كلمة سر أو تكليف منه لأحد رجاله بأن يفعل فعلة ما هذه الليلة!

واستعذت بالله ومشيت وأنت تمر بعينيك سريعاً على الزاوية، فدكان متران في ثلاثة أمتار يبيع الترابيس والمسامير، ثم أكملت حتى وصلت إلى بيت المعلم عباس. أنت تعرف طبعاً أن خميس يستأجر الشقة التي بالدور الأول، فهذا الذي أفهمته لك من قبل. وقفت وقفة أشبه بوقفة اللصوص ثم تطلعت إلى الشبابيك، كلها مغلقة ولا بصيص نور واحد يأتي من الداخل، فهل ناموا؟

ليس معقولاً! فنحن لا نزال في أول الليل. وتلحظ أن شبابيك عباس هي الأخرى على نفس الشاكلة، أيكونان معاً في مشوار؟ أم سمكرا الشبابيك وقطعا النَّفَس لأمر ما يرتبانه في الداخل؟ أتقتحم عليهما البيت؟ ردَّة فعل متهورة وتصرف طائش.

ويمر على بالك عندما كانا يخرجان معاً من الزاوية، الباط في الباط ولا يكفان عن الوَدْوَدة، رأيتهما أكثر من مرة على هذه الحالة. وهل نسيت الجحش؟ الجحش الذي أهداه عباس لخميس ليقضي به مشاويره، فهل سمعنا من قبل عن أحد يهدي جحشاً لأحد إلا لسبب، يقبلها العقل لو كانت الهدية للفتوة أما لواحد من عامة الناس وهكذا ببلاش، فالمسألة محل شك! كما أن بردعة الجحش ولجام الجحش والعلف والشعير والبرسيم، كله كله على حساب زريبة المعلم عباس، فما معنى هذا؟

وتتلفت يميناً ويساراً حتى تصل إلى مقهى الحنش..

المقهى هنا إلى اليسار، وهي كما ترى لا تزال ساهرة وبها ثلة مساطيل. الجلوس كلهم، من يمسك بجوزة أو بفمه مبسم شيشة أو بيده سيجارة ملفوفة، كلهم وبلا استثناء يخوضون في سيرة (عسلية)، ولا أظنك غافياً عمن هو عسلية؟ فهو اسمك الكودي..

ويسبون ويلعنون، وفجأة وبلا أية مقدمات ينفجرون في

obeikandi.com

قهقهة طويلة. ألم أقل لك إنهم مساطيل. وهل لاحظت هذا التخين أبو كرش الذي يروح ويجيء أمامهم بعصاً متصوراً إياها العيوشة، ويتبختر في مشيته مقلداً مشيتك في الحارة، أو هذا المسطول الذي نَحَّى غابة الجوزة ثم رزع عليك نكتة قلبت المقهى رأساً على عقب.

لا تلمهم يا مليجي، فأنت سيد الحشاشين وأعلم مني بالمساطيل عندما تفلت ألسنتهم من عقالها.

والآن هل نتوقف وترجع من سكات إلى بيتك، أم تريد المزيد؟

تريد المزيد! لا مانع..

على اليسار أيضاً ولكن بعد دكان، وها هو الثاني فالثالث، ونصل إلى حانوت الحلاقة وإلى العم زاهر بطاقيته البيضاء والنظارة. العم زاهر الذي لم تضع في كفه سحتوتاً واحداً منذ أن تربعت على عرش الفتونة، تحلق عنده بالمجان أنت وأولادك وجيرانك وضيوفك، فقل لي بالله عليك ما الذي تتوقعه من هذا البني آدم؟

يجري بالمقص على شعر الزبون الذي أمامه ولسانه يقطعك تقطيعاً، ونقاط ضعفك يا برنس لا تُحصى ولا تُعد. ولو دققت بعينيك قليلاً ستجد صبيه (حمادة) يقف في ركن المحل وبيده فوطة، والولد أذناه تسمعان وتسجلان، وعندما يرجع لبيته سوف يحكي لأمه وأبيه وأخته وأخيه، والأم

تحكي لجاراتها والأب يحكي والكل يحكي، وفضيحتك ستكون على كل لسان.

انسدت نفسك، لم تكن تحسب أن قلة الأدب يمكن أن تصل إلى هذا الحد!

تفكر في العودة إلى البيت، اكتفيت، غير أنه خرقت أذنيك فجأة كلمة (المليجي), المليجي هكذا (حاف) دون أن يسبقها أي لفظ يدل على الاحترام، فلا قيل: حضرة الفتوة أو سِيدنا المليجي أو حتى أبا سعيد..

تجننت، فأكيد أنت المقصود، وتلفَّت نحو مصدر الصوت إلى أن سقطت عيناك على امرأتين تسيران على الطوار أمامك. واحدة سمينة وبيدها كوز والثانية طويلة وفوق رأسها إبريق. كانتا تثرثران بصوت مرتفع، وبعد أن فرغتا من حكاية (أم خفاجة) بائعة الفول النابت التي دهسها حنطور وخرجت منها سليمة، بدأتا تنكشان فروتك!

صاحبة الكوز هي التي بدأت بالكلام، أظنك سمعتها وهي تقول إنك فتوة (خِرِع)، ولو كان الزمن زمن العم مفتاح ما تجرأ أحد على الحارة.

والتي تحمل الإبريق تؤمِّن على كلامها وتتنهد: عم مفتاح! فينك وفين أيامك يا سِيد الرجالة، رحت يا صقر وأبو قردان هو اللي قعد مطرحك!

فتعقب صاحبة الكوز: بأنها سمعت من عواجيز الحارة أنه

Obeikandi.com

لا أصل لك ولا فصل، لمامة وطَبِّت على الحارة.

وتردف وهي تغالب الضحك، ناسبة كلامها أيضاً إلى العواجيز: بأنك وفي أول زمانك عندما كان يضيق بكما الحال أنت وبنت المركوب زوجتك، كانت تبرك هي على الأرض، عيل فمه في ثديها وآخر ممدد في حِجْرها، وتشوي الذرة وتبيع الكوز بمليم ومليمين. وأنت يا عِرَّة لا كرامة لك ولا كنت تستحي، كنت (تتصلطح) إلى جوارها وهات يا نوم، وفي آخر النهار تتعشى من عرقها.

فتسري عدوى الضحك في حاملة الإبريق، تضحك ضحكة عالية وهي تداري وجهها في إبطها، ورفيقتها تزغدها كي لا ينتبه إليهما أحد.

كانتا تنهشان في سيرتك، أصلك وفصلك وامرأتك وعيالك، وأنك عبد بربري لا لزوم له في الحياة والأفضل لك وللحارة أن تدع الفتونة وترجع لكارك القديم، إصلاح الكلوبات وتسليك البوابير. ويأخذهما الكلام فتبطئان مرة وتقفان مرة أو تركنان بظهريهما إلى أي جدار، والكلام كله عليه وفوقه الضحك والكركرة. نسوة وهذا هو حالهن إذا أمسكن بسيرة إنسان. وأنت وراءهما كاتماً غيظك إلى أن شعرتا بك. لم تعرفاك . لم يَدُرْ ببالهما مطلقاً أنك الفتوة. أوَّلتا الأمر على أنك وسخ من أوساخ الحارة تتحرش بهما، وشدت إحداهما الأخرى من كُمِّها وفي لمح البصر عبرتا

الشارع. انحرفتا نحو محل (زكي) الموان تستنجدان به، وأنت تقول في نفسك: آه يا أولاد البراطيش! وهكذا علناً في الطريق! ولولا أنك خفت الفضيحة، للحقت بهما ونزلت عليهما بالمداس.

وقفلت راجعاً، خفت أن يصدقهما زكي الموان ويزعق على الناس كي يمسكوا بك، وساعتها ما الحل يا بطل؟ وكيف تبرر لأهل الحارة الوضع الذي وجدوك فيه وأن الفتوة يتحرش بالنسوة في الطرقات! عدت سريعاً سريعاً، كنت تجري تقريباً، لم تلتقط أنفاسك إلا عند الأرض الفضاء، قلت: أداري نفسي هنا، حتى يهدأ الأمر ويزول هذا الالتباس. وفي نفس اللحظة كان ثلاثة من رجال هارون يتقرفصون حول راكية نار ويشربون الشاي، كانوا يجلسون على حافة الأرض الفضاء تقريباً. يبدو أنهم رأوك وربما أيضاً عرفوك. نهض الثلاثة في الحال، لم يقتربوا منك أو تجهزوا لك بعصيهم، طفقوا يرمقونك فقط ولما اطمأنوا أنه ليس كميناً ولا ملعوباً من ألاعيبك، عادوا إلى الشاي إلا واحداً تأملك باحترام. أظنه الرجل الذي بطحه العيال في المناوشة إياها، طبعاً تتذكره وأكيد تتذكر أنه لولاك لكان أهل الحارة قطعوه مائة قطعة. حياك الرجل بأدب ودعاك لشرب الشاي، فأشرت له بأن شكراً شكراً، وأعطيته ظهرك وأنت تقول في نفسك: أشرب معكم الشاي! يا فرحتي! هذا

ما كان ناقصاً!

وابتعدت تسترجع كلام المرأتين، غير مصدق أنك أصبحت هزؤاً إلى هذه الدرجة!

ما بال الناس، وما بال الحارة!

الحارة الطيبة الهادئة التي كلها دجاج وإوز وبط، بها الآن ثعالب وعقارب وأفاعٍ، وإن لم تحذر فأنت على وشك أن تنال لدغة أو خربوشاً.

فهل تصورت يوماً أن تمرمغ امرأتان اسمك في الوحل هكذا، أو أن العم زاهر الغلبان المنكسر يخرج من فمه كل هذا، أما هذه النفايات التي تعشش في مقهى الحنش فلا حل لها إلا حظر التجوال وأن يلزموا البيوت من بعد المغرب حتى صباح اليوم التالي.

وما حكاية العم مفتاح؟

أمعقول أن هذا العجوز الكركوبة لا يزال حياً في خيال الحارة؟ أمعقول أن الناس تعايرك به وتقيس زمانه بزمانك؟ ألم تسمع بنفسك صاحبة الكوز وهي تقول: يا ليت يوماً من أيامه، والمجرمة حاملة الإبريق تعتبره صقراً وأنت أبو قردان!

ما هذه الدنيا التي تسخر منك يا مليجي، فحتى أعور العين أصبح خطراً عليك، ودخل في زمرة من يعمل لهم حساباً،

obeikandl.com

مزحة هذه أم كابوس!

***

obeikandl.com

(٢٥)

يكفيك ما شهدته الليلة يا مليجي، وأنصحك بالرجوع إلى البيت..

يكفيك فأنت بشر من دم ولحم، ولك حدود في الاحتمال..

وإذا كان هذا هو رأي الناس فيك وسُمْعتك كما هو واضح أصبحت في الوحل، فأنت السبب، فلو كنت سمعت كلامي وحسمت أمرك مع أولاد هارون منذ البداية ما كان كل هذا قد حدث، ولربما تجاوز الناس عن أفعالك مثلما فعلوا من قبل مع العم مفتاح.

والآن ارجع إلى بيتك وشد عليك الغطاء، ومن أول الصباح ركز مع أولاد هارون، وضع في اعتبارك أن هذا آخر إنذار أوجهه لك، أَوَتحسب أني اخترتك بطلاً لهذا المسلسل لإعجابي بشاربك أو بهذه الكوفية الحرير التي تطوق بها

obeikandl.com

رقبتك، أنت واهم وخيالك أخذك لبعيد، وإن أردتها كلمة صريحة فقد بدأت أشعر بالسأم منك وأنك فعلاً أصبحت عبئاً عليَّ.

ما هذا يا جناب الفتوة، ألا يعجبك كلامي؟

تغمغم وتبرطم وتشيح لي بيدك غير مكترث بما أقول، ولا حتى رجعت إلى بيتك مثلما أشرت عليك. تتجه مباشرة إلى الزاوية، فهل الشيخ خميس يشغل بالك إلى هذا الحد؟

أنت حر، افعل ما يريحك، وإن لم تصلني نتائج سريعة فمآلك الطرد نهائياً من هذا المسلسل، شأنك شأن زوجتك القديمة إنصاف.

***

باب الزاوية ليس موصداً، وهذه أول غلطة أمسكتها لخميس، فهل هناك صلاة الساعة الواحدة صباحاً حتى يفتح الباب للناس!

كان مواربأً، وضوء خافت ينبعث من لمبة جاز. دفعته بغضب ودخلت. لحظة ووقفت. وقفت تلوم نفسك وتبكِّتها، فالبيت بيت الله ودفعه بغلظة هكذا غلطة لا تغتفر. ولعنت خميس وكل من صادفوك هذه الليلة، فهم السبب، هم الذين عصبوك، ووضعت مداسك تحت إبطك وشرعت في السير بخشوع وأدب. بدأت (بالميضة)، فتحت أبوابها واحداً بعد واحد، وتذكرت أنك لست على وضوء فتوضأت وصليت

ركعتين لله. كنت تصلي بضمير، وتكثر من الدعاء طالباً الرحمة والعون، فالمسألة ليست مسألة خميس فقط ولا حتى أولاد هارون، العم مفتاح هو الآخر انضم إلى الركب.

كنت تصلي جهراً وتدعو الله أن يزيح هؤلاء الأنذال عن طريقك، وأن يشد أزرك ويقويك، فأنت عبده المليجي صاحب التركة الثقيلة، عبده المؤمن المسكين المطيع. جذبتني نبرة صوتك، سواء وأنت تقرأ القرآن أو وأنت تدعو وتبتهل. الصوت العذب الرخيم هبة من الله، وهكذا جئت يا مليجي للحياة، وأقول لك الحق انطلت عليَّ حلاوته، حتى كدت أصدقك وأتعاطف معك. ألم أقل لك من قبل إنك لو احترفت الغناء، لن يقف في وجهك أحد. وعندما سمعتك الآن، لا يخالجني أي شك في أنك لو دخلت مضمار التواشيح وتلاوة القرآن سوف تربك الشيوخ، وربما ارتقيت إلى مقام الشيخين (النقشبندي) أو (مصطفى إسماعيل). والمُلْفت أنني عندما دققت في وجهك هذه الليلة، لاحظت (زبيبة) بحجم حبة الترمس تزين جبهتك، وهذا شيء لا أعرف كيف فات عليَّ من قبل.

بعد أن فرغت من الصلاة، تلفت حولك باحثاً عن الشيخ خميس غير أنك لم تعثر عليه، فسألت نفسك: أين يا تُرى ذهب هذا الزفت؟ ولماذا ترك باب الزاوية مفتوحاً على خلاف ما أمرت؟

ومن غيظك منه طفقت تبحث له عن غلطة، وقفت تتحسس أركان المنبر لعلك تعثر على ذرة غبار، وتبحث في الأرض عن ورقة ملقاة أو أي شيء لا سمح الله (يعوص) الأكلمة والحصير، وهل المصاحف مبعثرة أم مرصوصة بنظام فوق الرف؟

كان في بالك أنك لو أمسكت له بغلطة، سوف تهينه وتؤدبه أمام كل الحارة، ولأني أفهمك أعرف أن هذه الغلطة ليست إلا تكئة. فالاسم أنك تؤدب حفاظاً على الزاوية، والحقيقة أنك تبطش وتعاقب لسبب في نفس (يعقوب).

لم تجد شيئاً، ومهما بحثت لن تجد، فأنت لا تلعب مع عيل أو مجرد تلميذ، الشيخ خميس ليس بالرجل الهين ولن تصل معه بتاتاً لنتيجة.

وجاءتك فكرة، لماذا لا تبليه بتهمة؟

سرقة مثلاً!

سرقة أي شيء من متعلقات الزاوية، أو حتى المنبر ذاته. رجلك (غراب) هو المتخصص في الأعمال القذرة، له سوابق لا حصر لها في القفز على البيوت وسرقة الخراف والمعيز، حتى الدجاج والكتاكيت والأشياء المنشورة على حبل الغسيل لم تكن تنجو منه. لن يستعصي عليه المنبر، يأخذ معه اثنين من أقربائه النَّوَر، يخلعانه ويخفيانه في أي مطرح، وتدس أنت واحداً من هلافيتك بين الناس، يولول

obeikandl.com

ويحلف بأنه رأى بعينيه الشيخ خميس وهو يضع المنبر فوق ظهر جمل، ويخرج به خلسة من الحارة قبل صلاة الفجر.

ستكون فضيحة ويتجمع الناس، ومن يقلب كفيه ومن يقول: الشيخ خميس! شيخ الزاوية! أعوذ بالله! المنبر الذي يقف عليه كل جمعة ويخطب في الناس! شيخ هذا أم كافر وابن لئيمة! وتتدخل أنت غاضباً، وتهوي على ظهره بالخيزرانة وتجعله عبرة للحارة.

تبتسم..

راقت لك الفكرة، غير أنك لم تشأ تنفيذها الآن، خزنتها في كيسك للأيام القادمة..

***

تهمُّ بالخروج بعدها، ولأن قدرتك على الإبصار ليست (ستة على ستة) لم تلحظ الرجل المتكوم بجوار آخر عمود. الرجل يغط في النوم، وشال عمامته مطوي أربع طيات وفوقه نبوت. حظه العَسِر هو الذي جعله يسعل، وتسمع أنت سعلته. الرجل ما شاء الله كما الفحل، وهي هي اللحية والشارب الحليق.

يابن ستين في سبعين، ما كل هذا الجسد! كأنك نزلت من رحم أنثى خرتيت، وفوق هذا معك نبوت!

تركله بقدمك، فيدير لك ظهره ويستمر في الشخير.

يا سلام، وتشخر!

وتتذكر النبابيت، النبابيت الثلاثة التي لقيتها هنا قبل أيام وكلمت عنها خميس، فإلى الآن لم يَجِئْك خبرها.

وتدقق في هذا الشيخ النائم. وجهه كئيب، وأربع أو خمس ندب على الأقل بجبهته ووجنتيه، ومثلها بذراعه ورقبته. ندب ذات مساحات ومنها ما هو عميق. لا أظنه ولد بها، أكيد من جراء عراك وضربات سكاكين. سحنة شيخ هذه أم سحنة بلطجي! وهاجس يؤكد لك بأنه ليس نائماً، (يستهبل) عليك، يفتح عينيه ويغلقهما كلما غفلت عنه.

تفكر في إيقاظه بالقوة، أن تسحبه إلى خارج الزاوية وتتعامل معه، غير أنك ترددت، خشيت من العواقب، فالرجل ضعف حجمك تقريباً وربما بهدل كرامتك. تتحاشاه وتدع الزاوية، ودفقة غضب تمسك بك..

ما هذا الذي أنا فيه! فأين بقية الرجال؟ غراب والدكروري والبغل، أولاد الأفاعي هؤلاء ألا يتبصصون، ألا يعسُّون! إيبه يا شيخ خميس، أكيد هذا الحلوف واحد من أتباعك، فأي ريح سَمُوم ألقت بك في قرعتي. جئتني حافياً من مركز أبو صوير وأنا الذي سمحت لك بفتح محل الدراجات، أنا أيضاً الذي أذنت لك بأن تؤم الناس وتطلق الأذان، بل وأغمضت عيني عندما تجاوزت مع (درويش) المنجد ظناً منك أنه يشرب الخمر. ذهبت إليه وفي قلب دكانه وأمام كل الناس

أذقته علقة ساخنة، لا شاورتني ولا احترمتني ولا أي شيء، هكذا من نفسك، وعندما جرجرك الدكروري ورماك أمامي وضعت المصحف على عينيك وأدخلتني في دوامة من الحلفانات. وهل نسيت ما فعلته مع (قطامش) والمرأة التي اسمها (أُمّ عصفور)، كل هذا مررته لك وأنت لا تستحي. أنا السبب، أنا الذي تهاونت معك ولم أقصم ظهرك مع أول فعلة فعلتها.

والآن تريد اللعب معي؟

مع المليجي يابن الكلب!

فهل أسحبك من قفاك الآن وأدعك للعيوشة، فمن زمن لم تَهْوِ على رأس أحد.

وتخرج وأنت تلعن خميس وأبا خميس وجد خميس، وكل صنف البشر الذي هو منهم..

***

وترجع مغموماً إلي البيت..

والهانم زوجتك تسألك مرة واثنتين وثلاثة عما بك، ثم تحسب في رأسها الحسبة التي سبق أن قلناها وتنام وتخلفك ساهراً.

فعلاً مهزلة!

أولاد هارون يظنونك صديقاً ويدعونك لشرب الشاي، والذين يسمونك (عسلية)، أما خميس فوحده حكاية، وتكتمل

Opeikandil.com

الملهاة بهذا العجوز الذي يبول على نفسه، فهل لك متسع أنت الآخر يا عم مفتاح!

جو ملبد بالغيوم ولا سبيل أمامك إلا المواجهة، فأنت في لحظة فارقة وكل هؤلاء الذين يناوئونك لا يفهمون إلا لغة النبوت.

وتأخذ وتعطي مع نفسك وتقول: العم مفتاح لا يمثل لي أدنى مشكلة، أمره في غاية البساطة، عجوز لا حول له ولا قوة، وليس معه نفر واحد. مخه هو بيت القصيد، أعصره عصراً وآخذ منه كل المفيد، وبعدها إلى حيث ألقت ويغور مثلما تغور النفايات.

يعظمه الناس ويقولون: ولا يوم من أيامه!

كل هذا كلام فارغ، كلام في الماضي وفيما فات ليس وراءه إلا الإثارة والبلبلة، وأنا الآن في الحاضر وليس فيما حدث في الزمن القديم، في الخطط والعراك والجماعات التي في أيديها نبابيت، وفي حاجة لكل لحظة ودقيقة ولا وقت عندي لهذه الترهات.

فأرني يا أعور العين، ما الذي سوف تجنيه من كلام الناس!

عمر بطوله وأنا أقدرك، لكن أن تدخل في ملعبي ولو حتى بجهل وعن غير قصد، فهذا ما لا أحبه ولا أطيقه وهي نفخة أنفخها فيك وتطير من أمامي..

أما أنت يا شيخ خميس، فلا تحسبن أنك مُسْتعصٍ على الحل..

أول شيء فيك أنك كذاب ولئيم، وهذه مسألة منتهية وأعرفها مثلما أعرف أسماء أولادي، وما الذي أكلته في إفطاري هذا الصباح. الشيء الذي يثير القلق، هو هل لك فعلاً رجال وعندك نبابيت؟

هذا أمر لم أتيقن منه بعد، الأيام وحدها هي التي سوف توافيني بالإجابة، وأعرف منها إن كان لك مخالب أم أنك مجرد قنصل من قناصل الإوز!

وإن كانت الحيطة منك أمراً مطلوباً، وأفضل حل لك يا ألْعُبان أن أفرغ نهائياً منك، أسحبك أنت ورجالك إلى العركة التي نويت عليها مع أولاد هارون. هذا إذا كان شكي في محله ولك فعلاً رجال، أما إن تبين لي أنك (مَلْط) ولا تحتكم على نفر واحد، فوالله وبحق الأيام والليالي التي لاوعتني فيها لن أتركك، ستقف بعمامتك في أول صف وبيدك نبوت، كتفاً بكتف مع الذكروري وغراب والبغل وباقي الرجال، فمن يدري! لعلك تموت، أو تنال ضربة تصيبك بالشلل! وترتاح..

ترتاح يا مليجي، بعد أن بلورت المسألة وخرجت بهذا الحل. لم تقع أسيراً لخارطة الطريق التي وضعتها من قبل، تحليت بالمرونة وواكبت الظروف، وها أنا أراك عازماً

obeikandl.com

على أن تبدأ بالعراك أولاً مع أولاد هارون. عراك إن رحت فيه بكاك الناس وربما خلدوك بعدها على الربابة، وإن فزت وضعت إصبعك في عين أتخن رجل في الحارة، وفلقت رأس خميس ومفتاح وكل أعدائك، وأنت البطل فمن حقك ساعتها أن تتزوج زينات وجد زينات وكل واحد معه فلوس في الحارة.

***

obeikandl.com

(٢٦)

ثلاث ليالٍ والنوم يجافيك..

نومك أشبه بنوم القطط، تغفو دقيقتين وتصحو دقيقة، بالك مشغول وعقلك يعمل بأقصى طاقته.

ضربة نبوتك معروفة ويشهد لها البعيد قبل القريب، وإذا اشتبكت مع أحد فحتماً أنت الكسبان. رجالك أيضاً ليسوا هواة، فالدكروري وغراب والبغل عمالقة في هذا الفن، وأي واحد منهم قادر على قصم ظهر أي إنسان بضربة واحدة.

المشكلة أن عركتكم مع أولاد هارون لن تكون بهذا الشكل، ليست تشمير أكمام وعصياً ترفع في الهواء وزياطاً وزعيقاً يعقبه تهليل للفائز. لن تقع بهذه الصورة. سوف تنحو منحىً آخر. الحارتان تقريباً ستقفان لبعضهما البعض، وعراكهما

obeikandl.com

سيكون عراك حياة أو موت. حدث كبير سوف يقع. شيء عموده المراوغة والتخطيط، وأنسب وقت لساعة الصفر وأين توضع الأكمنة، بل كيف تضرب ضربتك سريعاً سريعاً قبل أن ينتبه فتوات الحارات المجاورة. ألم يقل لك العم مفتاح من قبل، بأن الورداني فتوة شادر السمك كان مدعواً عند أولاد هارون منذ عدة أيام، فمن أدراك أنها دعوة بريئة، أكلوا وشربوا وانصرف كل منهم بعدها إلى حاله، من أدراك؟ أليس من الجائز أن أشياء دبرت في الخفاء.

لا أظن أن هذه الأمور غائبة عنك، لكن اسمح لي أن أقول لك أيضاً بأن العم مفتاح أمهر منك بكثير فيها. فإذا كنت تأخذ وتعطي مع نفسك الآن، ويوسوس لك الشيطان بأنك قادر على إنجاز هذه المهمة وحدك، فأنت غلطان وسوف تورط الحارة ورطة كبيرة، ومن غير المستبعد أن تجثو على ركبتيها في بركة وحل. فاسمع مني النصيحة ولا تتأثر بما قالته عنك صاحبتا الكوز والإبريق، أو رغبتك في أن تبدو أمام الناس بأنك لست أقلَّ من هذا العجوز، اعرف قدر نفسك يا مليجي وخذ رأيه واستعن به.

***

ويؤذن للفجر..

يأتيك الأذان وأنت لا تزال تتقلب في الفراش، ومن أول ما سمعت كلمة: الله أكبر الله أكبر، عرفت على الفور أنه

خميس. لا تعجبك نبرة صوته ولا طريقته. لا تعجبك بالمرة. أنت تفهم في الأصوات جيداً وهكذا قدرت الأمر. تشعر بأن صوته ليس صوت بشر، مأمأة خروف، ويرمي الأذان رمياً كمن يطلق دانات من فوهة مدفع. الأذان كله على هذه الوتيرة، غلظة في غشم في خشونة، فلا تموجات تجذب القلب ولا رقرقة ولا عذوبة. وكردة فعل تلقائية، تستدعي نفسك صوت الشيخ (محمد رفعت). يأتيك أذانه من الذاكرة. أذان خاشع رقيق. يلمس قلبك بحنو ورفق، وتهيم فيه نفسك القلقة المشوشة. وشيئاً فشيئاً ينتابك السكون. سكون لطيف شفيف تهيم فيه الروح بعيداً عن الجسد. لحظة وَجْد لا تعرف منها إن كنت هناك أم لا تزال قابعاً في موضعك. لحظة لا عشتها ولا عرفتها من قبل، وكأنه لا حائل بينك وبين الله، لا فضاء ولا أرض ولا سماء. وأنك تناجيه. تناجيه بلغة غير لغة الكلام. تعطلت شفتاك تماماً ومعهما لسانك، قلبك هو الذي ينبض ويحس. وخاطر يحمل لك رسائل اطمئنان بألا تيأس أو تبتئس، وألا تخاف أو تخور، فالله معك، ولن يضيعك أبداً يوم اللقاء بأولاد هارون.

لحظة ليست من صنعك، ولا هي بنت غفوة وتوهان أو تخضع لحساب وميزان. لحظة قلما تجيء، غير أنك لم تمسك بها. لم تدم معك سوى دقيقة أو دقيقتين. ربما لأن روحك ليست مهيأة لأن تتحمل أكثر، ليس ربما بل أكيد

فهذه هي الحقيقة بكل أسف. وعدت ثانية إلى حالك الأول، حالك المعتاد، حيث نفخة الفتونة والمليجي الذي يحب ويكره، المليجي الذي يعدل ويشفق وفي نفس اللحظة يفجُر ويظلم. وترفع عنك الغطاء وتقوم، وعلى السريع تتوضأ وعلى السريع أيضاً تخطف ركعتي الفجر. تؤديهما بربع تركيز، وحالك حال من يسعل أو يعطس أو يمارس طقساً من طقوسه المعتادة. ولِمَ لا، فأنت الآن المليجي بشحمه ولحمه وقبضته ونبوته، وليس المليجي الذي كان هائماً في الله قبل قليل. وبعد الشال الذي لففت به رأسك والساعة والحذاء ورشة عطر على صدر الجلباب استعداداً للخروج، تلقي نظرة على زوجتك النائمة. تقاطيع وجهها مستفزة، شعرها منكوش، والأدهى قدمها البارزة من طرف الغطاء، تذكرك بأرجل الحيوانات. تستعيذ بالله من كآبة المنظر وسوء البخت وتقول لنفسك بحنق: تسع ساعات يا مجرمة وأنتِ على جنب واحد، وأنا لم أنم سوى تسع دقائق! ما الفرق يا رب بين هذه الحيزبون والشيخ خميس! بل ما الفرق بينها وبين هذا الحشاش الذي رزع عليَّ نكتة بمقهى الحنش، أو حتى (يعقوب) نفسه فتوة حارة هارون؟! كلهم أعداء وأولاد ... وتستحي من نطق الشتمة القبيحة التي قفزت على لسانك، ولو كان في مقدورك لناولتها لكمة أو حتى خنقتها، أي شيء من هذا القَبيل تعبر به عن رأيك فيها.

وترزع الباب عليها وتخرج من البيت..

الحارة لا تزال في غيبوبة. الناس لم تخرج بعد من البيوت، والكلاب ترقد أمام العتبات أو بعرض الطريق. تشعر بك وأنت تمضي بجوارها، كلها تعرفك وتهز لك ذيولها، ومنها من يتثاءب أو يرفع رأسه لك بامتنان ثم يعود إلى غفوته. من يومك وأنت تثني على الكلاب وتتأملها بإعجاب. تحرس بلا أجر، وترضى بكسرة خبز، وتسمع الكلام صواباً كان أم خطأ، وفي إظهار الشكر ورد الجميل ليس لها مثيل. فآهٍ من أهل الحارة، آهٍ لو يلاحظوا هذه الخصال ويتحلوا بها، أليست خصالاً جميلة وأصحابها كائنات خلقها الله مثلهم مثلها!

لا ترغب في التجول بالحارة، تفعل ذلك كل يوم وبالليل والنهار، تدعها وتخوض في الخرابات التي حولها.

المنظر قبيح، وكل خرابة ألعن من أختها..

بيوت من خشب وصفيح لا باب لها ولا شباك، سحالي وهوام تدخل وتخرج من الخروم والفتحات، وعلى مسافة منك حماران يتبادلان الركلات على أربعة أعواد من البرسيم. وعيال كالخنافس استيقظت وتلعب في الطين، كلهم بقطعة ملابس واحدة، إما سروال أو فانلة على اللحم. يذكِّرونك بزمنك القديم، فقد عشت ربع عمرك تقريباً على هذا الوضع، ولم تبدأ جدتك عيوشة في إلباسك سروالاً

داخلياً إلا بعد أن بلغت العاشرة.

المنظر فعلاً مستفز، لكن ما الذي بيدك؟ هذه هي حارتك وهذه هي ضواحيها!

تشفق على هؤلاء الناس، لكن الصبر فما الذي تقدر عليه الآن؟

أنت في مفترق طرق وحملك ثقيل، فأولاد هارون ليسوا بالشيء السهل، والخطوة التي عزمت عليها خطوة كبيرة. فإن أفلحت يا بطل زهزهت لك الدنيا وذاع صيتك وصيت الحارة، وإن هلكت هلكت معك الحارة وربما مد أولاد هارون أيديهم إلى نصفها أو أخذوها منكم كلها.

يزعجك هذا الخاطر، وتقسم بينك وبين نفسك إنه لن يحدث أبداً طالما أنك على قيد الحياة، وإن أفلحت لن تنسى أهلك وناسك، ستفعل لهم كل ما في استطاعتك. والحارة بفضل مخك الجبار سوف تصبح كالحارات الكبيرة، شوارع بالطول والعرض، وكالات إلى جوار بعضها البعض كما لو أننا في الموسكي أو الغورية، ورش ومدابغ، بيوت من خمسة وستة أدوار، والناس تلبس الحرير والصوف بدلاً من البفتة والكستور، ولا مكان في الحارة للحفاة، البُلغ والشباشب هي أقل شيء ترضى به وإن أمكن فالجوارب والأحذية. كل هذا في دماغك فأنت لست غافلاً عما حولك، وانشغالك بالمستقبل هو هو انشغالك بالحاضر، فأنت فتوة

له تطلعات ولست مجرد فتوة راح وجاء كالفتوات الذين سبقوك، البهنسي والغزولي وأبو جاموس، أو حتى فتوة ذي بصمة كالعم مفتاح، أنت أكبر من كل هؤلاء.

هكذا كنت تقول لنفسك وهكذا شطح بك الخيال حتى ظهرت الشمس وكثرت الحركة، فرجعت إلى البيت لتجد زوجتك محاسن نائمة بعرض السرير، دفعتها بعنف وبقدر ما تستطيع حتى تخلت لك عن ربع متر بالعرض ومتر ونصف بالطول تنام فيه. طفقت نائماً حتى أذان الظهر، وأول شيء تذكرته وأنت تدع السرير الحُلْم الذي جاءتك فيه جدتك عيوشة. لم يستغرق أكثر من دقيقة. مجرد لقطة لا كلام فيها ولا حركة. رأيتها واقفة أمامك، وجهها أشد نضرة عما كانت عليه في الحياة، وعودها أكثر طولاً وعرضاً وصحة، وجيدها ملفوف بحبل تتدلى منه عدة سكاكين.

جاءت وراحت وفرغ الحُلْم، فأوَّلته أنت على أنه بُشْرة خير ورؤيا، وما دامت جاءتك هكذا بزي القتال فقد حانت الساعة ولا تلكؤ بعد الآن، وحالاً حالاً تكلف خادمك (أبو اليسر) بأن يأتيك فوراً بالعم مفتاح.

***

obeikandi.com

(٢٧)

شمس الظهيرة لا تطاق والذباب في أقصى درجات الرذالة، والعم مفتاح على بعد أمتار قادماً نحوك. ترمقه بإمعان وهو يجرجر ساقيه وأنت تسأل نفسك: كيف قُدِّر لهذا المخلوق أن يعيش كل هذا العمر، دون أن تبلى خلية واحدة من خلايا دماغه؟

خادمك أبو اليسر يسحبه من كُمّ الجلباب، وها هما عبرا نهر الشارع وخطوات ويقفان أمامك. وإلى الآن لا يزال العم مفتاح يظلل بكف يده فوق عينه السليمة، ويخمن عما إذا كنت أنت الذي تجلس فوق الدكة أم ولدك سعيد، لم يتأكد إلا بعد أن سمع صوتك وأنت تنادي على الشبل سماحة، بأن يسعفك حالاً بمنشة من الخوص تهش بها هذا الذباب الذي يلسع ساقيك.

obeikandi.com

تقول له مباشرة وهم يهم بالجلوس إلى جوارك: إنه فرغ صبرك ولم تعد تطيق، فيلتقط أنفاسه ويقول لك قولته الشهيرة: الصبر مفتاح الفرج، وكل معضلة بإذن الله لها حل.

تحدق فيه بوجه عابس وأنت تقول: اسمع يا مفتاح، إن كان لديك كلام مفيد فأتني به، فليس عندي وقت للملاوعة وكلام المَسَاطب، فيلحظ أنك تخاطبه باسمه مباشرة دون أن تسبقه بكلمة (العم) مثلما تعودت، وهذه بداية لا تريح. يلحظ أيضاً أن المسألة دخلت معك في طور الجد، والله أعلم بردة فعلك إن لم يسرع بهذا المفيد الذي تطلبه، ورغم ذلك يناور ويحاول أخذك بعيداً، يتأمل سبابتك المتورمة ويسألك، فبالأمس كانت سليمة فما الذي حدث لها والعياذ بالله؟

تتعجب من كلاحته وتقول له بحنق: دعنا لما نحن فيه، فيصمت ويهبط بعنقه في قَبَّة الجلباب. ثُلّة من العيال على مقربة تلعب بفوارغ من الزجاج والصفيح، طفق يتأملها وعينه بين الحين والحين تتلصص على ما يدور فوق وجهك. ويطول بينكما الصمت حتى تلتقي أعينكما، فتقول له: هل عندك حلّ لما نحن فيه، أم تضع قدميك في مداسك وترحل؟ فيطأطئ رأسه مفكراً وأول ما يراك تسحب سيجارة من علبة الدخان، يسرع بإشعال عود ثقاب ويقترب به منك، فتدنو بوجهك من اللهب الخارج من العود وهو يهمس في

Obeikandl.com

أذنك بأنه يخبِّئ لك مفاجأة، يزداد تململك، فليس الوقت وقت أحاجٍ وأحابيل.

ويضيف هو بأنه يشعر بأن وقت اللقاء قد اقترب، لهذا ومن باب الاستعداد والحذر درب عشرة صبية على فنون القتال. صبية أشداء انتقاهم من الحارة، وكل يوم عند الفجر كان يخرج بهم إلى الخرابة التي وراء سوق السمك، يذهب بهم ويعود دون أن يحس به أحد.

فتبهت مما يقول..

تدرب صبية! صبية في حارتي يمسكون العصا ويتدربون على يديك، وأنا الذي كنت أحسب أنك مجرد كومة من الهاموش.

كيف لم يطرأ لي هذا الاحتمال من قبل!

وما الحجة التي تسوقها؟ الاستعداد والحذر..

تستعد لمن؟

تستعد لي! أم لأولاد هارون..

وإن دخلت عليَّ وصدقت أنك تستعد لأولاد هارون، أفلا تعرف الأصول؟

أتستعد لهم هكذا من تلقاء نفسك، من غير إذن ولا مشورة، فهل نصَّبت نفسك فتوة أنت الآخر وأنا لا أدري!

والأعور حاله حال الفأر الذي وقع في المصيدة، رمق ما يدور على وجهك من انفعالات، وأحس بأن مَلَك الموت

هبط من السماء وثوانٍ ويدون اسمه في كشف الأموات. وطفق يتزحزح بمؤخرته حتى وصل إلى الطرف الآخر من الدكة، وعينه السليمة لا تبارح كف يدك خوفاً من أن تنزل بها عليه، فعلى مدار شهور وهو يشك في أنك تعرف، واليوم عندما التقاك ورآك عابساً أيقن أنك عرفت وحدثته نفسه بأن ينطق ويقول، فربما تكون الطامة أخف لو جاءت منه قبل أن تسمعها أنت من الغير. قال ما قال وأسلم أمره لله، فإن أنت غضبت منه غضبة من غضباتك الكبرى فلكل أجل كتاب وإنا لله وإنا إليه راجعون، وإن عفوت وسامحت فهذا من شيم الكرام.

وأنت لا تزال صامتاً..

فكل ما كان في بالك عن هذه النفاية أنه مجرد تاريخ في ذاكرة الحارة، والتاريخ عندك لا مشكلة فيه، فلا له أنياب ولا أظافر واللعب فيه أمر سهل، ولن يستعصي عليك حتى لو طمسته كله بممحاة. وهذا ما كنت عازماً عليه، فبعد معركتك مع أولاد هارون والنصر عليهم إن شاء الله، كنت سوف تجمع الحفَّاظ والرواة وتملي عليهم المطلوب، ويبدءُون هم في وضع الحكاوي والمواويل وشرح تاريخ الحارة من جديد، ومن جيل إلى جيل يضيع ذكر مفتاح وتبدأ قصة المليجي، شجاعة المليجي، كياسة المليجي، شطارة المليجي، نبوت المليجي..

فأمر مفتاح كان هيناً عليك، من أوله لآخره ينتهي في كلمتين، فمثلما عشش في دماغ الحارة بالحكاوي والمواويل تهشه عنها بحكاوي ومواويل جديدة، لكن أن يكون له صبية ونبابيت فهذا هو الشيء الذي لم تحسب له حساباً أو دار في ذهنك من قبل.

فأنت وبفطنتك تعرف أن هؤلاء الصبية ليسوا إلا ميليشيات تلعب بالعصي كما القرود، فمفتاح هذا وبشهادة الجميع أستاذ في فنون القتال، ولا شك أنه علمهم ودربهم وسقاهم من فنه ومهارته.

وتديرها سريعاً في رأسك، وتقول: أأحزن أم أفرح؟!

فهؤلاء الصبية ولا جدال سوف يكونون عوناً لي عندما تجيء ساعة العراك، لكن ماذا بعدها؟ هل سيعودون ثانية إلى كم الأعور، أم يصبحون رجالي؟

أنا في حاجة لهم الآن، غير أني أتوجس منهم مستقبلاً..

فما الذي يدور في رأسك يا أعور العين، هل اشتقت للفتونة أم ماذا؟!

الفأر يلعب في عِبَّك ورأسك هو الآخر مشوش، تود البطش بمفتاح غير أنك لا تستطيع وإلا ضاع منك صبيته، فأكيد بينه وبينهم أسرار وشفرة ولوغاريتمات، وإن أردتهم فمفتاح قبلهم، فهو وهم (شيلة) واحدة.

فاسمع مني..

o beikan.com

لا حل أمامك إلا أن تتجمل بالصبر، فلا تعاتبه ولو حتى العتاب الخفيف، أرجئ ذلك لما بعد، فيوم الحساب آتٍ عن قريب وعندها تأخذ حقك منه كاملاً.

***

أراك شارداً يا مليجي، كأنك تفكر فيما قلته لك..

لا أحسب أنك سوف تؤذي العم مفتاح، وجهك لا يحمل له أي شر. ليس هذا فقط بل وتشير بيدك إلى الشبل سماحة بأن يسرع إلى مقهى الحنش ويأتيكما ببراد شاي، فيبدو أن النصيحة التي نصحتك بها قبل قليل لقيت منك أذناً صاغية، إذ ما إن صب لك سماحة الشاي ورشفت رشفة من القدح، حتى قلت للعم مفتاح: وهل هؤلاء الصبية يكفون؟
وهو لا يصدق أنك عفوت، ويتزحزح فوق الدكة مقترباً منك ووجهه قد استراح ويقول: بالطبع لا يا سيدنا، حتى ولو أضفنا إليهم كل رجالك.

فيعاودك الغضب مرة ثانية..
تقول رجالي وقبلها كنت تتكلم عن رجالك، فهل أصبحت الحارة مشاعاً بيني وبينك، لك فيها رجال مثلما لي فيها، وماذا بعد يا صفيحة القمامة!
غير أنك ملكت نفسك، اكتفيت بعضِّ شفتيك بأسنانك ثم قلت: معنى هذا أن علينا القبول بالأمر الواقع، ومن باكر، ولماذا من باكر؟ من اليوم، من هذه الدقيقة، نلبس الطرح

والملاءات ونقعد في البيوت شأننا شأن النسوة، وهنيئاً لكم يا أولاد هارون بالأرض الفضاء.

فيبتلع ريقه ويعاود التزحزح بعيداً عنك بقدر ما اقترب، وهو يقول: أعوذ بالله! وهل أرضى لك بهذا، لا كنا ولا عشنا إن لم نقطع دابر هؤلاء الكلاب، المسألة وما فيها مسألة ترتيبات واستعداد.

ويرمقك رمقة خاطفة قبل أن يضيف بصوت خائف: فما رأيك يا أبا سعيد لو استعنَّا برجال خميس؟

فتنفجر فيه: رجال من؟ رجال خميس! وهل لهذا الخروف رجال هو الآخر؟ انطق وأخبرني بكل ما تعرف.

فيهبط برأسه ويقول: كنت أرى أناساً يروحون ويجيئون معه، هذا كل ما في الأمر، فخمنت أنهم قد ينفعوننا في المعركة.

فتَعضُّ شفتيك ثانية وتسكت، قلبك هو الذي كان يقول.. خمنت! أم أنك يا عديم الضمير كنت تعرف كل شيء عن خميس، وساوسي إذاً كانت في محلها..

فالرجال الثلاثة الذين رأيتهم في الزاوية كانوا إذاً من عصابته..

والنبابيت التي لم يَجِئْني خبرها إلى الآن..

وهذا الرجل الذي كان يستعبط عليَّ ولا يكف عن الشخير.. كل هذا يأتي منك يا خميس، لن تفلت من يدي يا نذل حتى لو

طفشت في آخر بلاد المسلمين، حتى لو كنت (تخاوي) الجن والعفاريت، وكل شعرة في لحيتك يرقد أسفل منها شيطان! صبيان للأعور ورجال لخميس، ومن يدري؟ فربما للحاج رزق رجال هو الآخر، أو المعلم عباس، أو حتى عبد الرؤوف الذي يقف بِقدْرة فول، وأنا كل يوم أفرش وأقعد هنا على الدكة كالعبيط في الزفة!!

وتلتفت إلى رجالك، والشرر يخرج من عينيك..

ما خطبكم يا أولاد الحرام، الدنيا سداح مداح حولكم وأنتم لا تشعرون!

تمدون أيديكم لفلوس الإتاوة كالشحاذين، وفي المواسم والأعياد تأتيكم المؤونة مقاطف مقاطف، وفي خمارة عاكف يلهف كل واحد منكم (قَرْعة بوظة) وساعة الحساب تقولون: نحن رجال الفتوة!

ما الذي أفعله معكم الآن؟

أأهوى بفردة حذائي فوق رؤوسكم، أم أطيح فيكم وفي غيركم غير مفرق بين عدو وحبيب، أم ماذا يا حارة لا حل لها إلا صفيحة جاز وعود كبريت!

ورغم ذلك كتمت النار التي في جوفك وسيطرت على انفعالاتك، فلا أمسكت برقبة العم مفتاح ولا بهدلتَ أحداً من رجالك، وبالأمانة يحسب لك هذا الموقف، فنادراً ما يوضع فتوة مثلك في موقف كهذا ويسكت، يُهان ويُحبط هكذا ولا

يطيح بمن أمامه. كلب غلبان من كلاب الشوارع هو الذي تحمل المسألة برُمَّتها، شاء حظه العاثر أن يمضي أمامك في هذه الدقيقة، لا أعرف ما الذي دهاه وجعله ينحرف نحوك وهو يهز ذيله بفرحة، ثم تشمم كعب العيوشة وطفق يلعقه بلسانه، أكيد كان عالقاً به آثار (طبيخ) أو أي شيء من الأشياء التي تجذب الكلاب، أكيد! لم تهشه باللين مثلما اعتدنا منك، أخرجت همك فيه وركلته ركلة موجعة، فتلقاها الغلبان في بطنه وطار يعوي بعيداً، واستدرت أنت للعم مفتاح وهو يقول لك: إذا كان الرجال لا يكفون يا سِيدنا، فبالحيلة يكفون.

فرددت عليه بضجر: أية حيلة؟

فقال لك: ائذن لي أولاً أن أريك رجلاً عيناي عليه لو أخذت بفكرتي.

فقلت وأنت بين الرجاء والإحباط: أي رجل؟

فأشار بإصبعه صوب الخرابات قائلاً: رجل له عشة هنا في خرابة عكاشة.

فهززت رأسك بلا مبالاة وقلت: لا مانع، ائتوني به.

وجاءوك به..

رجل حجمه حجم فحل الجاموس، وجلبابه ملفوف حول خصره أسفل منه سروال طويل معقود برباط كالحبل. تتأمل رباط السروال الذي يروح ويجيء أمام ركبتيه وهو يسير،

وتقول لنفسك وأنت مفروس..

هل هذه هي المفاجأة التي أتيتني بها يا مفتاح!

كما لو أنه جرار حرث أو بغل كبير، وأين هو رأسه؟! فهو أصغر من كف يده، تقريباً في حجم رأس اليمامة، فهل ولد هذا المسكين على هذه الصورة!

يشير إليه مفتاح قائلاً: ها هو خادمك دياب.

ويصيح فيه: أسرع وقبِّل يد سيدنا.

فيفعل، ويسرع بالقعود على الأرض تحت قدميك، هي لحظة وتعميك رائحته، فتقول له: ارجع لبيتك الآن يا هذا، ولا تنسَ أن تستحم قبل أن تنام.

***

obeikandl.com

(٢٨)

أشياء في السيناريو تشغل قناوي..

الأحداث ذاتها، فهل لها بداية ونهاية، هل لها منطق درامي أم أن ما يأتي على ذهنه يرميه (والسلام) على الورق؟

والشخوص، المليجي على وجه التحديد، فجهاراً نهاراً يخرج عن النص، ويقول ويفعل ما يَرِد على خاطره هو وليس الذي يفكر فيه قناوي. هو قادر على كبح جماحه ومنعه من أن يفعل أو حتى يقول إلا الذي يرضيه، غير أنه يُفاجأ بأن قلمه يجري أحياناً بما أرداه المليجي وليس بالذي يريده هو، وإلى الآن لا يعرف كيف تحدث معه هذه المسألة، وحدث وراء حدث ومنه ما هو من صنعه ومنه ما هو من صنع المليجي.

الوقت قبل الظهر بقليل، وقناوي يتمشى في الحارات

obeikandl.com

القريبة من البيت. لا يعرف أماكن أخرى، هو فقط المكان الذي تعود عليه وبعد ذلك يتوه ويقع في مشكلة. يداه معقودتان خلف ظهره، وقدماه من حارة إلى حارة. فكره مشغول. لا يتوقف عن ضرب أخماسٍ في أسداس أو الكف عن لوم شخصياته، ليس في ذهنه فقط ومن سُكات، بل كانت تأخذه الجلالة أحياناً ويجادلهم بصوت مسموع. أثار وضعه الملفت انتباه الناس وبدءوا في التلفت عليه، ومن يبتسم ومن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله! الحمد لله أن عيال الشارع لا يزالون في المدرسة، وإلا تعرض للمشاكسة ومشوا وراءه في زفة. انتبهَ. فكر في الذهاب إلى مقهى الحنش وأثناء شرب الشاي يدخل مع المليجي في مواجهة صريحة، أو يصعد إلى السطح ويختلي به هناك. أي مكان منهما أفضل من الشارع، ومن هذا الفضول الذي عليه الناس.

رمق المقهى بنظرة سريعة ولم يشأ الدخول، زحام ومنظر الحنش بشاربه الغبي وأذنيه الكبيرتين شيء لا يجلب السعادة، كما أن الطاولة التي تعود الجلوس إليها يشغلها فتى في مقتبل العمر يدخن الشِّيشة: مالك أنت يا هذا بالشِّيشة وقعدة المقاهي، اتركها لنا وابحث لك عن شيء مفيد!

ترك المكان وانصرف..

صعد إلى السطح، الدنيا هنا أفضل بكثير، هدوء ومنه للسماء. طفق يروح ويجيء فوق بلاط السطح، دون أن

يلحظ المرأتين اللتين كانتا تطلان عليه قبل أيام من شرفة عمارة عبد الرسول. كانتا تقفان نفس الوقفة، وتغمز كل منهما للأخرى عليه. ظل يمشي ذهاباً وإياباً بلا طائل، فلا جاءه المليجي ولا أحد من باقي الشخصيات، حتى أبو اليسر هذا الولد السنكوح الذي يعمل في خدمة المليجي، تبغدد عليه هو الآخر. ربما لو ركز، وخفف من هذا الغليان الذي هو فيه.

استند إلى حافة السور، طفق يتأمل الفضاء العريض الذي يلوح أمامه وثلة عصافير تلعب مع بعضها البعض في السماء، جو مشجع يمكن للمرء فيه أن يهيم ويتخيل، يخطط لفصل من رواية، يقول أشعاراً، يؤلف قطعة موسيقية، لكن الأمر معه كان مختلفاً، دخلت شخوص السيناريو في حالة عصيان وأحجمت عنه، جده (الخربان) هو الذي لاح له. جاءه بالعمامة والشال ووراءه زفة من خمسين عيل، الجد يدق على الربابة ويحكي سيرة (عنترة بن شداد) والعيال كأن على رؤوسهم الطير ويسمعون. يمر المشهد أمام عينيه كما لو أنه حقيقة، والغبار الذي تطؤه أقدام العيال كأن رائحته في أنفه، والجد يحكي ويحكي ثم يقطع حوار (عنترة) مع أخيه (شيبوب) ويرمقه رمقة حانية، ويا سبحان الله يستجيب له المليجي، أمسك به خيال قناوي ـ الله أعلم من أين ـ وأتى به مقبوضاً عليه.

أخيراً ظهرت يا سعادة الفتوة، وتجيئني خاملاً متأففاً تتثاءب.
ألست خجلانَ من نفسك!
لكن ماذا أقول؟ رجل أخرق ولا تقدر المسئولية.

والآن دعنا من العتاب والكلام الذي لا يفيد، ولندخل مباشرة في الموضوع، فما الذي عندك؟

آه. لا تزال جالساً فوق الدكة ووجهك على الحال الذي تركته عليه في المشهد السابق، فلا هو مطمئن ولا مرتاح، والعم مفتاح انتابته فجأة نوبة سعال وعطس. مسكين، كبير في السن وفات عليه إغلاق الشباك جيداً ليلة أمس، ومن كتمة الهواء في أنفه الآن قبض عليه بخرقة ودخل في جولة من الفرقعات والأصوات الكئيبة، وأنت ترمقه بحذر خوفاً من أن يصلك أي رذاذ. أما الدكروري وغراب والبغل ومعهم لملوم والشبل سماحة فعلى بعد خطوات، التفوا حول بعضهم البعض، يتوشوشون عما هو أنسب لهم، هل يقضون السهرة عند (أُمّ عصفور) أم يذهبون إلى خمَّارة (عاكف).

يفرغ العم مفتاح من التعامل مع أنفه، ويدنو منك برأسه مشيراً عليك بأن تصرف رجالك ولو لعدة دقائق بعيداً عن هنا، فالكلام الثقيل الذي سيقوله لك الآن لا يصح أن يذاع هكذا على الملأ. تتأفف منه، شكله وجلبابه وزكامه، كما أنك لا تقبل منه هذا الذي يقوله لك، فالكره الذي بدأ يملأ صدرك منه يصور لك المسألة على أنه يأمرك ويتدخل فيما

لا يعنيه، وتقول له موبخاً: وما شأنك يا أعور برجالي؟ أستبقيهم، أصرفهم، أفعل معهم الذي أشاؤه، فهيا أسرع وقل ما عندك.

رغم أني نصحتك بالصبر يا مليجي إلا أنك لم تملك نفسك هذه المرة، وأحسب أن هذا الشخط والتوبيخ جاء رغماً عنك. لا تثريب عليك، فالعم مفتاح فعلاً لا يطاق، ولو انتبهت جيداً لما تقول للاحظت أن هذه هي المرة الأولى التي تخاطبه فيها باسمه المستعار، بالأعور، ففيما سبق كنت تقولها بينك وبين نفسك أما اليوم فألقيتها في وجهه صراحة. وطبعاً لم يعجبه ذلك، ولا أعجبته لهجتك ونبرتك معه في الكلام غير أنه لم يعلق، أشاح بوجهه عنك وأخذ يفكر ويحسبها في رأسه. فعندما تقبلت أنت مسألة الصبية والميليشيات ولم تَثُرْ اعتبرها علامة ضعف، وبإلحاحك عليه قبل قليل بأن يسرع بالكلام اعتبرها علامة ضعف ثانية، ويدور في باله الآن أن يوبخك ويشخط فيك هو الآخر مثلما فعلت أنت، أن يقول لك إنه ليس (سَقْط متاع) مثلما تظن، وإنما فتوة له اسم وتاريخ وصيته كان يملأ الأفق. كان يمكنه أن يقول لك ذلك وأن يعدد سوءاتك على أصابعه إلا أنه آثر السلامة، فهو ليس نداً لك الآن، ربما فيما بعد، وعندها لن تقوم لك قائمة لا أنت ولا ثلة الجرذان التي معك.

أخذ وأعطى مع نفسه حتى انتهى إلى هذا الحل، ثم ابتسم

لك. ابتسامة مصطنعة بالطبع، وشرع معك قائلاً: خطتي يا أخ مليجي.

فتحمر أذناك من شدة الغضب..

ابن اللئيمة يقول لي: يا أخ!

أهكذا يُخاطب الأسياد والفتوات، هل جار عليَّ الزمن إلى هذا الحد وصرت مجرد أخ! قل ما تشاء يا أعور، أكمل أكمل وهات كل ما عندك.

وتستطرد أنت يا عم مفتاح: أنت تعرف طبعاً البناية التي تواجه الأرض الفضاء؟

وتشير إليها بسبابتك مؤكداً: بناية السناري.

فيتطلع إليها بعينيه، وتكمل أنت بصوت ضعيف: وقد حكيت لك من قبل عن الصبية الذين قمت بتدريبهم.

قلت هذه العبارة خطفاً يا عم مفتاح، وأدخلت قدميك سريعاً في فتحة المداس لتجري من أمامه إذا انفعل عليك، فأنت تعرف أنه رجل متقلب ويتحسس كثيراً من هؤلاء الصبية، وتخشى أن يغضب ويعود بك من جديد إلى المربع الأول. الحمد لله. لم يغضب أو حتى لاح على وجهه شيء يفهم، فأوَّلت الأمر على أنه يخفي ويناور. لا مانع! فأنت الآخر تناور، وتقول في سرك مثلما يقول هو الآخر في سره: إن الله مع الصابرين، والأيام بيننا قادمة.

وتردف: وقد أحضرت لك هذا الذي اسمه دياب لتراه

وتتأكد، وهو ما شاء الله يده كالمَرزبَّة ونظره ستة على ستة، ولو أفهمناه المطلوب سوف ينفذه بكل دقة.

فتزوم يا مليجي زومة تفكير، وتسأله: أين يعمل هذا الحيوان؟

فيقول: في جبل المقطم، في الرمل والزلط وكسر الرخام، وهو غشيم وحيوان مثلما قلت، كما أنه لا علاقة له بجار أو صاحب، حتى أهله الذين يأتون له من البلد يغلق الباب في وجوههم!

فتنظر إلى العم مفتاح باستغراب وتقول: هو نذل إذاً!

فيجيبك مشيحاً بيده: وماذا في هذا! فالأنذال في عرفنا هم عز الطلب، المهم والمطلوب أنه يؤدي عمله بكل مهارة وفي هذا أشهد له.

فترمق العم مفتاح بربع عين، وتهز رأسك قائلاً: معك حق فالأنذال فعلاً سوقهم الآن رائجة.

وعلى غير توقع ترن ضحكة بالقرب من السطح، ضحكة عالية تشوش على خيال قناوي وتأخذه من المشهد الذي كان فيه، يتلفت حوله ليجد المرأتين الواقفتين له في الشرفة. التي رنت الضحكة تعدل الإيشارب فوق رأسها، والثانية تلفت نظرها كي تأخذ احتياطها منه بعد أن انتبه. رماهما بنظرة حانقة وغمغم قائلاً: أنتما ثانية يا قليلتَي الأدب! أنتما ثانية!

obeikandi.com

وترك لهما السطح هابطاً إلى شقته..

***

obeikandl.com

(٢٩)

ما إن فتح قناوي باب شقته ودخل إلى غرفة النوم، حتى راحت عيناه إلى ملصق فيلم (غَزَل البنات) المعلق على الحائط.

لا يمل أبداً من تأمل هذا الملصق، بذلة الريحاني هي هي بذلته ودمعه المحبوس هو الدمع الذي وراء مقلتيه، واللحظة التي فيها الريحاني هي اللحظة التي قلما تفارقه، ويخال ليلى مراد كما لو أنها الدنيا التي لم تبلل ريق هذا الإنسان ولو مرة واحدة. مسكين (يا أستاذ حمام)، فلو كنت مثل المليجي ما كان حدث لك كل هذا، ولا الباشا ولا بنت الباشا ولا خدم الباشا سخروا منك.

ويأتي المليجي على السيرة..

تعالَ إليَّ بسرعة يا أستاذ، فقد ضجرت وأريد أن أفرغ

obeikandl.com

منك ومن هذا السيناريو..

العم مفتاح لا يزال جالساً أمامك ويعبث بأصابعه في جيب الصديري باحثاً عن السيجارة الفرط التي وضعها فيه أول الصباح، لسوء الحظ تفتت فأخرج أصابعه خاوية إلا من ذرات تبغ عالقة بها. تشممها باستمتاع، ثم نَتَرَ أصابعه وقال لك:

- خطتي يا مليجي ومن أولها لآخرها قايمة على دياب وبيت السناري من ناحية، وعلى رجالتي ورجالتك من ناحية تانية، وياريت تأذن لرجالة خميس يشاركونا هُمَّا كمان.

لا تركز في كلام العم مفتاح، بقدر ما انشغلت بمخاطبته لك باسمك مجرداً، وتقول في نفسك: ها هو الأعور يزداد في قلة الأدب، حتى كلمة (أخ) سحبها مني ويناديني باسمي مباشرة كما لو كنت هلفوتاً من هلافيت الحارة، ما الذي سوف يأتي منه بعد ذلك، لم يعد باقياً إلا أن يقول لي يا ولد يا مليجي!

في ظرف غير هذا الظرف كان سينال منك صفعة مدوية، أما الآن ما الذي بيدك أن تفعله؟ لا شيء! تسكت، تبتلع غضبك وتظل ساكتاً حتى تهدأ، وهو لا يشعر بما تعانيه ولا يزال مستمراً في الكلام:

- يعني أنا وإنت نستفردوا بالواد دياب ونرسُّوه على

المطلوب، وقوام قوام يحمِّل لنا خمس ست عربيات كارو مليانة طوب على زلط على دقشوم، وفي السر نخلُّوا الرجالة تشون الحاجات دي فوق السطح بتاع بيت السناري، دا يا أول يا هادي.

وتسكت يا عم مفتاح..

وتنتظر أنت يا مليجي أن يتكلم وهو لا يتكلم، يدعك متفحصاً الناس الذين يسيرون أمامه. وأنت صبرك ينفد، وتؤوِّل انصرافه عنك بأنه يناور ولا يريد إعطاءك ما عنده إلا بالقطارة، وتأخذك العزة وفي ذات الوقت يثنيك العقل. تحتار بين أمرين، أن تنزل عليه بالمداس وتكرشه من أمامك، أو أن تتحمل وتسايس حتى يأتيك ببقية كلامه. ومع ذلك لن أدعك وأبخل عليك بما يفيدك، فالمسألة ليست كما صورتها لك نفسك، فالرجل -وبالأمانة- مظلوم في هذه النقطة، والحكاية وما فيها أن نفسه هفت إلى تدخين سيجارة، لا أكثر من ذلك ولا أقل. فانظر إلى المليم الذي أخرجه للتِّو من سيالته وأنت تتأكد، فلم يكن انشغاله عنك يا أيها السبع إلا لالتقاط عيِّلٍ يشتري له سيجارة من أقرب دكان. لسوء الحظ لم يجد، وكان الدكروري على مقربة منه، فتوكل على الله واستسمحه كي يأتيه بالمطلوب ومد يده إليه بالمليم. والدكروري يضرب كفاً بكف مستكثرها على نفسه، وينظر إليك كي تتصرف مع هذا البهيم!

وأنت لا تصدق أنه يريد أن يعفِّر سيجارة في وجودك، ليس هذا فقط بل ويتعامل مع رجالك كما لو أنهم خدم له، وبدأ بمن؟ بالدكروري! الدكروري الذي لولا الطوبة التي تعثر فيها يوم أن تضاربتما بالعصا، لفتح رأسك وكان هو الفتوة الآن وليس أنت.

آه يابن الكلب يا أعور! أتدخل في الغريق إلى هذا الحد؟ وتسكت، ليس لك من حيلة إلا أن تسكت، فقد انقلب الحال وأصبح الأعور هو الذي يتكلم وأنت الذي تسمع، واختشى هو وأعاد المليم ثانية إلى جيبه، وقال لك متسائلاً:

- هو إحنا وقفنا لحد فين؟

لا تجيب، فيلحظ غضبك ويردف مسرعاً:

- آه . آه. افتكرت. حط في دماغك يا عمنا إن ولاد هارون لا دريوا ولا سمعوا قبل كده عن رجالتي ولا عن رجالة خميس، كل اللي فاكرينه إن رجالة الحارة هما بس شوية الأنفار اللي رايحين جايين معاك، وعلشان كده هما مستهترين بينا.

تثيرك هذه الملاحظة، ولولا بقية من صبر لفتكت به، ويستطرد هو:

- يعني نخليهم على عماهم، لا نبين لهم إن في الحارة رجالة ليَّه ولا حتى لخميس، نخبيهم في أي مطرح. دا أول هام، تاني هام إن رجالتك يعملوا أي حيلة ويجرجروا لنا

هنا في الحارة كل ولاد هارون، وساعتها بقى يشتغل دياب.
ويسكت وأنفه يهيم في الدخان الخارج من سيجارتك، فتلحظ وترمي له علبة سجائرك كمن يرمي عظمة لكلب، فيتردد أول الأمر ثم يتشجع ويسحب منها واحدة، وأنت ترمقه بضجر والدكروري الواقف وراءكما يرميه بنفس النظرة هو الآخر.
- ممنون يا سِيد الرجالة.
لا ترد عليه، تشير له بأن يسرع ويأتيك بكل ما عنده:
- ودياب من فوق بيت السناري ومعاه شوية العيال الحَدِّيفة، ينزلوا عليهم من فوق وتنشين على الراس والحتت اللي توجع، اللي يتعور، واللي يتكسح وللا يروح فيها، وهما يتلخبطوا ويتبرجلوا من هنا واحنا ساعتها نكبس عليهم، شوية من الناحية دي وشوية من الناحية التانية واللي يلبد لهم عند الملف، واللي يطلع لهم من ورا الجامع.
لا تمانع، فالخطة مقبولة من حيث المبدأ، بل وتقبل بمشاركة رجال خميس غير أنك تشدد عليه بألا يبلغه بأنه مرسال منك، فهو في حساباتك وتصنيفك ومعه الأعور طبعاً قد انشقا عليك، وميليشياتهم بالتالي ميليشيات محظورة. وفي بالك أن من يكسب الجولة الأولى ليس بالضرورة هو المنتصر، فإن كانوا قد لووا ذراعك بميليشياتهم وجعلوك تعترف بها، فهذا موقوت وابن ساعته ومن يضحك في النهاية هو الذي

يضحك كثيراً. وتقسم لنفسك، بأمك وأبيك وجدتك عيوشة، بأنه عندما تفرغ من جهادك الأصغر وتصفي أولاد هارون تماماً، جهادك الأكبر سوف يكون في الحارة، مع الأعور وخميس وكل نذل وجبان استغل غفلتك وخرج عن القانون.

***

obeikandl.com

(٣٠)

اليوم يومك يا مليجي، والحارة على قدم وساق..

صبية منهمكون في اللعب بالكرة، لكن كانت لديهم تعليمات مشددة بأنهم ما إن يسمعوا أذان الظهر يتوقفوا فوراً عن اللعب، وجري جري إلى البيوت. وزفة قادمة من آخر الحارة، يقال إنها زفة طهور لأول أحفاد الريس دربالة، وقد وصلته الآخر نفس التعليمات. أما الحاج رزق فقد تجمع أمام وكالته رهط من المبتاعات، بعد أن أذاع بالأمس أنه من باكر سوف تباع بواقي الطُّرَح والترابيع والملاءات اللف بنصف سعرها، وللعلاقة الحميمة التي تربطه بالفتوة كان الشبل سماحة قد تفل في أذنه بمجمل الوضع، وأن عليه غلق الوكالة أول ما يرى الإشارة. وباعة بمشنات وأقفاص وبلاليص مشغولون بالبيع والشراء والفصال والمناكفة،

obeikandl.com

وشائعة تسري بينهم بأن شيئاً كبيراً على وشك الحدوث. وفي الزوايا والأركان كلاب امتلأت بطونها، وتستلقي في كسل أثناء عملية الهضم. والحر ذاته هو حر الظهر، فلم تفلح نسمة الهواء التي هبت من بعيد في تخفيف زمتة الجو. والدنيا لا غريب فيها ولا جديد، وتمضي كأي يوم آخر من أيام السنة.

هذا الذي كان في النور والعلن، أما وراء الستار فكان رجال خميس قد أعدوا عدتهم وكمنوا في وكالة المعلم عباس، ولبَدَ صبية العم مفتاح في خرابة عكاشة. ورجالك أنت يا مليجي لا أعرف بالضبط أين خبأتهم، فقد لمحتهم قبل ساعة أكمامهم مشمورة وفي أيديهم النبابيت، وبعدها ذابوا مثلما يذوب الملح في الماء. ودياب هناك أعلى بيت السناري ومعه (الحَدِّيفة)، يفرغون شكائر كسر الرخام والزلط أو يجهزون الطوب والدقشوم، ومعهم ولد من أولاد المدارس على عينيه نظارة، يقيس ويحسب المسافات وبالطباشير يضع لهم العلامات فوق حرف السور كي لا تخيب رمية أو يفلت منهم أحد.

كل هذا يا مليجي من صنعك وتدبيرك، فعلى مدار شهر وأنت تخطط وترتب. استوعبت من العم مفتاح مجمل الفكرة وخطوطها العريضة، وعكفت أنت على التفصيلات والرتوش، ومن تضعه في الصدارة ومن يفاجئ أولاد

هارون من الشرق أو يختبئ لهم في كمين، وكل الأمور التي فيها حيل وتكتيك. أسابيع وأنت تنظم وتجرب وتعيد، كي تأخذ العركة حقها وتأتي بنتيجة. شيء مدروس، المخ فيه جنباً إلى جنب مع النبوت، وليس مجرد دربكة وهوجة مثلما كان يحدث في السابق. وشيئاً فشيئاً استعدت ثقتك بنفسك، وبدا لك أن الأمر كله أصبح في كفك، وعندها أشار عليك شيطانك بأن تبدأ من الآن في سحب البساط من تحت أقدام العم مفتاح، وفعلاً نجحت، حتى إن من يقول إنهم صبيانه ألفت قلوبهم واحداً بعد واحد، أغدقت عليهم من صرر الإتاوة وعشمتهم بكل ما في دنياك من متاع، حتى صاروا طوع أمرك أنت وملصوا أيديهم من يديه.

استراح قلبك أيضاً عندما تبين لك أن رجال خميس ليسوا كما حسبت، فالنبوت لا هو كارهم ولا حرفتهم والنفر من رجالك بعشرة منهم، كما أن فيهم دنيء النفس الذي يمكن الضحك عليه بجوال أرز أو حتى دجاجة. وقد أغراك هذا الظن فطلبت من الدكروري أن يسحبهم لك تباعاً من وراء خميس، نفس اللعبة التي لعبتها من قبل مع صبية العم مفتاح، إلا أنهم كانوا أوعى ويحذرونك بالسليقة. البعض حسم أمره ورفض رفضاً قاطعاً وطفق ينظر من بعيد، والبعض طلب مهلة للتفكير، ومنهم من كان يريد إلا أنه خاف أن تسوء سيرته بين الناس لو بدأ حياته بخيانة، ومن داور وساير

وقال: ما المانع، خميس أمره غير مضمون والفتوة هو الكفة الراجحة.

بلغك هذا الكلام يا مليجي، فقلت للدكروري: هذا شغل فئران تسكن في جحور شغل قرود تلعب فوق الشجر، يشتتون فكرك بسبعين حاجة حتى لا تصل معهم إلى نتيجة، ولو كانوا حقاً يعبدون الله مثلما يقولون لعرفوا أن طاعة ولي الأمر من طاعة الله. ولا يغرنك تشرذمهم هذا يا دكروري، فهو تشرذم مقصود وألف باء في شغل المناورات، واسألني أنا فكلهم ومن أولهم لآخرهم أولاد خميس، ومثلما أحاول استدراجهم الآن للدخول في خدمتي يستدرجونني هم بهذه الألاعيب ليعرفوا قصدي ونيتي، على أية حال هم لا يشغلونني كثيراً، فطالما الحارة في يدي سيظلون فئراناً وأنا القط.

المهم الآن هو الموقف الذي نحن فيه، فأنا وهم وكل الحارة في مركب واحدة وحيال عدو يكرهنا كلنا، وأنا لا خيار لي إلا الاستعانة بهم وهم بالمثل مجبورون على السير في ركابي، وما دام الأمر على هذا النحو فلا حل أمامي إلا التعامل معهم من منطلق المصلحة. هم ولا شك قيمة مضافة، ولا مانع بالتالي من الزج بهم في عركتنا مع أولاد هارون، لكن اعمل جاهداً يا دكروري على أن تضعهم في الصفوف الأولى حتى تكثر فيهم العاهات والإصابات، أو

يموت منهم من يموت. وبعد أن يحالفنا الحظ ونفرغ من هذا الكابوس سوف نرى، فإن دخلوا في حوزتي وفهموا أن هذا هو الكلام المفيد وفيه صالحهم وصالح الحارة، فأهلاً بهم ولكن بحذر، فلي خبرة طويلة مع هذا النوع من البشر، نوع والعياذ بالله أمه وأبوه المصلحة، فلا تغرنك الزبيبة ولا المِسْبَحة أو قال الله وقال الرسول. وإن ظلوا على حالهم، فوالله الذي لم أحنث في قسم أقسمته باسمه يوماً ما، لأضربنهم ضربة عزيز مقتدر أو لأشتتنهم هنا وهناك كي لا تقوم لهم بعدها قائمة. سوف أفعل ذلك ولست بجبار ولا مُفْترٍ، فالحارة غلبانة! شربت المُرّ سنينَ طويلة ومن حقها أن تفرح، ومع هذه الأمخاخ سوف تخيب وحياتها والعياذ بالله تصير نكداً في نكد.

***

زفة طهور حفيد الريس دربالة لا تزال في أوجها، والحاج رزق يحايل النسوة كي يكففن عن الشجار فالبضاعة والحمد لله كثيرة، وكلب من الكلاب الممددة فوق الأرض يتثاءب وقام ليبول، والدنيا كما هي لا تغيرت ولا تبدلت حتى جاءت الإشارة فانقلب حال الحارة.

صرخة صرختها امرأة من سكان بيت السناري، وما السبب؟ واحد من أولاد هارون تحرش بها!

حتى هذه الصرخة يا مليجي كانت بإيعاز منك وإحدى

رتوشك، فأولاد هارون الثلاثة الذين يعسكرون ليل نهار بالأرض الفضاء، لا تحرشوا بالمرأة أو حتى رأوها. كانوا قد فرغوا للتّو من دورة داروها حول الأرض الفضاء، ثم عرَّجوا إلى شجرة الكافور التي بالداخل وهم يقولون: فلنتمدد هنا في ظل هذه (الكافورة)، فالدنيا أمان والمليجي مثلما اعتدنا لا يصحو من النوم إلا بعد الظهر بساعة، ورجاله طبعاً على نفس المنوال, قالوا ما قالوه ثم تمددوا، واحد يقلم ظفر إبهامه وتثاءب الآخران ثم دخلا في غفوة.

صرخت المرأة صرختها، أول ما قال الشيخ خميس: السلام عليكم ورحمة الله، مختتماً صلاة الظهر. وكان من يصلون وراءه ومنذ أن وطئت أقدامهم الزاوية وهم في دهشة، فلا عمامة اليوم على رأس الشيخ، مجرد طاقية حوافها مبرومة، والجلباب ليس الجلباب الأبيض الذي تعودوه، ولا في يده المسبحة أو على كتفه الشال، والأكثر غرابة مقبض السكين هذا الذي يبرز من فتحة السيالة. ثم مَنْ هؤلاء الذين يقفون وراءه في الصف الأول؟ سحنهم غريبة وعلى وجوههم الانفعال، والصلاة ذاتها لم تكن هادئة ولا مستريحة، أداها الشيخ خطفاً وبسور قصيرة، ويا تُرى من أين جاءت هذه النبابيت المركونة بحذاء المنبر!

وفي نفس الوقت، وبالثانية والدقيقة، أقبل المليجي ورجاله بسرعة من وراء تعريشة الريس دربالة، ووراءهم: قل

عشرة أو عشرون نفراً من شباب الخرابات، ناهيك عن العيال التي في المؤخرة وحجورها مليئة بالزلط والطوب. أين كنت تخبِّئ كل هؤلاء الناس يا لئيم؟ لا مانع! سأمررها لك هذه المرة، فليس عندي ولا عندك وقت الآن كي نتحاسب. المهم أنكم طرتم كالريح نحو الأرض الفضاء، دون أن تسألوا المرأة طبعاً عن سبب صراخها ولا تقصيتم عنها من أحد، فأنتم ووفقاً لمجريات الخطة على علم بأن هذه الصرخة هي إحدى الفعاليات، اتجهتم فوراً إلى تعساء الحظ الممددين تحت شجرة الكافور. وخرج المصلون من الزاوية مسرعين ويتلفتون على مداساتهم، فريق منهم لا يزال غشيماً اتجه على الفور إلى المرأة التي تولول ليعرف منها الحكاية، وفريق فهمها (على الطاير) ولحق برجال المليجي، أما الشيخ خميس ورجاله فخطفوا نبابيتهم من جنب المنبر، وأخذوا أماكنهم المحددة لهم في الخطة. وتوقف العيال عن اللعب بالكرة، وتفركشت زفة الطهور، وأغلق كل تاجر باب حانوته، ونودي: بأن حي على الفلاح .. حي على الفلاح .. ويا خلق الله الذين في الشوارع أو البيوت، كتفاً بكتف مع المليجي وإلا ضاعت منكم الحارة. وانهال رجال المليجي بعصيهم على أولاد هارون الثلاثة، فكسروا رِجْل واحد وقضى آخر أما الثالث فتركوه يفلت ليأتي ببقية أصحابه. تماماً مثلما خططت يا سيد الفتوات،

obeikandi.com

ونقلت إلى أدمغتهم ما في دماغك. وما هي إلا دقيقة، وبالضبط مثلما حسبت وتصورت، حتى أقبلوا هم بنبابيتهم وسكاكينهم ومنهم من كان معه طبنجات، فانهال عليهم دياب من أعلى هو و(الحَدِّيفة)، وبورك فيك يا دياب فكل رمية ما شاء الله بإصابة، وكانت الحارة ساحة عراك لم يشهدها أحد من قبل ولا حتى أيام العم مفتاح ذاته.

***

دام العراك ستين دقيقة، وأنت تجري هنا وهناك يا مليجي..

منظرك كان لافتاً، جلبابك معقود حول خصرك والعيوشة خفيفة في يدك كما لو أنها خيزرانة، والبغل هو الآخر يستحق السلامة، أطاح بثلاثة منهم في أول دقيقة، واستمات الدكروري والبغل ومعهما لملوم والشبل وسماحة، كي لا يصل هؤلاء الملاعين إلى بطن الحارة. وصبية الأعور ما شاء الله كانوا أشبه بالقردة، يضرب الواحد منهم ضربته وفي ثانية تجده في مكان آخر. وأعطاك الله الصحة يا مليجي ولا حرمك من الشهامة، فمرتان وأنت تدفع أولاد هارون عن خميس وتصيح فيه بأن ينتبه لنفسه ويمسك بالنبوت مسكة صحيحة: فما هكذا يكون العراك يا عمنا الشيخ وما هكذا تلتف القبضة على النبوت! والمسكين سقطت طاقيته وبانت على الملأ صلعته، ونبوته مرة يصيب وعشرة يخيب أو ينزل بالخطأ على أحد رفاقه فيحدث به عاهة، لكن والحق

obeikandi.com

كان يثابر حتى إنه حمى ظهر الشبل سماحة وجندل واحداً منهم كاد أن يرشقه بسكين. والنسوة من الشبابيك والشرفات ومناور البيوت، من تزغرد ومن تسعف المصابين أو تستعد بالماء المغلي لمن يتسلل للداخل.

ووفقاً للخطة خلفتم وراءكم العم مفتاح واثنين من صبيته، وكل من يقدر على حمل سلاح في الحارة، سكين، عصا، مقعد من الخشب، أو حتى قحف من الجريد. اعتبرتموهم خط الدفاع الثاني، وتعليماتك لهم يا مليجي كانت واضحة: إن رحنا نحن لا قدر الله فاستميتوا أنتم للدفاع عن الحارة، هي عرضكم وشرفكم ولا يوازيها إلا أرواحكم.

الحمد لله ثم مرة ثانية الحمد لله، فلا احتجتم إلى خط دفاع ثانٍ ولا ثالث، فروا أمامكم كالجرذان وكان هذا اليوم يوم سعدكم أنتم والحارة. ولا حلاوة بغير نار، فقد قضى الدكروري هو والشبل سماحة وحفنة من رجال خميس، وصبية بنت سبع سنين خرجت قبل الظهر لتشتري لأمها قمع سكر وربع رطل بُنّ من عند البقال، وهي لا تدري أن مَلَك الموت اختارها هي بالذات ومن دون كل البنات لتتلقى ضربة عصاً، وقد شاع في الحارة بعدها أن العصا كانت عصا خميس ونزلت عليها بجهل وغشم، صدق أم كذب؟ هذا الذي قيل..

* * *

o b e i k a n d l . c o m

(٣١)

كيف حالك الآن يا مليجي؟

مضت أشهر على المعركة التي أدرتها بنجاح، والدكة هي الدكة، الذي تغير هو الوجوه. قضى الدكروري هو والشبل سماحة، واعتزل غراب بعد أن أقعدته الضربة التي نزلت فوق ركبته، واستأذنك البغل في التقاعد. اشتاق لعالمه القديم. العالم الذي نشأ وترعرع فيه. عالم الكارُّو. كان تحت يده بعض المال، من حلال من حرام، العلم عند الله! اشترى به أربع عربات كارو بحميرها، وفوقها جحش إضافي ليكون قطعة غيار، واستأذنك في قطعة أرض من أملاك الحارة يحولها إلى (عربخانة). لم تمانع، قلت: يستحق، واعتبرتها مكافأة لنهاية الخدمة. ولم تنسَ غراب، فتحت له دكاناً. ولا ورثة الدكروري والشبل سماحة، أرضيتهم، فمن

obeikandl.com

خصالك الحميدة، أنك ترد الجميل لكل من وقف معك في المَلمَّات والمحن. فهذه هي أخلاق الصعيد الذي جئت منه، ألف مرة وأنت تقول هذه العبارة ولا أحد يحترم كلامك إلى أن أثبتها بالدليل القاطع، فما من أحد مات أو أصيب في هذه المعركة إلا وتوليت أمره من الألف للياء، حتى البنت الصغيرة التي قضت بطريق الخطأ، وقفت على رأس المقبرة وهم يوارونها الثَّرَى، وكان أبوها مديناً للحاج رزق فأنهيت الموضوع وجعلته يتسامح.

رجالك الآن عطية وعاشور والصفتي ودرويش، وستة أو سبعة أنفار غيرهم. بعضهم من صبية الأعور سابقاً، والبعض الآخر التقطته من الحارة. أما الشيخ خميس ورجاله فخرجوا من يدك، أصبحوا مركز قوة ويعبثون في الخفاء، فحتى الآن لم يظهروا بعد على الشاشة. وأهملتهم أنت إلى حين، فأين سوف يذهبون؟ المسألة فقط مسألة وقت وأولويات، فقد أنهيت الاستحقاق الأول من خارطة الطريق بكل نجاح، والاستحقاقات الباقية لم يحن ميعادها بعد.

وقربت منك دياب. دياب (الفواعلي) الذي لا يفهم إلا في تكسير الرخام وحمل الطوب والزلط، أصبح نديمك ومستشارك بعد أن أحلت العم مفتاح إلى التقاعد. لم تقلها له صراحة، هو فهمها من نفسه وابتعد، وأنت قلت: بالسلامة، فمن الآن وصاعداً أنا في حاجة إلى دماء جديدة، إلى الرجال

الذين وقفوا معي وقفة من حديد، ويكفي أني لم أعاقب هذا الأعور على ما فعله معي في الأيام الأخيرة، صفحت عنه إكراماً لشيبته.

وإن كنت فهمتها أنا فهماً آخر، فلا وقفة من حديد ولا يحزنون المسألة وما فيها أن شيطانك وسوس لك بأنك في حاجة إلى واحد من عجينة مخصوصة، بني آدم (عمولة)، تصنعه وتبرمجه وتضبطه على الإيقاع الذي في دماغك.

ووجدت ضالتك في دياب..

خام، غشيم، ولا يعرف من متاع الدنيا سوى طبق الفول وأقراص الفلافل. وإن أنت خايلته بفطيرة أو أذقته طعم العسل، سال لعابه وجرى وراءك بالمشوار. هذا الذي بدا لك وعلى هذا النحو حسبتها، أما هو ففهم ما بين السطور وحسبها حسبة أخرى، وكان أول همه أن تؤوِّله وتقرأه دائماً على أنه طيب وغلبان، لا له في اللؤم أو يعرف الاستعباط. وأثبت لك ذلك بكل وسيلة، بالصدق بالكذب بالزور، أنه رجلك الواعد وأنك فعلاً أحسنت الاختيار.

كنت معجباً به، جندل أولاد هارون وأحدث بهم إصابات لا يستهان بها، كما أنه لم يقبل سحتوتاً واحداً من فلوس الإتاوة رغم ضغطك عليه وإلحاحك، أبي ألا يكون أكله وشربه وتموين بيته إلا من كَدِّه وعرق جبينه.

أدهشك بهذه التصرفات وقست حاله بحالك، فأنت نفسك

ومن أول يوم أمسكت فيه النبوت هجرت كارك القديم. رميت خرق التنظيف وإبرة اللحام وعدة التسليك وسبع أو ثماني أرجل قديمة للبوابير، كله كله أطحت به في أقرب خرابة. وأقسمت برحمة جدتك (عيوشة) بأنك لن تمسك أي وابور جاز مرة ثانية، بل حتى لو تعطل الوابور الذي تطبخ عليه الأكل وتسخن فوقه ماء الحموم، كنت ترفض أن تلمسه بإصبعك، وتشيح لامرأتك محاسن بأن يغور الأكل ويغور الحموم: اذهبي لأي سمكري آخر أو عندك الكانون! أما هو فمن نجمة كان يلبس هدوم الشغل ويعلق المقطف والغبيط في كتفه بحبل، ثم يشد الرحال إلى المقطم ومع أذان العصر يعود. يرضى بأية لقمة تعدها زوجته، ثم يطس وجهه بحفنة ماء وجرى جري ليجلس تحت قدميك. أكثر من مرة وأنت تنهاه وتقول: هذه الجلسة لا تليق إلا بالخدم، وأنت رجلي الآن وإكرامك واجب عليَّ، وبعد تردد ولألأة قام وجلس قبالتك مربع اليدين، وأنت تتأمله وتتعجب في نفسك وتقول: يا سبحان الله، ما كل هذه الأخلاق! أي امرأة هذه التي أتحفتنا بهذا المؤدب القنوع!

***

الجلسة فوق الدكة لا طعم لها..

هذا التافه الذي اسمه الصفتي لا يكف عن الثرثرة، كلام في كلام ولا تخرج منه بنتيجة!

والباقون، من هم الباقون؟

درويش وعطية وعاشور! لا لون لهم ولا طعم وكلامهم كله ماسخ، فأين هم من رجالك القدامى. الدكروري العاقل الرزين، البغل الذي كنت تدخره للملمات، وغراب! من الصعب تعويض هذا الإنسان، لا تنجب الحارة أمثاله إلا بصعوبة، خفة ولا خفة السحلية ومكر ولا مكر الثعالب وإذا لدغ فلا تقل لي حية ولا ثعبان، فعل لك كل الذي على هواك وأمتعك بخدماته، وتتذكر الشبل سماحة، أكله الموت وهو في عز الشباب، كان نِعْم الولد والصاحب..

واستأذنك دياب في الانصراف، كنت تود استبقاءه ولو قليلاً، يتعلم منك ويستفيد، لكن ماذا تفعل؟ العمل عنده عبادة! الحمد لله أن الحارة بها هذا النموذج الطيب، والفضل طبعاً يرجع لك! فأنت الغواص الذي يغوص، ومن قاع القاع يأتينا برجال كاللؤلؤ والمرجان..

ويرد العم مفتاح على بالك..

ناصح ماكر ومعروف عنه الخبث، غير أن القعدة من غيره ليس لها طعم. لم تكن تسهو أبداً وهو معك، تكون يقظاً وعقلك في أقصى توهجه. عيناك لا تغفلان عن أية حركة من حركاته، خاصة عندما يزمُّ حاجبيه أو يشرد بعينيه، فهو ساعتها يفكر ويأتيك بالخلاصة. تتعامل معه وكأنكما في مباراة، الخاسر فيها والذي هو طبعاً أنت، ليس خاسراً على

الدوام، فعلى الأقل يزداد خبرة ويستفيد. تعلمت منه الكثير يا مليجي، فلا أظنك تنكر ذلك وإلا وصمتك بالجحود.

المشكلة المزمنة التي في دياب أن عقله خامل، أنت طبعاً اخترته خصيصاً لهذا السبب، غير أنه لم يطرأ في بالك أن خموله وصل لدرجة الحضيض. يتعبك كثيراً في البرمجة، فالشيء الذي تود إفهامه إياه في جلسة يستغرق منك أربع جلسات، كما أن نبرة صوته تذكرك بنقيق الضفادع، ولا تعرف ما العلاقة بينه وبين التثاؤب، تتثاءب في وجوده بالخمسين مرة. يبدو لك وكأنه جوال رمل، جوال دقيق، أو ثمرة بطاطس، هذه هي الصور التي تتراءى لك وهو جالس أمامك، فلا قفشة ولا نصاحة أو حتى جملة مفيدة، فقل لي بالله عليك ما المتوقع منك؟ أن تسأم طبعاً ويعتريك الملل، لكن ما ذنب الرجل؟ جاء للدنيا هكذا! المهم هو الإخلاص، وهو موجود والحمد لله، والعفة والقناعة، لا كلام فيهما فقد لاحظتهما بنفسك، وكذلك الأخلاق والأدب، أما البلادة والسماجة فهذه أشياء تخصه..

كلمة أخيرة يا مليجي، ألا تشعر ولو قليلاً بأنك تحاملت على العم مفتاح؟

أدري بأنك لا تكرهه من داخلك، تغتاظ منه أحياناً غير أنك تعرف قدره وإمكاناته، الشيطان هو الذي دخل بينكما ووسوس له ولك. وإن حكَّمت عقلك ووزنت الأمور

obeikandl.com

بموضوعية هو رجل خارج الحساب، بلغ من العمر أرذله وأمثاله بالقطع لهم هفوات وتخاريف، ثم إنه لو كان يخطط لإزاحتك من الفتونة مثلما تصورت، ما كان قد سلك هذا السبيل، كان قد فعل الذي يفعله معك خميس الآن، ربما كان يريد إشعارك بأهميته..

أراك تميل إلى ما أقول، وأكاد أخمن بأنك على وشك أن تستدعيه غير أن مُضغْة في القلب لا تزال تثنيك..

***

obeikandl.com

(٣٢)

لا تزال تتثاءب يا مليجي رغم الثلاثة أقداح قهوة التي جاءوك بها، والصفتي على مقربة منك يوزع المهام على الرجال.

يلعب الدور ذاته الذي كان يلعبه الدكروري، ليس في كفاءته طبعاً، فلا يزال أمامه سنين وسنين، كان مجرد (عواطلي) وانتشلته أنت من الضياع، لا أظنه ينسى لك هذا المعروف، فبعد أن كان مجرد حشرة من حشرات الحارة أصبحت له قيمة الآن. أخطر عيب فيه أنه خفيف أهوج، ولعل هذا هو السبب في أنك فضلت دياب عليه وقصرته هو على أعمال التنفيذ.

دياب!

دياب نفسه عليه علامات استفهام، وتتذكر غراب، فالشيء

obeikandi.com

بنقيضه يلوح. كان أستاذاً في لغة العيون، ولو حككت طرطوفة أنفك وأنت تنظر إليه، فهي ليست مجرد حكة إنما رسالة يتلقاها منك، أما دياب هذا ففي حاجة إلى ترجمان يجلس بينه وبينك ويشرح له بالتفصيل.

***

يدنو منك الصفتي، ينحني عليك هامساً وأنت تدع له أذنيك وتسمع. لم أتبين ما قاله لك على وجه التحديد، الذي فهمته فقط أن الموضوع يتعلق بدياب ورجل اسمه السخاوي، ووكالة جديدة سوف تُفتح عما قريب في الحارة. وألحظ وجهك قد تغير قليلاً، شيء ما بين التوجس وعدم الاكتراث، كأنك لست مقتنعاً بهذا الذي يقال لك، وفي الوقت ذاته تدهمك سوسة الشك. كلنا نعرف الصفتي وأن كلامه لا يؤخذ أحياناً على محمل الجد، لكن من يدري؟ فالحذر واجب والتدقيق أمر محمود، ولعلك تخاف من أن تلدغ مرتين، فيكفيك الذي حدث من قبل في موضوع الميليشيات..

وتعتريك الدهشة وأنت تتحسس الهشاشة التي ألمَّت برأس العيوشة، فلم يكن هذا الشيء موجوداً من قبل، فهل هرمت المسكينة وتطلب التقاعد! وترفع عينيك إلى الصفتي، لا تجده أمامك. تركك وانتحى بعاشور يتكلمان، تشير له بغضب كي يأتيك، وتزجره على خفته وتفاهته، فمن دقيقة كان يهمس لك بكلام مهم، ولا ينتظر الرد يطير ويقف مع

عاشور، والله أعلم أين سوف يذهب بعدها!
يقف أمامك مرتبكاً وأنت تنبه عليه بأن يصحو لنفسه، ومن باكر أو الليلة لو أمكن يتحرى ويتأكد من هذا الذي قاله لك، هما يومان على الأكثر ويأتيك بالخبر اليقين وحبذا لو كان عليه شهود.

وتمضي أمامك عجوز بهلاهيل، تنحرف مقبلة عليك فيتدخل الصفتي ويحول بينها وبينك. تشير له بأن يدعها. كليلة البصر. عرفتك من صوتك، وتحسست كتفك براحة يدها وهي تسألك: إن كنت أنت الفتوة؟
ترد عليها بالإيجاب، فتعاود السؤال: أأنت المليجي سبع الحارة وحاميها؟
فلا تملك نفسك من الزهو، وتهبط هي بكفها مربِّتة على صدرك وتقول: إنها لا عندها شكوى ولا تسألك في شيء، قلبها فرحان فقط بالذي فعلته مع أولاد هارون، وترفع يديها إلى السماء داعية لك بالستر وراحة البال.

يؤثر فيك كلامها، يهزك من الداخل، يشعرك بأنك محل تقدير. الستر وراحة البال، هذا هو فعلاً الذي أنت في أمسِّ الحاجة إليه. دعوة أمهات. لم تفعلها أبداً زوجتك محاسن، لم تقل لك كلمة طيبة على مدار عشرين سنة. تعاشرها بالمعروف ولا تسمع منها إلا قلة الأدب والإهانات، تأكل من خيرك وتعري رأسها وتنادي على عزرائيل كي يأتي

ويأخذك حتى ترتاح!

عزرائيل لي أنا يا قليلة الأصل!

وتقوم نصف قومة مخرجاً من كيسك حفنة نقود للعجوز، فتأبى إلا أنك تصر. وتسأل عنها عاشور، أقرب واحد كان يقف أمامك فالصفتي كالعادة اختفى، تسأله فيقول لك: إنها امرأة عم حبشي الذي يقف بمقطف ليمون في السوق، فتقول: سامحوه في الإتاوة.

أدهشتني يا مليجي، والله أدهشتني! فلم أكن أعرف أن قلبك رهيف هكذا، وأنك تُخْرِج من كيسك وتجود، الفتوة يعطي من ماله الخاص، جديدة هذه!

وتضع قدمك في المداس وتنهض، يقوم الرجال مع قومتك فتشير لهم بأن ينصرفوا الآن. تفكر في القيام بجولة في الحارة، جولة ودية ترى فيها الناس ويرونك، لا جولة من جولاتك السابقة التي كانت تتم في الخفاء، وتدع العيوشة لخادمك أبو اليسر ليتحفظ عليها حتى تعود.

فلا حاجة بك للعيوشة، لم يعد لها لزوم..

أخرجتها تقريباً من دماغك، فمنذ عدة أشهر من يوم عركتكم مع أولاد هارون، وأنت لا استخدمتها ولا حتى أشحت بها في وجه قطة أو كلب.

تمسك بها في يدك كشكل من أشكال البروتوكول، طقس من طقوس الفتونة.

Obeikandi.com

كما أنه يحزنك أن يراها الناس على هذا النحو، وَهَن عظمها وتنزف من رأسها أشياء كنشارة الخشب، إنهاء الخدمة أفضل حل لها، تلفها بجلباب من جلابيبك وتضعها معززة مكرمة في حجرة الخزين، لكن ما البديل؟ الدنيا أمان وتكفيك خيزرانة، ولا حتى الخيزرانة! تمشي هكذا مثلما يمشي الناس.

أفكار تطوف برأسك، هل سوف تأخذها مأخذ الجد أم هي مجرد شطحات تتسلى بها؟

***

الوقت وقت صلاة العشاء، والناس تتقاطر على الزاوية .. لم يكن في تخطيطك أن تبدأ الجولة بالصلاة، تصلي العشاء عادة في البيت قبل أن تنام. فوجئت بأن من يخلعون نعالهم في بحراية الزاوية يقفون لك وأنت تمر، حسبوا أنك قادم للصلاة، واتجهت نحوهم أنت الآخر بتلقائية. أفسحوا لك الطريق واستقبلوك بترحاب، فأنت لست الفتوة فقط بل والبطل.

وضعت مداسك تحت إبطك ودخلت، تربعت وجلست في الصف الأخير. ولم تسمع لمن ينادون عليك بأن تتقدم إلى الصف الأول، أشحت لهم شاكراً وقلت: لا فرق لا فرق، فكلنا في بيت الله. لم يَفُتْك أيضاً التربيت على ظهر عم حسن الخياط الجالس إلى يمينك، وسبعاوي الإسكافي الجالس إلى

obeikandl.com

اليسار. وعندما مر أمامك أحد الرجال ورآك، انحنى ومد يده ليسلم عليك، شحاذ محترف ممن يقفون على النواصي، إلا أنك أبيت أن تسلم عليه وأنت في وضع الجلوس، نهضت واقفاً ومددت له يدك بكل احترام، أحببت أن تبدو أمام الناس وكأنك رجل بسيط.

ولما نودي للصلاة أصروا أن تكون الإمام، فاعتذرت وأشرت بيدك بأن: لا، وقلت: سبحان الله من غضب الله، هل يا ترى نسلب الناس حقوقها! وسألت عن الشيخ خميس، أين هو؟ أين هذا الرجل المبروك؟! فهو الأحق بإمامة الصلاة. قلت ذلك ببراعة أفهمت الناس أن هذا فعلاً الذي تقصده، وتبسمت في داخلك عندما قال لك أحدهم: بارك الله فيك، تعطي كل ذي حق حقه وتفهم الأصول. تأكدت أنه ابتلعها، الكل تقريباً ابتلعها، غير أنهم قالوا لك: بأن الشيخ وبكل أسف متغيب عن الحارة منذ عدة أيام، فتقدم أنت. وكان رجلك (عاشور) بين المصلين، فاقترب منك مبدياً ضجره من هذا التغيب المستمر لخميس، وأن أمور الزاوية بهذه الطريقة لن تنفع، وحبذا لو نظرت في الأمر.

فوجئت بهذه النصاحة، وأنه فهم على الفور ما الذي يدور في دماغك، وقلت في نفسك: آه يا عفريت! أين كنت مُختبئاً عني، وكيف لم أنتبه من قبل إلى أن لك كل هذه المهارات! مع أول فرصة تلوح سوف أطيح بالصفتي وأضعك بدلاً

منه، فلم تعد بي طاقة للتافهين والأغبياء، أنا في حاجة لواحد مثلك، رجل (جاهز) يوفر عليَّ الجهد والوقت.

دارت هذه الأفكار سريعاً في دماغك دون أن يظهر على وجهك أي شيء بالطبع، وبكل هدوء وبلا أي مبالاة هززت رأسك هزة خفيفة وقلت لعاشور: إن شاء الله، إن شاء الله، وإن كنت أفضل التريث يا عاشور، فربما ألمَّ بالرجل شيء لا نعرفه، وأكيد معه عذره وحجته، فقال لك وكأن قلبه على المصلحة: لكن يا سِيدنا لا يجب أن نترك الزاوية هكذا، وإن كان للشيخ خميس اهتمامات أخرى فليدع الزاوية ويتفرغ لها، فالتقط الطعم رجل من الواقفين وانفعل قائلاً: عاشور معه حق، ففي صلاتي المغرب والعشاء أمس ظللنا نتلفت على من يؤمُّ الصلاة، وأول أمس نفس الشيء، فضع لنا حلاً لهذه المشكلة، ثم إن خميس هذا...

وتوقف الرجل بعد أن لَكَزه أحد الواقفين لكزة أسكتته، وأنت تلاحظ وتدون في رأسك دون أي تعليق. لم تشأ استجواب الرجل ولا استجواب هذا الذي لكزه بمرفقه، لم يشغلك أن أحداً تجاوز أمامك أو منع غيره من الاسترسال من الحديث معك، هذه أشياء لا يجب الالتفات لها الآن، الشيء الأهم أن هناك سلبيات على خميس وأن الناس بدأت تفطن لها. والتفت إلى عاشور، رمق كل منكما الآخر رمقة مشفرة، ثم وضعت يدك على كتف هذا المنفعل وأنت تقول: إن الله مع

الصابرين يا هذا، فأخشى ما أخشاه أن نصيب الشيخ خميس بجهالة، فلعله مريض أو يعاني من خطب ما .. والناس من حولك يكبرون فيك هذه الحكمة وهذه الإنسانية، وأكيد سوف يراجعون أنفسهم ويعيدون النظر في الأكاذيب التي يقولها لهم خميس عنك.

وأقبل عليك رجل كبير في السن، وقال لك: تقدم تقدم، فأنت الآن شيخنا، فقلبت كفك بما معناه، إن كان هذا الذي تريدونه فلا مانع وأمري إلى الله. وحمدت الله في سرك على أن غياب خميس أحدث كل هذه الزوبعة، وقلت في نفسك قبل أن تؤم الصلاة: تُرى أين أنت الآن يابن الأفعى؟ وهل غيابك فعلاً لعارض ألمَّ بك، أم أنك يا مجرم تخطط لمصيبة؟

وأطلت في قراءة القرآن، تخيرت الآيات التي تحرض على قتال الكفار وتذكر بالنصر، فهذا بالضبط الذي فعلته مع أولاد هارون. وكنت تتأنى في السجود، وتدعو للحارة وأهل الحارة بصوت مسموع. وبعد أن أنجزت الصلاة انتحيت جانباً ودخلت في صلواتك الخاصة، ركعتين في ركعتين ثم الشفع والوتر، وترحمت وتبتلت وأنبت وكأن شيخ الأزهر هو الذي يصلي وليس أنت. أثبتَّ لهم بالدليل والبينة، أنك لست بارعاً في العراك فقط بل وتقي ورع، وأن المسألة ليست حكراً على هذا الشيخ غير الملتزم، فأنت وبعون الله

openkanal.com

تستطيع أن تأتي بأفضل منه.

***

مررت بعدها على دكان زاهر الحلاق..

بوغت الرجل عند رؤيتك، لم يصدق أن الفتوة يقف على باب الدكان يضحك معه ويسامره، بل ويسأله إن كان له حاجة يقضيها. ومن دفقة الانفعال أقسم عليك بأن حلاقتك، أنت وأولادك وأحفادك على حساب المحل طول العمر. هو يعرف أن ما أقسم عليه ليس إلا (تحصيل حاصل)، فأنتم جميعاً ومعكم خادمك أبو اليسر وسواء بهذا القسم أو بدونه، ستحلقون عنده بالمجان حتى يوم الدين! الجديد أنه قالها هذه المرة من قلبه وبرضاه.

ورواد مقهى الحنش هللوا جميعاً عند قدومك، وأسرع واحد منهم محاولاً تقبيل يدك لولا أنك سحبتها مستغفراً. وقال لك وهو يرفع يديه ويحلف على ما يقول: إنه رُزق أول أمس بولد هو الخالق الناطق شكلك، وقد أسماه باسمك، فابتسمت له ابتسامة عريضة، وأخرجت له من سيالتك كل ما فيها من قروش وفكة وأنت تقول: وهذا للمليجي الصغير. والشارع والبيوت والدكاكين، الكل كان فَرِحاً بك. وآه لو صادفت المرأتين اللتين كانتا تنهشان لحمك من قبل، فاستحالة أن تكون نسيتهما، صاحبة الكوز وحاملة الإبريق، من المؤكد أنك كنت ستسمع منهما الذي يرضيك.

ورجعت إلى البيت وقلبك يقفز من الفرحة..

زوجتك ليست هنا، سافرت من أسبوع هي والعيال لأهلها في الصعيد. لم ترهم من سنين، وكانت تخطط لأن تبقى عندهم شهراً على الأكثر. شجعتها على السفر، وقلت لها: شهر! ما هذا الذي تقولينه يا أم سعيد؟ ابقي معهم قدر ما تستطيعين، شهران، ثلاثة، خمسة، وحبذا لو جئتِ العام القادم.

صدقت ما تقول، وسافرت المغفلة وهي تُكْبر فيك إحياءك لصلة الرحم..

***

obeikandi.com

(٣٣)

أبو اليسر ينتظرك أمام الباب ومعه العيوشة..

ولد ممتاز، كان صبيك أيام الفقر ولم يفارقك من يومها. لا تعرف من أين هو؟ من النوبة من السودان أو حتى من تنزانيا أو الصومال، لا تعرف ولا حتى اهتممت بأن تعرف، الذي أهمك فقط وجعلك تتعلق به خصاله الطيبة، أمين على أسرار البيت، وقلبه مثل اللبن الحليب. فكرت في أن تُلحقه بكار الفتونة، فبنيته قوية وعقله يقظ، غير أنك تراجعت. أشفقت عليه من هذا الكار الخطر، ولو سألوا قلبك: هل يرضى به زوجاً لبنت من بناتك، لقال: نعم، إلا أنك لم تطرح هذه المسألة على نفسك من الأساس، خوفاً من أن تقتنع بها وتدخل في جبهة قتال جديدة مع زوجتك محاسن. تتسلم منه العيوشة وتدلف داخلاً وعلى الفور إلى غرفة

obeikandi.com

النوم، وهو إلى غرفته الملحقة بآخر البيت. تخلع الجلباب، وبالفانلة والسروال تتمدد فوق السرير..

البيت لطيف وساكت، فلا حس ولا حركة ولا قلة أدب وزعيق محاسن. تود لو أنها تكون مؤدبة مع أهلها في الصعيد، حتى لا يملوا منها ويعيدوا شحنها إليك مرة ثانية، فلو حدث ذلك فالطامة لن تقع على رأس أحد سواك، ولن تقدر على تنفيذ الارتباط الذي ارتبطت به مع الحاج رزق قبل أيام.

روحك المعنوية عالية، بعد الجولة التي قمت بها. كنت تشعر بأن قدرَك لدى الناس ازداد بعد العركة التي تعاركتها، وأحببت أن تلمس ذلك بنفسك. ففي هذه الأمور الحساسة والتي تمسُّك أنت بالذات، لا تحب الاعتماد على أحد, ليس من دأبك أن تكلف أحد رجالك بأن يقيس لك رضا الناس عما تفعل أو تقول. سيرجع ويكذب عليك، كلهم هكذا، يلفون لفة في الحارة ثم يقولون لك: يا سلام يا عمنا على الذي يقال عنك، يا سلام!! ويسمعونك كلاماً كله زور. مررت بتجارب من هذا النوع، وانقرصت كل قرصة وقرصة. الدكروري هو الاستثناء، هو الوحيد الذي كان ينقل لك كل ما حدث دون زيادة أو نقصان، كورقة الكربون بالضبط، حتى البذاءة أو الشتمة التي تقال في حقك، لم يكن يستحي منك وينقلها لك بالكلمة والحرف. رجل محترف وهذا الأمر

بالنسبة له فعالية من فعاليات وظيفته، يجب أن تؤدَّى بأمانة ودون رياء أو خجل، فأين الدكروري الآن؟ راح وحل محله رجال يضعون فوق الكلمة عشرين.

المهم أنك قمت بجولتك وعدت مرتاحاً. أسهمك فعلاً في السماء. فهؤلاء هم أهل الحارة، بسطاء طيبون ولو أعطيتهم أقل القليل يسلمونك قلوبهم. وأنت من جانبك لن تتوقف عن العطاء ففي جَعْبتك الكثير، ومن الآن فصاعداً ستواليهم بالمفاجآت، فما النصر الذي تحقق على يديك إلا أول الطريق، والآتي بعده لا يقل عنه أهمية.

تفكر في أحلامك القديمة، ترتيب أوضاع الحارة..

لا تريدها حارة تافهة، حارة من ضمن ألف حارة ولا يسمع بها أحد، تريدها عفية، غنية، فتوتها له كلمة مسموعة، وخدم وحشم واليوم بالبالطو والجلباب الصوف لأنك مرتبط بميعاد مع المأمور، وباكر سوف تركب الكارِتَّة وأنت ذاهب إلى وكيل النيابة أو مفتش الصحة. فأنت لا تهتم بصالح الحارة فقط وتنسى نفسك، بل تحب أن تكون أول المستفيدين.

أول خيط لاح لك هو الأرض الفضاء، واسعة كبيرة وكلها خير، الناس هم الكسالى..

فهل يا ترى أنت الذي تزرع وتقلع فيها، وساعة الحصاد تقول لهم: أهلاً أهلاً (يا بهوات!). أم أنت مثلاً الذي تبني لهم فيها البيوت والورش والمحلات، وتنتظرهم على الباب

وعلى فمك كلمة: تفضلوا.

ولا تعجبك هذه الدكاكين التي تملأ الحارة..

الدكان حُق متر في متر، وصاحبه يرص فيه الزيت على الشاي على الخل والصابون، أو يضع فوق الرفوف سطرين قماش على حزمة مداسات، ويقول عنه وكالة، شيء يدعو للضحك!

وكالة الحاج رزق هي الوحيدة التي تملأ العين، لا تقول هذا محاباة له أو مجاملة لعيون ابنته زينات بل عن اقتناع. فلا مانع من أن تستمر وأن تسمى وكالة لكن بعد إضافة بعض التحسينات والتوسعات، وقد عقدت العزم على أن تناقشه في هذا الموضوع عندما يزورك هو والست (حماتك) يوم (الصباحية)، فهذا هو العدل وهذه هي المساواة كي تُخرس الألسنة وتمنع القيل والقال.

وما الحل مع المعلم عباس؟

ملأ الحارة بالدواب، عشر عربات كارو وعشرون حماراً في وكالته، ألم يسمع هذا (الناقص) من قبل عن شيء اسمه البغال وعربات الكارو العفية التي تتسع لخمسين زكيبة وفوقها عشرة ركاب. العربة منها ما شاء الله هي وبغلها، تقوم مقام ثلاث عربات من ذوات الحمير، فإما أن يواكب الذي في رأسك ويستبدل هذه بتلك أو يغور نهائياً من الحارة!

ولا يؤنبك ضميرك إن فعلت هذا، أو تتأثر بكلمة من هنا أو

هناك بأنك تحاملت عليه لعلاقة الصداقة التي تربطه بالشيخ خميس، فحاشَ لله.. أنت تبتغي المصلحة ليس إلا، ولست من هذا النوع.

ومن باكر ترسل في طلب رجلك القديم (البغل)، وتأمره بأن يبدأ بنفسه، فما هذه القمامة التي يقول عنها عربات وما هذه الحمير الجربانة الميتة؟! وإن لم يستجب تسحب منه قطعة الأرض التي وهبته إياها، هكذا قولاً واحداً، فلا فصال ولا نحنحة في هذه المسائل، القانون سيف على رقاب الجميع حتى ولو كانوا من المحاربين القدامى.

كما أن شارعَي الأزهر والغورية ليسا غائبين عنك، وعما قريب سوف تذهب وتجلس مع التجار هناك، فلماذا لا يفتحون فروعاً لهم في الحارة؟

حتى الخواجة سمعان الذي ذاع صيته في حارة أولاد هارون، ابن العفريتة هذا له فرن إفرنجي ويعجن ويخبز أشكالاً لم يسمع بها الناس من قبل، شيء يسمونه (بقسماط) وشيء اسمه (كعب الغزال) والتي يسمونها (غُريبة) أو (شَكلَّمة)، فهل هناك ما يمنع من أن يجيء ويفتح عندنا هنا في الحارة؟ نحن نتكلم الآن في تجارة، والتجارة لا لها ملة ولا دين ولا من يتفلسف ويقول: بيننا وبينهم عداوات قديمة، ألم يسمعوا من قبل عن الحارات التي كانت تذبح بعضها البعض ثم صارت سمناً على عسل!

نجيء الآن لأهم مسألة، للزاوية وشيخها خميس..

الحارة كلها، بصغيرها وكبيرها، ستقف معك لو استبدلت بها جامعاً. جامع كبير مبني بالحجر الدبش، وسجاجيد وثريات ومأذنة عالية، ودواليب وأرفف عليها مصاحف وتفاسير، أما الصحن فهو هو صحن جامع (أحمد بن طولون) ويتسع لألف نفر على الأقل. وانتبه جيداً لدورات المياه، فأول شرط فيها أن تكون محترمة وتليق. أبواب تغلق على الناس وهي تقضي حوائجها بدلاً مما هو حادث الآن، وتغور الكيزان والمياه التي في الجرادل، صنابير تفتح وتغلق بلمسة يد، مياهها نظيفة وآتية من (البلدية) مباشرة في أنابيب.

هذا الجامع ولا شك سيكون مفخرة الحارة، ومن يدري؟ فقد يسحب البساط من الجوامع التي حولك، ويأتيك الناس من حارات بعيدة يصلون ويسبحون ويسمعون دروساً ومواعظ.

لكن بماذا نسميه، هل نسميه جامع المليجي؟

ستكون مكشوفة وزائدة حبتين! لا مشكلة، ندع هذه المسألة الآن ونبحث لها عن حل فيما بعد، فالأهم من ذلك قطع دابر الشيخ خميس نهائياً من هذا الجامع. لا يؤم فيه صلاة، ولا يقعد أمام المصلين في درس، أو يطأ بقدمه درجة واحدة من درجات المنبر. يدخل وحسب للصلاة شأنه شأن أصغر

واحد في الحارة، وحبذا لو صلى في الصف الأخير، يضع مداسه في حجره ويقعد في المؤخرة مع المهمشين والذين وصلوا متأخراً.

تريد جامعاً لذكر الله ليس إلا، وسوف تختار له الشيخ المناسب، شيخ لا له تطلعات ولا مآرب ولا عنده ميليشيات أو يفهم في الألاعيب.

فما رأيك في (شلش) شقيق المعلم ياسين؟

غلبان ومنكسر، يحفظ جزء (عَمَّ) عن ظهر قلب، وله في الدروشة وهذا هو المطلوب.

أو (هاشم) ابن أخت الحاج رزق؟

هو الآخر بالجُبَّة والقفطان، ومن بيت محترم.

هاشم هذا معقول، وستكون له مرجعيتان: الحاج رزق من ناحية، وأنت من الناحية الثانية.

فأفضل شيء لك وللحارة ألا يكون لخميس أي وجود في هذه المرحلة، فأنت مقبل على أعمال ليس لها مثيل وأفكار من الصعب على الناس استساغتها، وتخشى أن يدس أنفه بين الناس ويؤوِّلها لهم على غير معناها. فلو لم تضربه ضربة قاضية يا أبا سعيد أو تُقْصِهِ بعيداً عن الحارة، سوف يقلب الدنيا عليك..

في الظاهر سوف يرضيك، ويقول لك بملء فيه: افعل يا سيدنا ما تراه، فأنت الأدرَى بالصالح. ومن ورائك سوف

obeikandi.com

يلعب لعبته، ويقول للناس: اللهم نجنا من فرعون وجنوده، اللهم أغثنا ممن لا يراعي الله فينا!

فرعون! أنا فرعون يابن الحرام، وتستغيث مني بالله!

وإن راجعته، سيقول لك: أنا شيخ وعلى رأسي عمامة ولا أقول إلا ما قال الله وقال الرسول، فما ذنبي فيمن يحرفون كلامي!

فقل لي بالله عليك، ما الذي تفعله معه ساعتها؟

هل تنزل على خديه بالصفعات، أم تجره لعرض الطريق وتلسع مؤخرته بخيزرانة!

إن فعلت ذلك سيتأثر الناس، ومن يقول: أعوذ بالله، ضرب الشيوخ أكبر حرام! ومن يقول: أبَعْد الوقفة على المنبر يُضرب هكذا على قفاه، هذه والله كبيرة من الكبائر!

ولن تجدَ أي شيء تقوله، فمهما قلت إنه ليس شيخاً مثلما تحسبون، أفيقوا يرحمكم الله! مهما قلت لن يصدقك أحد!

رجل أشبه بقرموط السمك، تجيء له من هنا فيجيء لك من هناك، تمسكه من ذيله فيفط منك ثانية في الماء. والناس أنت أدرى بحالهم، منهم المسكين ومنهم من لا يعرف الألف من كوز الذرة، على المستفيد وصاحب المصلحة، ومن سوف تغلق له دكاناً، أو حكمت عليه بأن يستبدل بحميره بغالاً، والخباز الذي تورط في منافسة مع فرن الخواجة سمعان. فلو حسمت أمرك فعلاً وعزمت على تجديد شباب

الحارة، فاعلم أن الذوق واللين ليسا هما الطريق السديد، ولا مندوحة لك من قرصة أذن أو قطع لسان.

أنت لن تفعل هذا لشر في نفسك لا سمح الله، فأنت من داخلك رجل ورع وتعرف الله، صالح الحارة هو الذي يشغلك ولا حل أمامك إلا هذا الطريق. الناس لن تفهم هذا بكل أسف، عبطاء، أحفادهم الذين سوف يأتون من أصلابهم هم الذين سوف يعرفون أنك لم تكن تعاقب بل كنت تعالج وتداوي، ومن الدواء ما هو مر المذاق أو حقن تُعطى في العضل والوريد. صحيح وخزها مؤلم، لكن يأتي بعدها الشفاء.

والآن دعنا من سيرة خميس، فلدينا شيء آخر يخصك أنت بالذات..

ألست معي في أنك أفنيت عمرك في سبيل الحارة، ومن حقك أن تتدلل وترتاح. كل رجل في الحارة له امرأة يعود إليها آخر الليل لتسرِّي عنه، أما أنت فتجد حلوفة في انتظارك. لسان كالفرقلة، وعلى استعداد لأن تبادلك اللكمات. تشعر بالخجل كلما تذكرت آخر مشاجرة تشاجرتماها معاً، كانت يوم الثلاثاء، اليوم الذي سافرت بعده بيومين إلى أهلها في الصعيد. لم تراعِ الله فيك! أخذتك على غِرَّة وكعبلتك، ثم جثمت فوقك وجعلت كتفيك تلامسان الأرض كالمهزومين في حلبات المصارعة، فهل سمع أحد عن فتوة يجري معه هذا!

أنت بشر يا مليجي، من دم ولحم وأحاسيس، فتمتع بما أحله الله لك. ما الذي يحول دون أن تسرع بالزواج من زينات، أبوها أعطاك كلمة وأنت تقدم رِجْلاً وتؤخر الثانية.

جدد شبابك يا أخي مثلما تنوي تجديد شباب الحارة، ولا مشكلة في السكن الذي يضمك أنت والعروس، أبوها شيد بيتاً جديداً في الحارة ولا تنقصه إلا بعض اللمسات، ولا أظنه يمانع! كل الحارة تعلم أنه بنى البيت لابنه الكبير شاهين، وما الفرق بينك وبين شاهين؟ ألن تأتي للحاج رزق بأحفاد أنت الآخر، كما أنه يصاهر الفتوة ذاته، أفلا يكفيه هذا! أما زوجتك محاسن فتعود معززة مكرمة إلى بيتها القديم، والمشاكل التي سوف تثيرها لا داعي لأن تفكر فيها الآن، أَرجئها لوقتها..

***

(٣٤)

خفت الرِّجْل من مقهى الحنش بعد أن دخلت..

صحيح أن الناس غيرت رأيها فيك، لكنك في الأول والآخر لا تزال الفتوة ولا يؤتمن جانبك. تسَّحبوا من فوق الكراسي واحداً بعد واحد، واسترخيت أنت على مقعد في الصدارة. بدءُوا معك أولاً بكوب عِنَّاب، ثم القهوة، وعندما جهزوا لك الشِّيشة فتحت أنت في الدخان إلى أن دلف أبو اليسر من باب المقهى يتلفت عليك. خمن أنك هنا، فمن الطقوس التي عودته عليها أنك كلما ذهب في مشوار خارج الحارة لا ترجع إلى البيت مباشرة، تمر على الحنش أولاً.

أقبل عليك ببشرته السمراء وأبلغك بأن العم مفتاح يود لقاءك، فأطرقت مفكراً، كنت محتاراً، فهل تلبي هذا الطلب أم ترفضه.

obeikandi.com

سألته: أين هو الآن؟

فأخبرك بأنه أتى بعد أن خرجت، ومن وقتها وهو يجلس على الدكة في انتظارك، فزُمْتَ زومة تفكير وقلت: اسبقنى أنت وسوف ألحق بك.

أنت اليوم بطاقَم التشريفة..

الجلباب الكشمير والجورب والحذاء وفي حجرك المِسْبَحة، وقبل لحظة خلعت العباءة السوداء وطويتها فوق المقعد الذي بجوارك، وبيديك الاثنتين وبرفق رفعت العمامة من فوق رأسك ووضعتها فوق العباءة ومعها العصا. عصاً صغيرة من الخشب الثمين لها رأس يشبه وجه القط، أهداها لك أولاد الغرابلي عندما رجعوا من الحجاز ولم تمسك بها في يدك إلا اليوم. لست مقتنعاً بها، أشبه باللعبة، تليق بالتجار، موظفي الحكومة، قليلي الحيلة، أما أنت فلا تفهم في هذه المساخيط، النبوت فقط هو الذي تفهمه ويفهمك، ناهيك عن العمامة التي خلعتها للتَّو. شيء أحمر له زر، ملفوف بشال أبيض له طرف يدخل من هنا وطرف يخرج من هناك. لا تلائمك، لا تجد نفسك إلا في الطاقية واللاسة، أشياء بسيطة تناسب سرعتك في الحركة ولا تمثل لك أية عقبة وأنت تلعب بالنبوت، أما العمامة فعالم آخر كما أنها لا تتناسب بتاتاً مع العيوشة، ستبدوان مع بعضهما البعض أشبه بالنشاز.

نادراً ما تخرج للناس بهذه الهيئة، تتململ منها، وتظل تتأمل نفسك مراراً في المرآة قبل أن تخطو خطوة واحدة إلى الخارج. الإحساس الذي تشعر به وقتها، أنك لست أنت وهذه الهدوم لا تمتُّ لك بصِلَة. إنسان آخر، واحد لا علاقة له بالمليجي مطلقاً. وتتوتر كلما حدق فيك أحد، أو أطال النظر إلى العمامة بالذات. ما باليد حيلة، كنت مُجْبراً، أحببت أن تبدو في أعين التجار الذين التقيتهم اليوم وكأنك أحد الأكابر، فتجار الغورية والأزهر تجار أثرياء، وهذه الهدوم حتماً سوف تثير انتباههم وترفع من قدرك أمامهم خمس أو ست درجات على الأقل.

رغم كل هذا لم تأتِ الزيارة بما كنت ترجوه، تغندرت ورحت، ومن الموسكي للغورية، ومن الغورية للأزهر، حتى تجار (بين الصورين) أدخلتهم في جولتك، وتكلمت وشرحت حتى جف لسانك، وما النتيجة؟ وعود في وعود وفض مجالس!

واحد اسمه (قطامش) متخصص في الكنافة والبسبوسة، هو الوحيد الذي كان متحمساً ووافق على أن يفتح له محلاً في الحارة. الذي أثار تحفظك عليه أنه خلال الساعة التي جلستها معه لم تَرَ أحداً يشتري منه، كما أن دكانه شيء أعوذ بالله! ماذا تفعل، هذا هو الموجود. وواحد آخر له مقلة لب، قال لك: لا مانع. المانع كان عندك أنت، فالرجل قليل

Obeikandi.com

الأدب مع الناس وفوق جبهته وحول فمه من ناحية اليمين ثلاث ندب غائرة. عرفت على الفور أن التي فوق الجبهة من ضربة شومة، والاثنتان اللتان عند الفم من جراء سكين. فهذا تخصصك، ولا تخفى عليك هذه المسائل. ومع ذلك وافقت، قلت: نجربه، فإن أحسن فلنفسه وإن أساء فعلاجه النبوت.

هذا الذي خرجت به، بسبوسة ولب! وتاجر (رد سجون)، وزميله الآخر نحس وبضاعته لا تباع! ناهيك عن هذا الذي خرج لك من تحت الأرض، كان مملاً ورذالته ليست على أحد. من أول محل (أولاد منصور) المتاخم لجامع الغوري حتى مطعم الكباب والنيفة القريب من بوابة المتولي وهو يلازمك، وكلما هششته بعيداً يرجع إليك مرة ثانية.

تسأله بضجر: ما الذي تريده مني يابن الناس؟

فيقول لك: جربني يا عم الحاج، جربني وأنت الكسبان.

تستعيذ بالله وتقول: أجربك! أجربك في ماذا يا أخينا؟

فيدنو منك ويرجوك: نتشارك معاً، نفتح محلاً عندك في الحارة، أنا النصف وأنت النصف، أعطني أي مبلغ الآن تحت الحساب، أي مبلغ! وإن شاء الله ألقاك غداً ومعي العينات، من كل صنف عينة!

وأنت ترمقه، وتقول في نفسك..

أنا عمك الحاج، وتريد مني فلوساً تحت الحساب، آه يابن

(الواطي!)..

غرتك طبعاً هذه (الهيصة) التي أتبختر بها، عباءة وعمامة وعصاً تحت الإبط..

ثم في ماذا نتشارك يا قليل الأدب، فأنت لا محل لك ولا حتى تسرح بعربة يد أو بيننا سابق معرفة! أتظن أني هكذا وبكل بساطة سوف أُخرج حافظتي وأدفع لك، ثم نتقابل في (المشمش!) بعدها..

أتحسبني واحداً من إياهم، أنا المليجي يابن العبيطة! ولو كنا في الحارة الآن لشربت من دمك، أو وضعتك فوق خازوق..

حدث لك كل هذا، وأنت الذي كان في بالك أن التجار سوف يهللون لرؤيتك. ومن سوف يتعاقد معك في الحال ليعمر أية خرابة من خرابات الحارة، ومن يساومك وأنت تتبغدد، والذي في حاجة إلى مخزن أو سرجة حلاوة أو حتى معمل للطرشي والمخلل، وتجمع أنت الفلوس في حجرك (وتبدُرها) في الحارة!

واكتملت بالعم مفتاح..

ما الذي يريده منك ؟ فأنت لم تَصْفُ له بعد، لا تزال في حاجة إلى بعض الوقت. لكن طالما جاء فلا مشكلة، فلا تنسَ أنكما من سلسال واحد، سلسال الفتونة، سوف تسمع منه وإن أفادك بشيء فأهلاً وسهلاً، وإن راوَغ ولاوَع تُعِدْه إلى

بيته مرة ثانية وتغلق عليه بالضبة والمفتاح.

كنت تأخذ وتعطي مع نفسك يا مليجي، وعلى مسافة منك كان الحنش يجلس صامتاً خلف (البنك). لم يطأ المقهى إنسان منذ أن شرفت، وكل هذا عليه بالخسارة. وما الذي بيده غير أن يغلق فمه ويسكت، فأنت الفتوة وإكرامك فرض، وليس من شيء يفعله سوى الصبر والدعاء لله بأن تنزاح من هنا بدلاً من وقف الحال هذا.

الحنش ابن حظ ويميل إلى الفكاهة، ليس ثقيلاً كالحنش الآخر الذي في الحقيقة، لا أعرف كيف سيطر على نفسه وهو يرمقك من تحت لتحت، خاصة عندما أمسكت العمامة بيديك ووضعتها لحظة فوق رأسك على سبيل التجربة. كاد أن ينفجر في ضحكة من ضحكاته لولا أنه عض على شفتيه وكتمها، تحاشى النظر إليك نهائياً بعدها، فهو يعلم أنه لو بدر منه أي شيء ولو حتى ابتسامة ففيها نهايته. ركز بصره على الشِّيشة فقط، وكلما خفت الجمر أو شارف الحجر على الانتهاء كان يشير إلى صبيه بأن يسرع إليك بالمطلوب.

أخيراً قمت، لملمت محتوياتك وخرجت قاصداً العم مفتاح.

***

(٣٥)

لم يمهلك العم مفتاح حتى تفرغا من السلام والتحية، بادرك سائلاً عن دياب، فحدقت فيه باستغراب:

- وماله دياب؟ آهو كويس وعال العال.

- كويس وعال العال! صلاة النبي على الناس اللي نايمة ومتغطية باللحاف!

استفزتك طريقته في الكلام، غير أنك اليوم فيك ما فيك ولا ترغب في شجار وغلط. حرف العمامة هو الآخر يسبب لك نوعاً من الحساسية وتود لو حككت جبهتك، تخلعها نهائياً من فوق رأسك وأنت تنفخ وتقول: الطف بعبيدك يارب!

تضعها في حجرك وتسكت، تشغل نفسك بتدليك الحَزّ الذي خلفته فوق جبهتك، ويتأملك هو:

- بسم الله ما شاء الله! إيه القيافة دي كلها، وجاي على

obeikandi.com

كده منين؟

- خليك في حالك، وخلصني عايز إيه؟

- تمرانة فيَّه العشرة ومش عايز أسيبك على عماك، حط عينك على دياب يا أبو سعيد.

فتستدير إليه بكل جسدك:

- دياب مين؟ دياب بتاعنا؟

- أيوه دياب! شغال من وراك زي القشاط، ومعدش له شغلة دلوقتي إلا إنه يلوِّش من اللي رايح واللي جاي.

- وجبت الكلام ده منين؟

- من ريحته اللي فاحت في الحارة.

- ما تفسر؟

- يعني ماسمعتش عن حكايته مع السخاوي!

تتذكر ما سبق أن همس لك به الصفتي، وتحاول ألا تبدو أمامه بأنك لا تدري بما يجري في الحارة:

- قصدك على السخاوي بتاع المانيفاتوره؟

- هو بعينه.

فتتلكأ باحثاً عن إجابة، ثم تنقر بإصبعك خفيفاً فوق ركبتك وأنت تقول:

- آه سمعت، ولسه بابحث في الموضوع، وإن كُتّ شايف إن السخاوي لا له سكة معانا وللا له مصالح في الحارة، وكالته هناك جنب سوق السمك ويدوبك الراجل ساكن عندنا.

obeikandl.com

- أنا بقى سبقتك يا عمنا، سألت واتطقست وعرفت إن كل اللي بيتقال صح الصح.

فتلزم الصمت حتى لا يكتشف جهلك، تدعه يتكلم:

- دا خلاص كلها كام أسبوع ويفتح عندنا.

- وهيشتغل طبعاً في القماش والطرح والترابيع؟

- بالظبط كده.

- يعني عايز يضارب الحاج رزق.

- ما انت عارف إنهم طول عمرهم مبيحبوش بعض.

وتقول له أي كلام:

- هو لا شاورني ولا فتح معايا كلام لحد دلوقتي، وأنا حسبتها في دماغي وقلت سيبه لحد ما يقع في الغلط ويفتح الوكالة وساعتها نتحاسب.

ثم تحاول استدراجه لتعرف تفصيلات أكثر:

- أنا اللي محيرني هو دياب، إيه اللي حشره في الموضوع؟

- دا دياب ده هو أسّ البلاء، بسلامته عامِلِّي فيها سمسار، ومن أسبوع خلص خلاص مع طُلْبة المكوجي، دكانته براح وتنفع وكالة.

وتكذب:

- أنا سمعت الكلام ده برضه، بس مش مصدق.

- لا، صدق وصدق.

- طب مش كان ياخد مني الإذن قبلها، ابن الحرام ده مش

عارف إنه واحد من رجالتي، وفي الأمور اللي زي دي أنا اللي أقول آه وأنا اللي أقول لأه.

- غشيم!

- غشيم، وللا سايق الهبل على الشيطنة.

- شوف إنت بقى.

- وطبعاً مش لله في لله؟

- لله مين يا أبو سعيد، دا قابض في الحكاية دي عشرين لحلوح.

- يابن الكتعة!

- الكلام ده من الزناتي أفندي اللي كتب العقود.

- دا على كده دياب بقى تبقى حكايته حكاية.

- معلوم، يسرح مع الغنم ويرجع مع الديابة.

ويشيح لك بيده:

- مش كده وبس، ده أنا سمعت كمان إنه بياخد من المعلم عباس مليم في اليوم عن كل حمار.

- وبياخد بصفة إيه؟

ثم تنفجر غاضباً:

- دا لو الكلام ده صح يبقى بيتعدى عليًّا، آهي دي بقى ألعن من اللي فاتت!

وتدق بكعب العيوشة فوق الأرض:

- وكمان يا دُونْ بتاخد من المعلم عباس، الحكاية دي لازم

يتعمل فيها سين وجيم.

- مش قلتلك غشيم وزغللته الفلوس.

فتقول بأسى:

- وأنا اللي كُتّ بقول عليه جدع خام وشوية شوية هيشرب مني الكار، وبعد عمر طويل هو اللي هيقعد مطرحي!

- مطرحك! تف من بقك تف! دا انت تبقى إديت الحارة حتة دين خازوق.

ويردف وهو يشيح لك بسبابته:

- ومش أي خازوق، دا خازوق من أبو بريمة اللي بيرشق ولا يطلعش.

- على كده قطع الرقبة يبقى حلال فيه.

- حلال! دا انت تقطعه حتت وترميه للكلاب.

- ما هو مجاييك!

- أنا يدوبك قلت إنه ينفعنا في عركة ولاد هارون، إنت بقى اللي خدته على حجرك بعدها وقعدت تهنِّن وتكبَّر.

فتسكت..

- ولسه فيه حكاية تانية، بس لسه مجبتش قرارها، قال يا خويا والعهدة على اللي بيقول إن الشيخ خميس هو راخر جايب جماعة سُنية، ناس بلدياته من أبو صوير وإشي من مركز كوم حمادة ودمنهور، وناويين يفتحوا محلات ودكاكين هُمَّا كمان.

obeikandl.com

- بتقول إيه! يا نهار أبوه أسود هو كمان.

***

obeikandl.com

(٣٦)

يدَعُك العم مفتاح وأنت عقلك يدور..

الرجل أخباره ماركة مسجلة، ولو عندك شك وتريد أن تتأكد كلف أحد رجالك بأن يأتيك حالاً بكل المتهمين، السخاوي وطلبة وعباس، وأطبق بيديك على عنق أي واحد فيهم، الكل ساعتها سوف ينهار ويعترف. دعنا من الزناتي أفندي رغم أنه هو الذي كتب العقد، فلا داعي للتهور معه أو استخدام العنف، فالرجل يعمل في قلم المُحْضَرين بالمحكمة وليس من صالحك الدخول في مشكلات مع الحكومة. تعامل معه باللين، فنجان قهوة تشربه معه، وبالحسنى وأثناء الدردشة تذكِّره بالخدمة التي خدمتها لخالته (أم السعد)، وأنه لولاك لسلخوا وجهها وانكرشت من الحارة. لا أظنه يمانع عندما تفتح معه الموضوع بعدها، سوف يحكي لك ما الذي حدث

obeikandl.com

بالضبط، والذي أخذه دياب في هذه العملية وبالسحتوت.
حظك هكذا، وثقت في دياب وهذه هي النتيجة!
أنت تجري هنا وهناك وليس في رأسك إلا الحارة وأهل الحارة، والذين حولك من يخطف ومن يبحث عن عمولة، والذين انتهزوها فرصة ليفتحوا محلات ودكاكين ويلعبوا في قوت الحارة..

من طلعة النهار يا مسكين وأنت تلف على كعبك في هذا الحر، من تاجر لا تأخذ منه سوى الريق الحلو، إلى تاجر أقصى طاقته أن يُضيفك بسطل خَرَّوب، ومن بائع البسبوسة إلى بائع اللب، وأخيراً هذا النصاب الذي كان يلعب لك بالعين والحاجب!
لمن تفعل كل هذا، وما الذي سوف يعود عليك؟
لا شيء! والله لا شيء! بغددة على مَرْيَسة على افتخار ليس إلا، والخير كله سوف يعود على الحارة، فقد وطَّنت نفسك على المحصول الذي يأتيك من الإتاوة، رضيت به ولا تريد المزيد. من قديم الأزل، من قبل العم مفتاح بكثير، وهو زاد الفتوات وحقهم المشروع وما بعد ذلك فهو حلال زلال للناس. فهذا دأبك ودأب الفتوات المحترمين، يحقون الحق وبأرواحهم يفدون الحارة، والإتاوات التي تُدفع لهم شيء لا يذكر، سهم بسيط لا المشتري في السوق يشعر به ولا التاجر يتحمله.

أما هذا الضلالي فمن أولها خاض في الوحل، نسي أنه لا يزال فتوة تحت التمرين، نسي هذا الأمر البسيط وبدأ في السمسرة والتهليب! وبدأ بمن؟ بالسخاوي خَصْم صهرك الجديد، أليس عنده مخ! حبة تمييز! ألا يعرف أن عدو صهرك هو عدوك في ذات الوقت.

غشيم وزغللته الفلوس مثلما قال العم مفتاح، ولا يهمه بعدها أن التجار تقع في بعضها البعض أو أنت نفسك تقع في حرج، المهم هو العشرون لحلوحاً التي قبضها!

ليس حراماً أن تدخل أنت الآخر في عملية سمسرة، مثلما فعل دياب..

لكن بعد ماذا؟

بعد عمر وسنين وسنين في الفتونة، كما أنك ومهما أخطأت، أقصى حدودك أن تغض الطرف عن شيء ما، لا تمانع من أن يدخل عليك أحد بهدية، تبيع شيئاً من أشيائك الخاصة بضعف الثمن أو حتى بثلاثة أضعاف، ولا تثريب عليك! فالذي تبيعه لا يقوِّمه الناس بتاتاً على أنه مجرد متاع يُباع ويُشتري بسعر السوق، بل على أنه تراث وأثر وفيه شيء من رائحة الفتوة! أما هذا الذي لا يزال في الروضة فبلا خجل ولا حياء بدأ من حيث انتهيت، فهل هناك (فَرَاغة عين) أكثر من هذا! فقل لي بالله عليك، ما الذي تتوقعه من هذا الإنسان بعد عشرين سنة في عالم النبوت، هل يبيع

الحارة كلها ويسلمها تسليم مفتاح للمشتري!
ثم أين كان عقلك يا مليجي، أيام أن كان هذا الموكوس يتعفف عن فلوس الإتاوة!
لماذا لم تسأل نفسك ساعتها، من أين يأكل ومن أين يشرب؟ ومن أين يكسو عياله ويدفع ثمن قَرْعة البوظة التي يطفحها كل ليلة في خمارة عاكف؟
كان يلعب بك!
ومن ينسى اليوم الذي شاهدته فيه هو (والمدام)، لا تقل لي إنك نسيت! اليوم الذي كانا راجعين فيه إلى الحارة بحنطور. كان هذا من قرابة شهر، يوم عاشوراء بالضبط، وكنت ساعتها لا تزال نائماً في العسل، ورغم ذلك ساورك الشك، وقلت في نفسك: من أين أتى هذا (الجِعِرّ) بأجرة الحنطور، وبنت الكلب هذه فستان بخرز وفوق الصدر ترتر وفيونكات!
ألا يستحي!
يدخل عليك الحارة بحنطور، وينزل منه لابساً بالطو فوق الجلباب وتحت إبطه شمسية؟
تحتاط من الشمس والمطر الآن يابن الأفعى، بعد أن كنت مجرد فواعلي يلف رأسه بمنديل! وزوجتك بنت (زقزوق الكناس) بعد الشبشب المخروم، تمشي في الحارة الآن بحذاء بكعب!

وأنت الآخر يا خميس، لا أهلاً ولا سهلاً بك..

تأتينا بعشرين لحية دفعة واحدة، عشرون سُنيّاً يفتحون دكاكين ومحلات، أتريد الإمساك بحنجرة الحارة؟!

دياب مجرد غلطة غلطتها وبضربة نبوت ينتهي وتنتهي سيرته، أما أنت فتريد شفط الحارة كلها في معدتك. تبرُك عليها كالجمل الذي استحلى المطرح ولا يريد أن يتزحزح، ويغور الحاج رزق، وأنتم يا أولاد الغرابلي سمكروا وكالتكم بالترابيس، ويا معلم دربالة ما الذي تفعله هنا؟ فُكّ التعريشة فُكّ ومع ألف سلامة، وخليل الفكهاني وزكي الموان وحسونة المغنواتي، كله كله وداعاً وداعاً وفارقونا بالحسنى وإلا رأيتم منا قلة الأدب! ويصبح الزيت زيتكم والدقيق دقيقكم، والسكر والشاي والمداسات والطواقي والطُّرح..

وإذا قلت لكم: الإتاوة الإتاوة يا مؤمنين يا موحدين بالله، سوف تتسحبون من أمامي واحداً بعد واحد وتضعون رؤوسكم في رؤوس بعض، وإن لوحت بالعيوشة، الله أعلم بما تخبئونه في جرابكم، فقد تغلقون محلاتكم وتجوعون الحارة! وما المانع ساعتها من أن تستأجروا لكم فتوة، وأنزاح أنا نهائياً من الحارة..

لا والله لن يحدث هذا، ولو على جثتي..

أفرغ أولاً من عقد قراني على زينات، ثم أكنسكم كنساً من

الحارة بعدها..

***

obeikandl.com

(٣٧)

غفا قناوي غفوة بعد الظهر، وبدأ في الاستيقاظ بالتدريج .. لا يزال مستلقياً في الفراش، وإلى جواره فوق الكومدينو كومة من الجرائد. يمد يده إلى أقرب جريدة، وعنوان بالصفحة الأولى يقول: من الآن فصاعداً سوف يتذوق الناس طعم الحرية، فغمغم بضجر: طعم الحرية! ملعون أبوكم جميعاً، لماذا لا تكونوا واضحين مثل المليجي!

المليجي.. المليجي.. أنت في البال دائماً يا حضرة الفتوة، رغم أنك تلعب معي لعبة القط والفأر. هو أسبوع واحد الذي انشغلته عنك، مشاجرة لا كانت في الحسبان ولا الخاطر نشبت بيني وبين (أم خليل). أكيد تعرفها، (الست هانم) التي تفرش أسفل شباكي. أعوذ بالله منها ومن كل نسوة شبين، صوتها غليظ كصوت ذكر البط وخليل هذا في حجرها ولا

obeikandl.com

يكف عن النفخ بزمارته، وأنا في الداخل لا نوم ولا راحة ولا تركيز.

شكوتهن جميعاً للبلدية، ومحاضر ونيابة وتلغرافات. أيام عصيبة لم أسلَم فيها من قلة الأدب والبذاءات، تصور يا مليجي! حتى المرأة الفالصو التي تقعد بمشنة كرات وبقدونس، حتى هذه التافهة هددتنى بأني إن لم أبتعد عنهن بالخيزرانة التي في يدي سوف تفتح رأسي بكفَّة الميزان، بلهاء! فعلاً بلهاء، وفي فكرها أني سوف أخاف وأتراجع .. سبعة أيام أنا بالخيزرانة وهن بالشباشب، حتى أثبت للجميع أن هؤلاء النسوة أخطأن في العنوان، فليس (قناوي) الذي يكش ويخاف ومن الأفضل لهن أن يتحاشينني نهائياً ويرحلن عن الحيز الذي أعيش فيه. والله يا مليجي وبحق ما بيننا من عِشْرة علمتهن الأدب جميعاً، هي بطحة، بطحة بأعلى الحاجب وسلفا وشاش وميكركروم، لكنهن دفعن ثمنها غالياً!

هل تسمعني يا مليجي؟

يا سبحان الله! لا حس ولا صوت، أين ذهب هذا الأُلْعُبان؟

اسمع يا هذا، هذا الأسلوب لا ينفع معي، فلا تناكفني أرجوك وقل لي: أين أنت الآن؟

آه. أمسكت بك. كنت تستحم، لك حق، فاليوم يومك والزفاف زفافك..

تخرج من الحمام بسروالك الداخلي، ورأسك ملفوف ببشكير. لم أكن أحسب أنك غامق إلى هذا الحد، ربع درجة في اللون هي التي تفرق بينك وبين أبي اليسر، لعل هذا هو السبب في اعتزازك به وسر (الكيميا) التي تجذب كُلاًّ منكما للآخر. تدلف إلى غرفة النوم وهو وراءك، يفتح الدولاب ويُخْرج لك جلباباً من دفعة الهدايا التي وصلتك مؤخراً، ثم اللاسة والطاقية ويمد يده لك بالعيوشة. تشيح له بأن: لا. لا. فليس اليوم يومها، تتجه بعينيك إلى العصا الصغيرة، تقلبها في يدك غير مرتاح لوجهها الذي يحاكي وجه القط، لكن لا مفر فالعيوشة سيكون دمها ثقيلاً اليوم.

يسألك، إن كانت العروس سوف تأتي إلى هنا؟

فتتعجب من السؤال: هل جُننت يا أبا اليسر! طبعاً لا، فهل لهذه الزرزورة طاقة على العيش مع بومة مثل محاسن.

وتفرك كفيك بسعادة، فمن اليوم سيكون عش الزوجية البيت الجديد الذي بناه الحاج رزق بمدخل الحارة، البيت المفتخر الذي أقنعته بأنك أولى به من ولده شاهين. الحمد لله، مر الأمر بسهولة. لم تبذل جهداً يذكر في إقناعه، فالعيوشة بارك الله فيها كانت تقف في حجرك وأنت تعرض وجهة نظرك، والرجل ساكت ومتقبل فهو قديم في الحارة وأدرى الناس بطبعها، حلقومها ضيق ولا حول ولا قوة إلا بالله إذا احلوَّ شيء في عينيها، لا نقاش ولا أخذ ولا عطاء سوف

يأتي معها بنتيجة.

يسألك ثانية عن سيدته القديمة محاسن، فما الوضع الآن؟ هو موضع سرك، فلم تُخفِ عنه أن هذا الأمر هو فعلاً شغلك الشاغل، فقدوم محاسن في هذا التوقيت سوف يوقعك في ورطة ويقلب مخططاتك رأساً على عقب، لكنك تصرفت! أرسلت لها مرسالاً يبلغها بأن وباءً ضرب الحارة وأصاب الناس بالإسهال، حتى القطط وكلاب الشوارع لم تسلم منه، ولا حل أمامها الآن إلا أن تبقى حيث هي ريثما تنزاح هذه الغمة، فلا حركة تتحركها من مطرحها أو تفكر نهائياً في ركوب القطار إلا بعد أن يأتيها الإذن. وقلت في نفسك، أهنأ أولاً بشهر العسل ثم أفكر بعدها في ملعوب جديد.

***

ينهض قناوي من السرير بعد هذا المشهد، ريقه جاف وفي أمسِّ الحاجة إلى كوب شاي دافئ. يعبث في محتويات المطبخ بلا طائل، فلا فتفوتة سكر واحدة والشاي أيضاً لا يكفي، نصف تلقيمة. لا مشكلة، نشرب الشاي عند الحنش، أبدل ثيابه وخرج.

المقاعد أغلبها فارغ، سرادق عزاء منصوب في أول الحارة والكل هناك، كما أن طاولته لا يشغلها أحد. سحب مقعداً وجلس، ثم أشار بيده لشحاتة بأن يلحقه فوراً بالشاي.

والآن يا أخ مليجي ما أخبارك الجديدة، توقفنا عند الملعوب

الذي تجهزه لمحاسن، فما الذي حدث بعدها؟

آه. تسمع طرقاً فيسرع أبو اليسر ليجد العم مفتاح واقفاً بالباب، يدخل عليك بجلباب مغسول غسلة نظيفة. لم أَرَ على هذا الإنسان جلباباً نظيفاً إلا اليوم، والشكر لله على ذلك فإن لم يفعلها يوم (كَتْب كتابك) فمتى يا تُرى سوف يفعلها! غير أن وجهه كان جهماً ويسألك بانفعال وعصبية عن دياب، فلا يزال واقفاً بالخارج، ألم تتخلص منه بعد؟ تتقبل منه هذه الدخلة العنيفة بكل أريحية، فهمتما بعضكما البعض الآن واتسع صدر كل منكما للآخر. فتدريجياً راح من فكرك أنه يمثل خطراً عليك، وهو يراك معقولاً، صحيح أنك من هواة اللعب بالبيضة والحجر وزمامك فالت، غير أن أجمل ما فيك عشقك للحارة.

تلقاه بِبشْر وتقول: التقط أنفاسك أولاً يا رجل يا عجوز، وتعال هنا إلى جواري.

يدنو منك فتشرح له وتفهمه بهدوء، بأن هذه هي الأيام الأخيرة لدياب في الحارة. ففوراً بعد أن يفرغ المأذون ويشرب الناس الشربات سيأخذكما (أتوموبيل) أنت والعروس إلى القناطر الخيرية، كلها ثلاثة أو أربعة أيام التي سوف تقضيها هناك، وخوفاً من المشاكل لا تريده أن يعرف ما الذي في نيتك تجاهه، فلو كان الدكروري حياً يرزق أو غراب بين الرجال ما تحسبت أو انشغلت، أما

مع أشكال كالصفتي ودرويش أو حتى عاشور أنت غير مطمئن، لا يزالون عيالاً وعظامهم طرية، ودياب هذا كالجاموسة وتخشى من ردة فعله وأنت غائب إذا شعر بأنه سوف يخرج من المولد دون حمص، فأفضل خيار أمامك الآن أن تتركه على عماه.

وبتلذذ وسعادة تكمل للعم مفتاح:

- وأول ما أرجع من القناطر هقولُّه تعلالي هنا يا قحف، وأبعت أجيب عربية كارو من بتوع المعلم عباس.

وتتوقف فجأة مستبدلاً بكلامك الفكرة التي طرأت على ذهنك حالاً:

- وعباس ليه؟ ما البغل هو راخر عنده وكالة، خلاص يبقى الكارو من عنده وأخليه هو كمان اللي يسوق، آهو على مقاس دياب وهو اللي يعرف يتفاهم معاه، وأقول أنا لدياب: نُط يا خويا نُط على ضهر العربية وخد مراتك وعيالك وكل اللي يخصك من متاع، وماشُفْش وشك هنا تاني، انساني وانسى الحارة أنا مش ناقص أوجاع.

وتفلت منك ضحكة:

- وآخد أنا البغل على جنب وأحلفه بعينه وعافيته وبحق عشرتنا القديمة ووكالته اللي خدها مني ببلاش، إن القحف ده لو قالُّه اطلع بينا على بحري يفضل ماشي ماشي وميبنزلوش إلا في كفر الشيخ، وإن قال قبلي ميخليش رجله

تطبّ الأرض إلا في قنا أو أسوان، وإن حب يشرَّق يبقى عِدِل على جبل الطور.

فيومئ العم مفتاح برأسه راضياً، وتسأله أنت عن خميس وجماعته: هل سمع عنهم أي خبر؟ فيهز سبابته بأن: لا، ويقول لك بوجه غير مرتاح: إنهم اختفوا من الحارة منذ مدة، وخميس بالذات لم يعد يراه أحد في الزاوية كما أن دكانه مغلق وكذلك البيت.

فتجيبه بغير اكتراث:

- يعني راحوا فين! يللا يللا آهم غاروا وارتحنا منهم.

لا يعجبه تبسيطك للأمور، فاختفاؤهم هكذا فجأة شيء يدعو للقلق ولا يؤخذ بتاتاً بهذا الاستخفاف. وأنت لست هنا، شوشت عليك تماماً العزة والعظمة وثقتك بنفسك المبالغ فيها، وتعيد التأكيد عليه بألا يحسب لهم حساباً أو يخشاهم سواء ظهروا أم اختفوا، فأين أنت وأين هم عند الناس، فالحارة ما شاء الله لها مخ يفرز الغث من الثمين.

وتقلب كفك مخاطباً نفسك وضميرك..

العراك وتعاركنا، أولاد هارون وعرفناهم أن الحارة بفضل الله ثم الفتوة قامت من غفوتها، والأزهر والغورية سأظل بينهما كالمكوك حتى يأتي الفرج وألقى تجاراً محترمين غير هؤلاء الصعاليك الذين التقيتهم من قبل، والحمد لله جاءنا خبر من البلدية بأنها وضعتنا في الخطة والبداية

بالشارع الرئيسي، رصف وبيوت ومكتب بريد ويفكرون في عمل ميدان واسع أمام البيت الذي أسكن فيه.

وتشرد بعينيك إلى ما هو أبعد، وخيالك يلعب بك الكرة ويُوَدْوِد لك بأن من المؤكد أنهم في البلدية لم يعرفوا بعد بأنك سوف تنتقل إلى بيت جديد، فأنصحك بأن تمر عليهم بعد رجوعك من القناطر، ليعيدوا التخطيط وينقلوا الميدان إلى هناك وحبذا لو نصبوا لك فيه تمثالاً.

وتخرج من شرودك على صوت العم مفتاح وهو يسعل، فتهب واقفاً وأنت تقول: هيا بنا هيا، فقد تأخرنا على العروس.

تسيران نحو الباب وأنت لا تزال تعيد وتزيد بأن ينسى هؤلاء الناس، وإن ظهروا ثانية على الخريطة فلهم عندك مفاجأة لا تسر، سوف تفعل معهم نفس الذي فعلته (مرجانة) مع عصابة (علي بابا)، كل واحد منهم سوف تضعه في زكيبة وترميهم جميعاً في النيل! وهو ينصت لحديثك دون أن يدخل دماغه كلمة واحدة من كلامك، إلى أن دلفتما من باب البيت والزهو بلغ منك أقصى مداه.

***

(٣٨)

نادى قناوي بأعلى صوته طالباً الشَّيشة، غير أن شحاتة كان مشغولاً بزبائن أكثر منه أهمية ولن يلتفت إليه نهائياً مهما هلل أو صاح، ولاحظ الحنش فقام له بنفسه، خشي أن يفلت زمام قناوي ويسبب له فضيحة في المقهى كالفضائح السابقة. وضع الشِّيشة أمامه وسحب منها نَفَسين على سبيل التجربة ثم سلمها له، وقناوي يقلب المبسم في يده ويرمق الحنش بتأفف كما لو أنه يتعامل مع حشرة، والرجل لا يعلق، تعود على هذه التصرفات غير المفهومة، لسان حاله هو الذي كان يقول: الشِّيشة هي الشِّيشة والمبسم هو المبسم الذي وضعته في فمك خمسين مرة من قبل، دعنا في حالنا يا أخي! ارحمنا يرحمك الله!
وتركه وانصرف..

obeikandl.com

وقناوي لا يزال يتفحص المبسم، لا يعجبه، لا هو ولا الحنش ولا (القهوة) كلها، فأين هي من (القهوة) التي في حارة المليجي، وأين هذا الحنش من ذاك الحنش الذي صنعته يداه! الأكواب هناك نظيفة والفناجين عليها زخارف ورسومات، ناهيك عن المقاعد والطاولات وصورتَيْ (مصطفى كامل) و(سعد زغلول) المعلقتين على الحائط، أشياء أفضل من هنا بكثير، دنيا جميلة وحياة مستريحة، حتى نوع الشاي، شاي (الشيخ الشريب) الذي يشربونه هناك، شاي نكهته طيبة، فلا عكارة ولا غبارة ولا تفل منقوع كالأنواع التي تقدم هنا.

ويتأمل الحنش الذي عاد إلى موضعه خلف (البنك)، تأمله وهو يتثاءب مرة واثنتين وخمسة وحتى بعد أن شرع في النوم.

نمت! حسناً فعلت، وحبذا لو غطوا وجهك بخرقة أو فوطة لنرتاح منه!

ومع أول نَفَس جذبه قناوي من الشِّيشة، لاحت له الحارة والمليجي والعم مفتاح والناس الذين يحبهم ويحبونه. ويسأل نفسه: أين توقفنا يا عم قناوي؟

توقفنا.. توقفنا.. آه. توقفنا عند المليجي وهو خارج من بيته، فما الذي حدث بعدها؟

الذي حدث بعدها يا عمنا أن الدنيا كلها كانت فرحانة،

رايات ونفافيخ وصبيان وبنات من الحارة وغير الحارة، وفرقة من فرق العزف الشعبية تتقدمها طبلة من ذوات الحجم الكبير، وأربع عجائز بجلابيب كستور مخططة فوقها سترات كسترات العساكر، أعينهم جميعاً كانت على الباب الذي سوف يخرج منه المليجي، وأول ما ظهر أشار أكبرهم سناً بإصبعه عالياً، فبدءوا بالعزف على الآلات التي يحملونها.

هذه هي المجاملة التي جاملك بها أولاد الغرابلي، وحذا الحنش حذوهم، أوقف صبيته بعشرين صينية عليها أكواب الشربات وجرادل ماء بارد، أما المعلم ياسين فتكفل برحلتك إلى القناطر، من أول أجرة (الأتوموبيل) إلى كافة المستلزمات التي تحتاجها هناك. الريس دربالة أوعى من كل هؤلاء، لم يشأ دفع فلوسه في تفاهات سرعان ما تُنسى، اشترى لك ساعة من محل (عانوس) بميدان العتبة، ساعة جيب تحفة، السلسلة قشرتها من الذهب الخالص والماركة ماركة (الترام) التي يحملها أصحاب الحيثيات والأكابر. شاور نفسه وقال: أنتظر إلى أن يعود الفتوة من القناطر ثم أقدمها له، وكلما نظر فيها ليعرف الوقت تذكر أن في الدنيا إنساناً اسمه (دربالة). ومن فوق فراش المرض جاءك رجلك القديم (غراب) يتوكأ على عصاً، وخلق لا تحصى ولا تعد جاءوا من الخرابات، قل: خمسمائة، ستمائة، أو

ربما أكثر، ومن يطلون عليك من المشربيات والنوافذ أو يقفون على أسطح البيوت، فالدنيا ما هذا الذي يجري فيها، كما لو أننا في عيد الفطر أو عيد الأضحى المبارك!

ولوحت أنت للواقفين ثم ركبت الحنطور الذي جهزوه لك، وقعد أبو اليسر بجوار الحوذي. أسرع دياب هو الآخر وجلس إلى يمينك، ففي العرف العام هو الرجل الثاني وهذه هي الأصول، وأنت من جانبك لم تمانع، همست فيما بينك وبين نفسك، بأن افعل كل ما يحلو لك يا ابن اللئيمة، والخازوق في انتظارك عندما أعود.

المسافة إلى بيت الحاج رزق دقائق على الأقدام، إلا أن الحنطور قطعها في نصف ساعة. ليس فقط بسبب الزحام، فالبغل الذي يجر الحنطور كان مشكلة هو الآخر، فمن ناحية لم يكن مدرباً على السير في الاحتفالات والمواكب، فضلاً عن أنه التبس عليه أمر الوردة التي رشقوها بالقرب من عينه الشمال. لم يفهمها أو فهم المغزى الذي قصدوه منها، حسبها المسكين شيئاً يطير معه في الهواء ويريد أن يؤذيه، وكل دقيقة كان يتفاداها بانحرافة نحو اليمين فيرتج الحنطور بالتالي ومعه الناس، وما زاد الطين بِلَّة طلقات الخرطوش التي كانت تضرب في الهواء، أربكته وكان يجفل ويشب بقدميه من شدة الصوت ورائحة البارود.

وهناك أمام بيت العروس كان الحاج رزق يقف بالعمامة

والعباءة وحذاء برقبة، وحوله رهط من التجار كلهم وبلا استثناء بنفس الشكل، ووصل المأذون من قرابة ساعة وجلس في (المندرة) ومعه الدفاتر والورق. وزينات الصبايا يلبسنها الطرحة والفستان، في الظاهر كانت مخضوضة ووجهها مخطوف، ولا أدري ما الحال في الداخل، حزينة أم فرحانة؟

لم يتدهور الموقف وينقلب من الألف للياء، إلا عند وصول الركب إلى محل العطارة الملاصق لبيت الحاج رزق. كنا في أمان الله وانقلبت الدنيا فجأة، حفنة بشر والعياذ بالله خرجت لنا من تحت الأرض، وشر وعصِيّ وسلاح، خطفوا روح المليجي ودلقوا فوق الحارة صفيحة جاز، والناس ما بين ساهم أو مشلول، فلا واحد منهم حاش الموت عن الفتوة أو حتى أسعفه عقله وفهم الذي حدث ومَنْ هؤلاء الناس؟ اتضح الأمر بعدها بساعات، وبسرعة البرق شاع في كل الأرجاء أن هذه الفعلة (بنت خميس)، هو الذي عجنها وخبزها وطهاها، خرجت من كُمِّه مثلما تخرج البيضة من كم الحاوي، ومن يقول غير ذلك فهو كذاب وضلالي.

قيل هذا في الحارة، لكن بعد ماذا؟

بعد أن راح المليجي وانتهت المسألة! حتى أبو اليسر لم يرحموه، جندلوه ورموه في الشارع، وانكفأ الحوذي على بطنه من ضربة سكين، أظنه قضى هو الآخر. دياب هو

obeikandi.com

الوحيد الذي خرج منها سليماً، فلا إصابة طالته ولا خدش أو سالت منه دماء، وقعت التلفيعة التي كانت تطوق عنقه، هذا هو كل الضرر الذي أصابه.

ومن بعد العصر نصبوا سرادقاً يتسع لألف نفس، ومن أول ما نصبوه إلى أن فكوه لا مقعد فيه خلا من جالس والناس طوابير طوابير في الخارج، وكل من كان في بيته مذياع كانت أصابعه تجري على المؤشر باحثة عن محطة تُتلى فيها آيات الذكر الحكيم. وانتهى العم مفتاح تقريباً، طفق يهذي في السرادق ويبكي ويضحك في آن، فحملوه حملاً وعادوا به إلى البيت. إلى هنا والأمور كانت تسير في مجراها العادي، حتى فوجئ الناس بالأخ خميس يدخل عليهم. السرادق ساعتها - وشأنه شأن أي سرادق عزاء - كانت به حركة، الداخل والخارج والذي يساعد الناس على الجلوس، وأصوات هنا وهناك وإيماءات خاشعة لآيات القرآن التي تتلى.

توقف كل شيء بمجرد دخوله..

فما من واقف أو جالس أو يهمس بكلمة في أذن أخيه، إلا وانحبست أنفاسه وحدق فيه. سكت السرادق سكتة موت، ولو أنك رميت فيه إبرة لسمعت صوتها. وشعر المقرئ الكفيف بأن شيئاً يحدث وتوقف هو الآخر، فأدركه أحد الناس، وكالعادة في التعامل مع الكفيف مال على أذنه وأسرَّ

له بأن خميساً معهم في السرادق ويبحث له عن مكان يجلس فيه، فاستعاذ الكفيف بالله وكانت سماعة الميكروفون لا تزال أمام شفتيه فسمع الاستعاذة كل الناس.

المقعد الوحيد الذي كان خالياً كان بجوار الريس دربالة فاتجه إليه خميس، وما إن هم بالجلوس حتى هب دربالة واقفاً ويقول: حسبي الله ونعم الوكيل، وبغضب ملحوظ وتكشيرة رآها كل الناس غادر السرادق. ولم يتحمل الحاج زكي الموان، قام وغادر هو الآخر. ومن الصف المقابل سمعنا الحاج رزق يقول لمن حوله: ما الذي يفعله هذا الوضيع هنا؟ ويجيء للعزاء! صحيح أن الذين اختشوا ماتوا!

وشوهدت عيال تأتي من الخرابات، ليسوا عيالاً من النوع الذي يعرف الواجب ويعزي في السرادقات، أكيد جذبتهم رائحة خميس. وقبلهم بساعتين أو ثلاثة كانت عيال غيرهم تحلق بالسرادق، عيال من عيال المدارس لاحظنا بينهم الولد (أبو نظارة نظر) الذي كان يقف مع دياب في أعلى سطح السناري ويضبط له الإيقاع أيام عركة أولاد هارون، وعلى خلاف العرف والتقاليد عرت النسوة رؤوسها ونزلن من البيوت. ألف نفر تقريباً أحاطوا بالسرادق من كل جهة، ما بين امرأة ورجل وصبية وصبي، غير ألف مثلهم كانوا بالداخل.

الشيخ الكفيف هو الذي حسم المسألة..

لم يكمل ما تبقى من آيات في (الربع) الذي يتلوه، وبلا مشورة أو مراعاة للأصول فض العزاء، قال: صدق الله العظيم، واقرءُوا الفاتحة على روح المليجي ثم استعيذوا بالله من هذا الضلالي الذي يجلس بينكم.

هذا الذي فعله الكفيف كان القشة التي قصمت ظهر البعير، إذ ساء الحال طبعاً أكثر من السوء الذي هو فيه وشاطت النار في الجميع، هرج ومرج وتشويح والذي صاح في خميس بأن يغور من هنا، والذي عبر عن رأيه بالشتائم أو هدد بشيء في يده، ومن ليس له في الانفعال فلبث هادئاً في موضعه يقرأ الفاتحة ويستعيذ. وفي الدقيقة نفسها سمعنا (غراب) يزعق بأعلى صوته من جوف السرادق، بأن قم من هنا يا عديم الضمير، اتركنا واترك الحارة في حالها وإلا هرسناك وجعلنا أكبر قطعة فيك كرأس عود الكبريت! لم يفعل غراب أكثر من ذلك، فهو (مصاب حرب) ولو استخدم يده أو أتى بحركة غير محسوبة لراح فيها، الحنش هو الذي أكمل، كان يجلس في الصف الذي وراء خميس، ركب فوق ظهره وشل حركته، وتدفقت عيال ممن كانوا بالخارج صوب خميس، وحذا حذوهم أناس من المعزين، والمثير للدهشة وتقليب اليدين والاستعجاب أنه كان بينهم أناس لا لهم في العراك ولا البهدلة كالعم زاهر الحلاق وسبعاوي الإسكافي والشيخ شلش الطيب الوديع الذي لا

تخرج من فمه الغلطة ولا العيب. نزلوا عليه بعزم ما فيهم، تقريباً أبادوه، ألف ندبة على إصابة على عضة أو خربوش، كان للحنش النصيب الأكبر في إحداثها، لا أظن أن الشيخ خميس عاد ينفع بعد ذلك ولا حتى بعد عشرات السنين.

***

عاد قناوي بظهره إلى الوراء بعد هذا المشهد..

ليس لديه جديد، على الأقل الآن، والحنش منذ ساعة وهو يغطُّ في النوم، تأمله مبتسماً ثم دفع ثمن المشاريب وغادر..

***

obeikandl.com

المليجي

(رواية)

كمال رُحيِّم

من نهج البُردة

يا نفسُ دنُياكِ تُخفْي كلَّ مُبكيةٍ

وإن بدَا لكِ منْها حُسنُ مُبتَسمِ

والنَّفْسُ من خَيْرِها في خيْرِ عَافيةٍ

والنَّفْسُ من شَرِّهَا في مَرْتعٍ وَخمِ( )

والخْلقُ يَفتك أقْواهمُ بأَضْعفِهم

كاللَّيثِ بالبَهْمِ( ) أو كالحُوتِ بالبَلَمِ( )

أحمد شوقي

obeikandl.com

كتب للمؤلف

(١)

الأعمال الإبداعية

* لقمة العيش مجموعة قصصية.
الطبعة الأولى : دار النسر الذهبي، سنة ١٩٩٤.
الطبعة الثانية : دار النيل، سنة ٢٠٠٥.
الطبعة الثالثة : دار سفنكس، سنة ٢٠١١.
وقد فازت قصتان من هذه المجموعة بالجائزة الأولى لنادي القصة، عامَيْ ١٩٩٧، ١٩٩٨.

* قلوب منهكة الطبعة الأولى : دار النيل، سنة ٢٠٠٤.
الطبعة الثانية : دار سفنكس، سنة ٢٠٠٩.
وقد ظفرت هذه الرواية بجائزة الدولة التشجيعية سنة ٢٠٠٥.

* أيام الشتات الطبعة الأولى : دار سفنكس، سنة

obeikandl.com

.٢٠٠٨

كما صدرت ترجمتها الإنجليزية من دار النشر بالجامعة لألأمريكية في مايو ٢٠١٢، بعنوان (Dayes in Dias-pora).

* أحلام العودة الطبعة الأولى : دار سفنكس، سنة ٢٠١٢.

obeikandl.com

(٢)

الاتجار غير المشروع في المواد المخدرة

الأعمال القانونية

* السلطة في الفكرين الإسلامي
دار النهضة العربية، ١٩٨٧.
والماركسي

* القانون الإداري.
مطبوعات جامعية.

* نظم الحكم.
مطبوعات جامعية.

* الإدارة العامة.
مطبوعات جامعية.
* المدخل إلى العلوم القانونية.
مطبوعات جامعية.

* الأساليب الدولية لمكافحة التهريب
مطبوعات جامعية.

obeikandl.com